سليمان أدونيا

حُبّ في جدّة

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

سليمان أدونيا

حُبّ في جدّة

روايـــة

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

سليمان ادونيا: حُبّ في جدّة

ولد سليمان أدونيا في إريتريا لأمّ إريترية وأب أثيوبي. وأمضى فترة حياته المبكّرة في مخيّم للاجئين في السودان بعد مذبحة أمّ هاجار في عام ١٩٧٦، وفي بداية فترة مراهقته عاش ودرس في جدة، بالمملكة العربية السعودية. وفي عام ١٩٩٠، تمكن هو وأخوه من الحصول على اللجوء في المملكة المتّحدة كمهاجرين دون سنّ البلوغ. وبعد أن تعلّم اللغة الإنكليزية، حصل على درجة البكالوريوس في علوم الاقتصاد من يونفيرستي كوليدج لندن، وعلى الماجستير في دراسات التطوير من كلية الدراسات الشرقية والافريقية، في جامعة لندن. وهو يعيش في لندن. وهذه هي روايته الأولى.

سليمان أدونيا: حُبّ في جدّة، رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

الطبعة الأولى ٢٠١٠

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

The Consequences of Love

By: Sulaiman Addonia 2008

©Al-Kamel Verlag 2010

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

إهــداء

أهدي هذا الكتاب مع حبي العميق

إلى أمّي وجدتي وجدي لأمي،

وإلى ذكرى أبي.

شكر

إنني مدين لثلاثة أشخاص خاصّين جداً: حبيبتي لكونها رفيقة، وداعمة كبيرة، والقارئة الأولى. وصديقي كيفين كونروي سكوت، وكيلي، بسبب إيمانه المطلق وتوجيهاته وشدة حماسته. ولصديقتي كلارا فارمر للتحرير الرائع والدعم الكبير الذي قدمته لي.

وإلى جوليت بروك وسوزان بورتر، محرّرتيَّ في أمريكا، لتقديمهما مساهمات كبيرة لهذا العمل، وإلى جميع العاملين في تشاتو أند ويندوس لأنهم كانوا رائعين؛ وللسيدات الأربع في مؤسسة ب. أ. وات على تعليقاتهن الممتازة.

وإلى ديفيد غوثارد، وبنيافانغا وينينا، وكاديجا جورج لما أبدوه من الثقة في عملي في تلك الأيام الأولى.

وأود أن أخصّ بالذكر أخي صالح. والرحلة لا تزال متواصلة بطريقة ما.

وأخيراً، أشكر الفتيات الغامضات في جدة اللاتي جعلن الحب ممكناً برسائلهن السرية.

أشكركم جميعكم.

مهما كان الحلم الذي كنت أحلم به لرسم مستقبلي، كانت أمّي على الدوام محور أحلامي. أما الآن فقد بدأ ذلك الحلم يتسرب من قبضتي. فها هي ذي تبعث بي إلى مكان بعيد، ولمّا أتجاوز العشر سنوات من العمر، وأخي لم يبلغ بعد الثلاث سنوات.

كنّا في مقهى بسيط عند إبط النهر. وعند سفح التلّ، كان هناك دغل يمر فيه درب خفي يمتد من قريتنا في إريتريا حتى شرق السودان. كان درباً ضيّقاً لا يمكن الانتقال عليه إلا على الجمال.

كان بعض المهرّبين قد وصلوا. رحت أراقب اهتزاز ضوء مصابيح زيت الكاز وهو يتأرجح على جوانب الجمال. وكان يتجمهر هناك عدد من الأشخاص، لكن لم يكن جميع الأشخاص الموجودين فارين من الحرب الدائرة، فقد جاء بعضهم، كما هو حال أمّي وحال النساء الأخريات اللاتي يعشن في قرية «تلّ العشاق»، للتوديع. أما معظمنا، مثلي أنا وأخي، فقد جاء لكي يُهَرَّب. كانت أمّي كلّ ما أملكه في دنياي، وكنت أخشى اللحظة التي تطفأ فيها المصابيح وتبدأ الجمال تمشي في الدغل لبدء رحلتنا. وعندها سينتهي العالم الذي عرفته وأحببته كثيراً.

كنت أقف إلى جانبِ سميرة، أعزّ صديقات أمّي. وكانت أمّي تقف

على مسافة بضعة أمتار تشتري من بائعة الشاي حليباً دافئاً لإبراهيم، وظهرها نحوي. غرفت بائعة الشاي قليلاً من الحليب من القِدر ووضعته في كوب من الصفيح وقدمته لإبراهيم الصغير.

وصل عدد آخر من الجمال. كان الرجال يسيرون وراء الجمال، يضربونها أحياناً بعصي طويلة. كانوا مهرّبين مشهورين، رجال بيجا من قبيلة بني أمير. وكانوا جميعهم عاقدي الشعر، ويرتدون جلابيات بيضاء وصداري زرقاء، وتتأرجح السيوف من فوق أكتافهم.

عادت أمّي إلى المكان الذي كنت أقف فيه مع سميرة. من الغريب أنه لم تبق دموع كثيرة تذرف الآن. إذ يبدو أننا جميعنا ـ سميرة وأمّي وحتى أنا ـ قد بكينا طوال اليوم، ولم يتبق لنا الآن سوى أن نقول الوداع.

عندما رأيت أمّي تقترب، نظرت إلى وجهها. كانت ترتدي ثوباً أسود طويلاً، وحذاءها الأحمر الإيطالي الصنع الأثير لديها، وهو هدية قدمتها لها سميرة. كانت أمّي طويلة القامة لكن الحذاء جعلها تبدو أطول.

وعندما أصبحت بجانبي، أعطت إبراهيم إلى سميرة وأمسكت يدي. ولكي تودعنا سميرة، انضمّت إلى النساء الأخريات اللواتي كنّ ينتظرن بالقرب من الجمال وضوء مصابيح الكاز.

وفجأة سمعت صوت جلبة مدوية. نظرت إلى السماء ورأيت طائرة مقاتلة أثيوبية تحلق فوق قريتنا. ضغطت على يد أمّي ودفنت رأسي في صدرها. أغمضت عينيّ، ورحت أتضرع: «أرجوك يا ربّ إجعل هذه الطائرات تبتعد إلى الأبد. أرجوك يا ربّ. أرجوك يا ربّ».

عندما عاد الهدوء إلى السماء، جاء أحد المهرّبين إلى أمّي وقال: «رحيمة، إن الجمال جاهزة. لا تقلقي. لن يحدث شيء لطفليك».

رفعت أمّي مصباح الكاز. أمسكت يدي وبدأت تسير نحو القافلة. لكنني سحبتها، وثبتّ قدمي بقوة في الرمل، وقلت: «لن أتزحزح من هنا يا أمّي».

انحنت أمّي أمامي. تدلى قرطاها وأخذا يتأرجحان مع النسيم. تضوعت من رقبتها رائحة جميلة مثل نفحات من صمغ اللبان منبعثة من موقد البخور. نظرت إلى شعرها الأسود الطويل. أسندت رأسي على صدرها. أحاطتني بذراعيها. تمنّيت أن أبقى على هذه الحال ما حييت.

همست أمّي تقول: «حبيبي، إني أفعل ذلك لأنني أحبّك».

توسلت إليها مرة أخرى، «أرجوك يا أمّي، لا تبعدينا عنك، أريد أن أبقى معك. أرجوك يا أمّي».

انسحبت بلطف، وقالت: «أريد أن أنظر إليك يا حبيبي».

أمسكت وجهي.

«ليضرب أحدنا وعداً للآخر»، قالت بصوت منكسر رقيق، والدموع الصامتة تنهمر فوق خديها.

«ليعد أحدنا الآخر بأن نكون دائماً هكذا حيثما كنا». شبكت أصابعها بأصابعي وأحنت رأسها لتقبّل يدي.

أطلق المهرّبون نداءهم النهائي مؤذناً الانطلاق. عانقت أمّي ووقع مصباح الكاز على الأرض، مضيئاً حذاءها الأحمر في ظلمة الليل.

عندما بدأت الجمال تسير، نظرت إلى وجهها. أردت أن أراه للمرة

الأخيرة. لكن الضوء عند قدميها تلاشى شيئاً فشيئاً واختفت أمّي عن ناظري.

الجزء الأول

فيلم بالأبيض والأسود

كان مساء الجمعة الثاني من تموز (يوليه) هو الموعد المحدد للمغادرة. كان ذلك في عام ١٩٨٩، وكان الذين يملكون أموالاً كافية لقضاء العطلة الصيفية على وشك أن يغادروا مدينة جدة. كنت قد تركت نافذة الغرفة مفتوحة لكي يتسلل إليها النسيم العليل النديّ. تنشقت رائحة لحم الكبسة الممزوج بالتوابل وبعطر كولونيا الرجال، روائح النهار وهي تتحوّل إلى روائح الليل.

كان جرس الهاتف يرن. بعد ستّ رنات رفعت السماعة. إنه جاسم. وهو يريد مني أن أذهب إلى المقهى لأودعه. إنه سيغادر إلى باريس غداً. كان يسافر دائماً إلى الخارج ويعود محملاً بالهدايا. كان يقول لي إنها تشجع على إثارة الشهرة في نفوس الذين يحبّهم.

وقال أيضا إنني يجب أن آخذ الرسائل التي أرسلتها إلى أمّي. فقد حاولت مرات عديدة أن أرسل رسائل إلى أمي، لكنها كانت تعود إلى المرسل باستمرار. وكنت أستخدم مقهى جاسم عنواناً لاستلام بريدي منذ أن تعرفت عليه.

في ذلك الحين، كنت أعيش في شقّة صغيرة جداً في عمارة صغيرة ذات طابقين. كان ذلك كلّ ما كنت أقدر عليه لأنني كنت أكسب أربعمئة ريال فقط في الشهر من عملي في غسيل السيارات. وكانت الشقّة تقع في نهاية شارع فقير طويل ينتفخ في وسطه، مثل رجل ذي

بطن كبيرة وساقين رفيعتين طويلتين. وعند الدوّار، كان الشارع محاطاً بالدكاكين والمطاعم، قبل أن يعود ليمتد ضيقاً حتى الكرنتينا.

أثناء النهار، كانت صفوف البنايات المطلية باللون الأبيض تتألّق تحت أشعة الشمس وكان عدد الرجال بأثوابهم البيضاء يفوق عدد النساء المتشحات بعباءاتهن السود. كان هذا المشهد يجعلك تشعر كأنك تشاهد فيلماً قديماً بالأبيض والأسود.

رحت أتمشى أمام الفيلات، حيث جعل النسيم أشجار الحدائق ترقص مثل راقصات باليه يتحركن ببطء. عندما أنظر إلى حيّ النزلة، أرى أعلى بناية في حيّنا. كانت بارزة بسبب طوابقها التسعة، وكانت معروفة لأن الأشخاص الذين يقيمون فيها أغنياء.

وعلى الرصيف أمامي، أرى شابيّن يتمشّيان، يمسك أحدهما بيد الآخر. كانا يسيران باتجاه دكان اليمني. بعد لحظات قليلة، توقّفت لكي أسمح لرجل بالمرور. كان الرجل يرتدي ثوباً ويضع على رأسه طاقية، ويحمل صندوقاً مليئاً بقناني البيبسي البلاستيكية. دسست قميصي في لباس الرياضة الذي أرتديه وتابعت طريقي.

رائحة عطر المسك ملأت منخريّ. أقصد أنني كنت أقترب من أكبر مسجد في الحيّ. ذات مرة كنت أعيش مع خالي في بيت ملاصق للمسجد، أما بيتي الجديد، فقد كان على بعد بضعة أحياء من الشارع نفسه، أما هذا المسجد، فقد كان لا يزال الأقرب لي.

رأيت جماعة مؤلفة من ستة رجال ملتحين يقفون خارج المسجد. كان أحدهم يقف إلى جانب الآخر فبدوا وكأنهم ملتصقون عند الأوراك والأكتاف.

تنحّوا جانباً مفسحين الطريق للإمام الضرير الذي خرج من المسجد. كان هو الذي جعلني أتوقف عن الذهاب إلى المسجد للصلاة. كان يمسك بذراع رجل طويل يحمل حقيبة جلدية سوداء. كانت لحيتاهما الطويلتان تهتزان برفق في الريح.

اجتزت الشارع وخفضت رأسي وبدأت أسير في الاتجاه المعاكس لطريقهما.

وفجأة، انعطفت سيارة جيب معروفة ذات نوافذ مظلّلة، نحوي، وتوقّفت مصدرة صوت صرير شديد. تسمّرت في مكاني. إنها سيارة المطوّعين. أردت أن أجري لكنني شعرت بأن ساقيَّ ثقيلتان. قفز ثلاثة رجال ملتحين من السيارة واتجهوا نحوي. لم أستطع أن أتزحزح من مكاني قيد أنملة. لكنهم تجاوزوني ودخلوا إلى العمارة التي كانت خلفي.

بعد ثوان، خرجوا من العمارة برفقة محسن. ومع أنني لم أكن قد تحدثت إليه من قبل، فقد كنت أعرفه من المدرسة. لم يكن من الممكن أن أخطئ محسن ـ فقد كان يقلد عمر الشريف، الممثل المصري المعروف من ستينيات القرن العشرين. استدرت إلى الحائط. تبعتهم أمّ محسن وهي تبكي، وراحت تتوسل إليهم لأن يتركوا ابنها كرمى لله.

«أرجوكم سامحوه، إنه ابني الوحيد، معيلي الوحيد. إن الله رحيم. إن الله هو المحبة». دفع المطوّعون محسن إلى داخل سيارتهم الجيب والتفتوا نحو أمّه.

لوّح أحدهم بعصاه وجرى نحوها، صارخاً: «ادخلي وغطّي

وجهك، لعنة الله عليك»، وضربها على ظهرها وردفيها ودفعها إلى داخل العمارة.

وبعد لحظة، انطلقت سيارة الجيب مسرعة باتجاه شارع مكة المكرمة. هرعت إلى العمارة لأرى أمّ محسن. من خلال زجاج النافذة الصغيرة، رأيتها تجلس على الدرج تنتحب. كانت يدها ترتعش عندما حاولت أن تنهض. قرعت الباب لكنها لم ترفع بصرها.

عندما وصلت إلى مفترق شارع النزلة وشارع مكة المكرمة توقّفت لأقرر إلى أين سأذهب. لم أكن أرغب في أن أسير من أمام فيللا أبو فيصل لكي لا ألتقي بأشهر سيّاف في جدة. إنه والد فيصل، صديقي في المدرسة، لكنني عندما نظرت إلى الطريق، رأيت سيارة بيضاء من طراز كاديلاك مركونة خارج بيته، فمشيت على الفور في الطريق الآخر.

حيّاني جاسم، وابتسامة تزيّن وجهه. كان شعر عثنونته المشذّبة مجعداً وملتفاً إلى الأعلى، تبرز ابتسامته العريضة. كان يرتدي الزي السعودي، مشمّراً عن ساعديه المكسوين بالشعر وهو يسندهما إلى الطاولة.

مدّ بعض الزبائن رقابهم لينظروا إليّ. كانت رائحة الشيشة ـ المفعمة بالدخان، الحلوة ـ تمتزج شيئاً فشيئاً برائحة القهوة الحارة الممزوجة بكمية كبيرة من حب الهال. كان جاسم منهمكاً في عمله، لذلك جلست ورحت أنتظر.

أجلت النظر في الغرفة ولمحت النادل الجديد. كان شاباً نشيطاً، ينسل من بين الفراغات الضيّقة بين الطاولات وكأن نصفه الأسفل مصنوع من هلام. مرّ من أمامي، ورأيته عندما امتدت أيدي الزبائن الآخرين لملامسته. كان يبعد أيديهم عنه وكأنها ستائر ناعمة.

كانت الطاولات تكاد تلتصق ببعضها البعض بشكل متعمد: كان جاسم يريد أن يحتك الرجال ببعضهم بعضا لكي تنطلق شرارة النار. «لا شيء أحلى من رؤية رجلين يداعب أحدهما الآخر بجسديهما»، قال لي ذات مرة، وأضاف، «إن ذلك يجعلني أتخيّل أنه يمكن أن ينطلق لهيب الحبّ».

آنذاك، لم أفهم قصده. «لكن إذا ظن الرجال لثانية واحدة بأنهم يتلامسون لأيّ سبب آخر غير ضيق المكان، فمن المؤكد أنهم سيحرقون المقهى؟» قال جاسم وهو يضحك ويهز كتفيه.

كان مقهى جاسم زاخراً بالألوان. وقد امتد هوسه بتناسق الألوان من الجدران إلى مفارش الطاولات، وإلى ما يرتديه الفتى من ثياب.

كانت الجدران مطلية في قسمين. النصف الأعلى مطلي بلون وردي غائم، والنصف الأسفل مزيّن بأزهار برية متناثرة، رسمها جاسم بلون رمادي دافئ.

وعلى الطاولة التي كانت تُحجز دائماً لفواز وأصدقائه ـ بهمساتهم المكتومة وشواربهم الغليظة ـ كان الصبي ينحني فوق الطاولة لينظفها ويرفع عنها أكواب القهوة الصغيرة. يضع الأكواب فوق الصينية ويهرع إلى أقصى ركن في الغرفة ليقف عند مكيّف الهواء. ووقف أمام الجدار وأحاط رأسه ببطء عندما رفع حاشية ثوبه ليمسح وجهه. تمكنت من رؤية بنطلونه المخملي البيج الضيّق المتناقض مع لون مفرش الطاولة الأزرق إلى جانبه.

كان الرجال قد بدأوا يتهيأون للعب الدومينو. وضع فوّاز ذقنه على يده وراح ينظر إلى الصبي. لم تستطع قسماته الصارمة أن تخفي سعير

الشهوة في عينيه. هبّ واقفاً وتوجه نحو الصبي. أمامه وأمسك يده. رحت أحدّق فيهما. بدأت الذكريات تعود إليّ عندما كنت أعمل نادلاً.

كان جاسم يجلس إلى الطاولة مع عمر، أحد أعزّ أصدقائه. كنت أحب تلك الساعات الأولى من الصباح التي تخلو من الدخان، عندما يخيم على المقهى السكون وتغلف المرء ألوان الجدران الهادئة والدافئة مثل عباءة من الحرير.

كنت أمسح الطاولة وأستمع إلى المقابلة التي يجريها كفيلي - بدر بن عبد الله باركه الله - في المذياع. كان قائداً للشرطة في منطقة جدة، وكان يتحدّث عن الشباب وعن المبادئ الأخلاقية. وفجأة قطع الحديث الهادئ مع المذيع الذي يجري معه المقابلة وانتقل ليلقي موعظة، مستشهداً بآيات من القرآن وأحاديث شريفة، محذراً الشباب من السلوك الطائش؛ وقال الكفيل: «لكننا نعمل مع المطوّعين لمحاربة السلوك اللا أخلاقي. وإن شاء الله، فإن الله سيبارك العمل الهام الذي نقوم به».

أغلقت المذياع وتوجهت إلى المطبخ، وأشعلت قطعة من الفحم، وأحضرتها بملقط إلى الطاولة التي يجلس إليها جاسم ووضعت قطعة الفحم المشتعلة على حافة قطعة الفخار المجوفة. سحبت كرسياً وجلست. مرر لي جاسم الأنبوب. وضعت المبسم بين شفتي وسحبت نفساً عميقاً، ورحت أحرّك الجمرة بالملقط. كان عمر يتحدّث عن جدال محليّ: فتى مراهق اعتقله المطوّعون لأنه تلقى رسالة من فتاة وهو في طريقه إلى المدرسة هذا الصباح.

«على حد علمي»، قال عمر، وهو يقرص خدّه الأيسر وهو يتكلّم، «في معظم الأحيان، فإن الأميرات وبنات الأسر الغنية هن اللاتي يلقين

برسائل عند أقدام الفتيان. إنهن يفعلن ذلك من باب التسلية والقضاء على الملل الذي يعتريهن. وعندما ينتهين من تسليتهن، يختفين ويعدن إلى عالمهن الخفي بالسرعة التي جئن فيها، ويتركن وراءهن فتياناً محطمي القلوب».

«كيف إذن لم تقع أيّ رسالة عند قدميّ طوال حياتي؟» سأل جاسم.

فقال عمر: «حسناً. إني أقول إن هؤلاء الفتيات أميرات وينتمين إلى أسر غنية، ويتمتعن بذوق رفيع».

نهض جاسم، والدخان يلفه، وصاح متظاهراً بأنه أُهين، «هل تقصد أنني لست رجلاً وسيماً؟»

ضحك عمر وسحب جاسم وأجلسه، وقال: «اجلس. إنك تعرف جيداً أنك لست وسيماً. بالإضافة إلى ذلك، إنك ذكي، والأذكياء لا يلقون بأنفسهم إلى التهلكة».

استيقظت من حلمي عندما ناداني جاسم باسمي. نظرت إلى الأعلى. أشار إليّ لأنضمّ إليه إلى طاولته.

«سأشتاق إليك لكنني سأجلب لك هدية كبيرة من باريس»، قال لي وهو يقبّلني على خدّي. كانت عيناه محتقنتين، وخطوط حمر تجتاز بياض عينيه.

«ألا تتعب من السفر أبداً؟»

فكّر لوهلة وهزّ رأسه ضاحكاً.

«إلى متى ستغيب؟»

فقال: «اسكت، إنك مثل نافث النار تحرقني بما تقوله».

كانت كلّ كلمة يقولها تبدو مشبعة بعطر غالي الثمن. قربت وجهي من وجهه وتنشقت عميقاً وقلت: «هل كنت تشرب عطراً؟»

فردّ: «عطر خاص من فرنسا».

جالت عيناه في عيني. بدأ العرق يتفصد من وجهه كما لو كنت حقاً أنفث النار في وجهه. لكنني كنت أرمقه بصمت.

التفت إلى جهاز التسجيل الصغير وراءه، وألقمه شريط كاسيت وضبط الصوت. بدأت أم كلثوم تغني واحدة من أغانيها الحزينة. صاح أحد الزبائن متوسلاً أن يرفع جاسم الصوت. بعض الرجال وقفوا على أقدامهم، عيونهم مغمضة، ورؤوسهم تتمايل.

نظرت إلى جاسم مندهشاً. كان أقصر مني، لكن كتفيه أعرض من كتفي. وعندما بدأ يتمايل برأسه مع موسيقى أم كلثوم، انزاح عقاله قليلاً من مكانه.

«منذ متى تستمع إلى أم كلثوم؟»

لم يجب.

بدلاً من ذلك، نظر إلى الانعكاس في المرآة وراء البار. التقى وجهانا. كان صوته العميق يقفز من المرآة. «يا لك من جميل يا عزيزي ناصر. لقد رأيتك وأنت تزداد طولاً، وأصبحت عيناك واسعتين بحجم المحيطات، وعظام وجنتك تعلو، وآه، رقبتك ترتفع إلى قبة السماء».

تبعت جاسم إلى المطبخ وعبر الممر المزدحم المؤدي إلى غرفته الخاصة.

كانت الغرفة مليئة بالأحلام والتخيلات من نوع الحياة التي يعيشها جاسم. كانت مطلية باللون الأحمر، وفيها مساحة تتسع لسرير صغير، وكرسي، وجهاز تلفزيون، وجهاز فيديو، وأشرطة فيديو مكوّم أحدها فوق الآخر. وكانت الجدران مغطاة بالملصقات والصور وقصائد شعرية مكتوبة باليد.

أغلق الباب، ثمّ أمسك يدي وأراح رأسه على صدري.

«لا توجد خفقة واحدة»، همهم، «ربما ذات يوم، ربما؟»

لم أجب.

لوهلة لم يقل أحدنا شيئاً للآخر. ثمّ وجّه يدي بلطف إلى صدره ووضعها على قلبه، وسألني، «هل تشعر؟»

كان صوته يرتعش. «لو وضعت الأرض كلها فوق صدري يا ناصر، لأحدثت أكبر زلازل في الكون».

ألقى بنفسه على سريره وانقلب ليواجه الجدار. ثمّ انقلب واستلقى على ظهره، وراح ينظر إلى المرآة المتصدّعة في السقف. ندت عنه آهة عميقة وطويلة وقال: «ناصر، كنت تبدو جميلاً عندما كنت تعيش في تلك المرآة. كنت حراً ومثيراً وشهوانياً. إنه عالمك. ويا له من عالم».

أغمض عينيه وقال: «إن المغلّف الذي أرسلته أمك فوق التلفزيون. أرجوك غادر الغرفة وأطفئ الضوء».

خارج المطبخ، رأيت الفتى الجديد.

سألته: «أرجو أن تحضر لي قليلاً من الشاي بالنعناع؟ ألقيت نظرة إلى الأسفل ورأيت الصناديق المليئة بقناني العطر. أخذت عدداً قليلاً منها ورحت أبحث عن طاولة في الخارج.

كانت السيارات تنزلق أسفل التلّ مسرعة باتجاه حي النزلة. أشعلت سيجارة ورحت أراقبها.

خرج الفتى من المقهى.

قال: «ها هو الشاي الذي طلبته». وضع الكأس الذي في شكل زهرة الخزامى على الطاولة بجانبي وصبّ الشاي من إبريق الشاي الكبير.

«ناصر؟»

«نعم؟»

«عندي شيء أريد أن أخبرك إياه».

انحنيت وهمس بسرعة، «لقد أمضيت ليلة البارحة في بيت فوّاز. والداه ليسا هنا. أخبرني الشيء المعتاد: 'إن ما نفعله حرام. لكننا في هذا البلد، كأننا نعيش في أكبر سجن في العالم، والناس في السجن يفعلون أشياء الواحد منهم للآخر لا يفعلونها لو كانوا في ظروف مختلفة'. وطلب مني أن أصبح غلامه إلى أن يتزوج. وفي جميع الأحوال، سيغلق المقهى بعد قليل لفترة الصلاة وسيأخذني معه إلى مركز التسوّق».

ودون أن ينتظر ردّاً مني، ذهب الفتى إلى الداخل. وبعد قليل خرج هو وفوّاز من المقهى وسارا في الشارع ويد أحدهما متشابكة بيد الآخر.

عندما كنت في السادسة عشرة من العمر، وكنت أعمل في المقهى منذ سنة تقريباً، أخذني رجل يدعى أبو عماد إلى مركز التسوّق في وسط جدة. كنت قد أطلقت على هذا الرجل اسم «السيد هادئ». كان يقارب الأربعين من العمر. وعندما وصلنا إلى مركز التسوّق، رأيت رجالاً

كثيرين يتمشّون في الصالة الكبيرة يتجاذبون أطراف الحديث ويضحكون، أيديهم متشابكة، أو يمسك أحدهم يد الآخر.

كان مركز التسوّق المكيّف مشيّداً على النموذج الغربي، وكانت طوابقه الخمسة مليئة بالمحلات التي تبيع منتجات غربية. كان جاسم قد قال لي ذات مرة: «إن مركز التسوّق هذا يضاهي أجمل مراكز التسوّق التي يمكن أن تراها في باريس أو في لندن. ويمكنك أن تشتري هنا جميع البضائع الأوروبية والأمريكية من الأجهزة الكهربائية والأحذية الشهيرة والملابس، بل حتى يمكنك أن تجد أشياء من ماركة أرماني وكالفين كلاين».

خارج مركز التسوّق تقع ساحة القصاص حيث تُقطع الرؤوس والأيدي، ويُجلد العشاق، أو تُقطع رؤوسهم، أو يُرجمون حتى الموت. وفي هذا المكان يعمل أبو فيصل.

داخل مركز التسوّق، اشترى لنا رفيقي مشروباً خفيفاً وجلسنا بالقرب من البركة. مرّ مطوّعان. يحمل كل منهما عصا، وكانا يتلفتان يمنة ويسرة، بهدوء وبتأن.

قال السيد هادئ: «انظر، إنهم يبحثون عن مواعيد سرية بين الرجال والنساء». ثمّ مال نحوي وهمس في أذني، «قبل أيام، رأيت مشهداً أمسك فيه المطوّعون شاباً وامرأة. الحمد لله أنك رجل. وإلا لكنا الآن في طريقنا إلى سيارة الجيب تلك، ولا يعرف إلا الله إلى أين بعد ذلك».

اختفى النادل وفوّاز عن نظري. وقعت عيناي على امرأة ترتدي برقعاً وهي تغادر محلاً لبيع الأحذية قبالة مقهى جاسم. عندها اقتربت

سيارة المطوّعين الجيب ببطء، وتوقفت خارج محل الأحذية، وحجبت رؤية المرأة عني. لقد ذكّرني ذلك بأنه مضى على إقامتي في هذا البلد عشر سنوات لم أتحدث خلالها مع فتاة أو أمسك بيد امرأة.

برزت المرأة ثانية من ظلّ السيارة الجيب، واجتازت الشارع ومضت في طريقها. ظلت سيارة الجيب واقفة والمطوّعون قابعون في داخلها، لا شكّ في أنهم يراقبون الشارع من وراء نوافذها المظلّلة، للتأكد من أن جدة لا تزال عالماً بلونين هما الأبيض والأسود.

جرعت كأس الشاي جرعة واحدة وفضضت المغلف. كان يحتوي على جميع رسائلي الأخيرة التي كنت قد أرسلتها إلى أمّي، وبينما رحت أتصفّحها لاحظت أن الحبر الأسود لا يزال يلمع. شعرت بالرغبة في أن أجري، أن أركض بعيداً عن جاسم وذكريات المقهى الذي يمتلكه.

كنت في العاشرة من عمري، وأخي إبراهيم في الثالثة، عندما أحضرنا خالي إلى جدة من مخيّم اللاجئين في السودان. أقمنا في المخيم خمسة أشهر. كان خالي، أخو أمّي الأكبر، يعمل سائقاً لدى أسرة سعودية في جدة. وكان قد سمع من شخص قادم من قريتنا كان قد التقى به في أحد المقاهي حيث يجتمع الإريتريون وأخبره عنا بأننا نعيش في مخيم. وأرشده إلى المكان الذي يمكن أن يجدنا فيه.

عندما وصل خالي وقال إنه جاء ليأخذنا إلى المملكة العربية السعودية، رفضت. كنت أريد أن أبقى في المخيم بالقرب من أمّي. قال خالي إن جدة ليست بعيدة. «كما ترى، لن تكون بعيداً كثيراً عن إريتريا، التي تقع قبالة جدة، في الجانب الآخر من البحر».

وتمكن أخيراً من تغيير رأيي عندما قال إن السعودية من أغنى البلاد على وجه الأرض وإنه بإمكاني أن أكسب جبالاً من النقود لأرسلها إلى أمّي.

ذهبنا إلى الخرطوم، عاصمة السودان، ومن هناك استقلينا الطائرة إلى جدة.

هبطت طائرتنا في مطار جدة، في وقت مبكر من مساء يوم قبل شهر رمضان بأيام قليلة في عام ١٩٧٩. منذ لحظة وصولي، أحببت المدينة. استقلينا سيارة أجرة إلى بيت خالنا. كانت الشوارع عريضة

ومضاءة جيداً، وكانت عيناي تتنقلان من بناية إلى أخرى، ومن شارع إلى آخر. وفي مخيّم اللاجئين، في هذا الوقت من الليل، لا بد أن القمر والنجوم ستكون مضيئة، تمنحنا نوراً كافياً لنتحرك بسهولة. أما في جدة، فلا حاجة للقمر ولا للنجوم. نظرت من النافذة ورأيت المصابيح المعلقة فوق الشارع من أعمدة عالية. كانت مثل آلهة توّجه أضواءها السخية نحو المدينة.

«يا الله، إن الشوارع ناعمة جداً. تكاد تخلو من المطبات»، قلت لخالي.

كانت هناك عمارات عالية على جانبي الطريق، أعلى بكثير من البيوت ذات الطابق الواحد في الخرطوم. وعندما انطلقت بنا السيارة إلى جانب الطريق الساحلي، فتحت النافذة ورحت أتنشق النسيم الذي يعبق برائحة السمك والملح.

دخلت سيارة الأجرة نفقاً متجهاً إلى عمق الأرض. «خالي، إننا ذاهبون تحت الأرض»، قلت، «الموتى فقط يذهبون إلى هناك». عندما

غادرنا النفق، هتفت فرحاً، «إننا لا نزال أحياء». ابتسم خالي ومسّد رأسي.

عندما توقّفت السيارة عند إشارة المرور، رأيت ساحة ينتصب في وسطها تمثال لدراجة هوائية كبيرة، ورأيت في مخيلتي شخصاً يركبها. أغمضت عيني للحظة ورأيت قدمين على دواستين تنتعلان حذاء أحمر إيطالي الصنع، وساقين نحيفتين في بنطلون جينز أزرق، وشعراً أسود طويلاً يتهدل فوق وجه امرأة.

عندما أصبح ضوء الإشارة أخضر، وانطلقت السيارة، رأيت رأسها يميل قليلاً وهي تنظر إليّ، ثمّ غمزتني. قلت لنفسي لا بد أنها أمّي، وأمسكت يد أخي ورفعتها من حضن خالي. قربتّه مني وقبّلته على خده، لكنه أرخى رأسه وأسنده على صدر خالي، وغطّ في النوم.

«إبراهيم؟» بدأت أوقظه، «انظر، انظر». كنت مستغرقاً في النظر إلى الشارع الذي تمتد على جانبيه فيلات ضخمة، وأشجار، وسيارات جميلة بأشكال وألوان وأحجام مختلفة. «إبراهيم، انظر، انظر إلى هذه السيارات». دفعت رأسي في الفراغ بين المقعدين لأتمكن من إلقاء نظرة أفضل، ثمّ تراجعت وهمست في أذن إبراهيم، «ستصبح لدينا سيارة كهذه ذات يوم».

عندما تابعنا السير، شعرت بشيء من الاضطراب. فبالإضافة إلى الرجال الذين يرتدون أثواباً بيضاء، كانت تسير أشكال متشحة بالسواد، تبدو تحت أضواء الشارع كأن ظلال الرجال قد سقطت على جدران البيوت البيضاء. ذكّرني ذلك بالقصص عن الأرواح غير المرئية التي كانت تحكيها لنا أمّي، وهنا يمكنك أن تراها في الواقع. كنت أعرف أن

السعودية بلد مقدّس وقد تحدث فيه معجزات في جميع الأزمان. وبما أنني لم ألمح أيّ امرأة في الشارع، بدأت أتساءل ما هي هذه الأشياء المتشحة بالسواد.

«خالي، هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟»

فأجاب، «نعم يا بني».

«أليست تلك امرأة؟»

«ماذا؟»

«هناك، انظر، هناك»، وأشرت إلى الظلال التي تمشي.

ابتسم خالي وقال: «نعم. أوه، بارك الله في جهل الأطفال».

«لماذا يضعن حجاباً هكذا؟ فالطقس هنا ليس بارداً».

«النساء يرتدين العباءات».

«خالي؟»

«نعم».

«ألا يشعرن بالحرارة عندما يلبسن بهذه الطريقة؟ كيف يمكنهن أن يتنفسن؟»

«إنه أمر الله. لكنه، جل جلاله، سيكافئهن في الجنة إن شاء الله».

«إذن هل ستكون البنات في مدرستي هكذا أيضاً؟»

«ستذهب إلى مدرسة مخصصة للفتيان. للفتيات مدارسهن الخاصة».

تذكرت المدرسة الصغيرة في مخيّم اللاجئين التي كان جميع أصدقائي فيها من الفتيات. وفي الواقع كان الصبية يضربونني بسبب

غيرتهم مني عندما كنا نلعب لعبة العريس والعروس لأن جميع الفتيات كن يخترنني. حكيت لخالي القصّة.

«يا إلهي إنا نسألك العفو. سيكون أمامي عمل شاق مع هذا الفتى. اسمع يا ناصر، لا يجوز أن يختلط الفتيان والفتيات».

«لماذا؟»

«إن ذلك حرام يا بني».

«لماذا حرام؟»

«أسألك الصبر يا رب. لأن..»، توقّف ونظر بعيداً. وبعد بضع ثوان، أضاف، «لأننا مثل النار والبنزين، وإذا التقى الاثنان، فإن لهيباً عظيماً سيندلع، وهكذا يصبح الجحيم في هذه الأرض وفي الآخرة. لذلك كما ترى يا بني، فإن الله يحاول أن يحمينا. هل فهمت؟»

«حسناً»، قلت، وأنا لا أزال أنظر من النافذة، لا أفهم شيئاً.

«لقد وصلنا»، قال خالي عندما توقفت سيارة الأجرة أمام بناية بيضاء مرتفعة، ثم أضاف، «إن اسم هذه المنطقة حي النزلة».

لم يكن قد مضى على مغادرتنا خيمتنا في مخيّم اللاجئين سوى بضعة أيام، لكن بدا لي أننا أصبحنا في كوكب آخر.

فتح خالي باب البيت. عندما رأيت جهاز التلفزيون، والأريكة السوداء الكبيرة ذات الخطوط الحمراء، والسجادة الزرقاء السميكة، التفتُّ إلى خالي بعينين واسعتين، قبّلت يده وبكيت، وقلت: «شكراً لك يا خالي لأنك أحضرتنا إلى هذه المدينة الجميلة».

لكنني تخيّلت بعد ذلك أمّي التي تعيش وحدها الآن مختبئة تحت

سريرها خوفاً من القنابل، كما كنا نختبئ عندما كانت الطائرات الحربية تغير على قريتنا ليلاً. «إرحمها يا الله»، رحت أدعو الله بصمت، مقسماً في الوقت نفسه بأنني سأدرس وأبذل ما بوسعي لأجلبها هي وسميرة إلى بر الأمان.

لكنني في تلك الليلة، عندما هربت من مقهى جاسم، شعرت بأن جدة أصبحت تبدو مختلفة، ولم تعد تبدو لي بأنها لا تزال المكان نفسه.

وفي الأيام الماضية، عندما كانت هذه المنطقة مجرد مكان قاحل يقع على حافّة الصحراء، أطلق عليها السكان اسم جدة، ويقال إن «جدتنا حوّاء»، أمّ البشر، قد دفنت بينهم. لكنني في تلك الليلة، قلت إن هذه مجرد أسطورة.

وأذكر كيف أن مخطّطي المدينة المعاصرين قد تابعوا عادة أسلافهم بإرهاق المدينة بمنحها اسماً أكبر من حجمها، وأطلقوا على جدة اسم «عروس البحر الأحمر»، وألبسوها وزيّنوها بأغلى الأشياء. فهناك تماثيل برونزية تزيّن جميع الشوارع الرئيسية. كانت العروس تتلألأ بالمجوهرات، وهناك الجسور الرائعة التي تصل المدينة من جميع الاتجاهات، مثل رسوم وأشكال الحنّاء المرسومة على يدي عروس، وهناك دروب تحفّها الأشجار الشديدة الشبه بالتويجيات المتناثرة عند قدميّ العروس.

لكن على الرغم من كلّ هذا، قلت لنفسي، لا يمكن أن تُعرف جدة باسم «عروس البحر الأحمر»، لأنها تفتقر إلى السعادة الغامرة التي تغمر امرأة على وشك الزواج. ففي جدة، الكثير من الناس الذين تمتزج

أيامهم ولياليهم في رحلة طويلة من الحزن، وأنا واحد من هؤلاء الناس.

لكنني في ذلك الحين، لم أكن أعرف أن حبّي الحقيقي ينتظرني في طيّات ثوب زفاف جدة.

كانت الساعة تقارب الثامنة والنصف عندما عدت إلى البيت من مقهى جاسم. كنت قد رتّبت للقاء صديقي يحيى في وقت لاحق، لأنه كان ذاهباً إلى معسكر خلال العطلة في جبال أبها، وكنا قد قرّرنا أن نمضي آخر ليلة سيقضيها في جدة في مكاننا المعتاد، قصر السرور.

لما كان قد تبقى لي القليل من الوقت للقائنا، قرّرت أن أقرأ قليلاً. جلست إلى طاولتي الصغيرة قبالة اللوحة التي رسمها جاسم لأمّي. وعندما وافق جاسم، الذي كان قد تدرّب على الرسم، على رسم صورة جانبية لها، جلس أمامي واضعاً أمامه ورقة فارغة كبيرة وعلبة أقلام رسم صغيرة. ووصفت له بأفضل ما يمكنني، كلّ قسمات وجهها الجميل الذي أشتاق إليه كثيراً.

وعندما قلت لجاسم إنها كانت تحبّ اللون الأحمر، رسم إطاراً حولها بألسنة لهب، وجعلها تبدو كأنها نجمة. ولم أملّ من التمعن في هذه الصورة. وبينما هممت بإخراج كتابي من الدرج، رأيت المفكرة التي أدون فيها مذكراتي. وضعت الكتاب جانباً وأخرجتها.

فتحت إحدى قوارير العطر التي جلبتها من مقهى جاسم وجلست على الأرض. وضعت المفكرة إلى جانبي وجرعت جرعة، أبقيتها في فمي لوهلة قبل أن ابتلعها. وتسربت الشرارات التي تشكلت على لساني إلى وراء حنجرتي وأنفي. كان بإمكاني أن أشمّ المادة الكيميائية في

أنفي، وأحسست وكأن شفتي ولساني يحترق بعض الشيء. أمسكت أنفي وضغطته بإحكام محاولاً أن أكبح هذا الإحساس. وببطء، بدأ ينتابني دوار عندما تناولت جرعة أخرى من الكحول.

بدأت أكتب مذكراتي منذ أن أتيت إلى المملكة العربية السعودية. وكما قال لي السيد هادئ ذات مرة: «أشعر أنك لا تريد أن تقول شيئاً لأنك تنتظر شخصاً معيناً، يستطيع أن يفهم الهمهمات الحبيسة داخل صدرك. وإلى أن تجد ذلك الشخص، يجب أن تكتبها جميعها. فقد جُعلت المذكرات لأناس مثلك».

صحيح أنه لا توجد لديّ امرأة تشاركني حياتي، ولا توجد لديّ امرأة تشاركني خططي في المستقبل، فلا يوجد في جدة سوى العمل الشاق الذي لا يتوقف لعالم مليء بالرجال والرجال الذين يسيطرون عليهم. إن مذكراتي ما هي إلا حلقة وصل بيني وبين آمالي، وحافظة أسراري، ومكان مقدّس ينبض فيه قلبي بدندنة ناعمة، متفائلة.

فتحتها لا على التعيين، وقرأت: «الربيع، يوم السبت، قائمة نيسان/أبريل ١٩٨٤» تناولت رشفة أخرى من العطر وتذكرت ذلك اليوم عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري.

في يوم السبت ذاك، استيقظت كعادتي عند السادسة صباحاً وبدأت أستعد للذهاب إلى المدرسة عندما دخل خالي إلى غرفتنا. كان خالي رجلاً متديناً متعصباً وكان يكنّ لأمّي كرهاً شديداً؛ لكنه كان كذلك الشخص الوحيد في هذا العالم الذي أحاطني أنا وأخي برعايته ـ ومع ذلك فإن الإقامة معه أفضل بقليل من الأيام التي كنا نمضيها تحت إحدى الخيام في المخيم.

سألني: «هل إبراهيم يستحم؟»

«نعم»، أجبت، بشيء من السأم.

قال: «لن تذهب إلى المدرسة اليوم». لم أعرف كيف أردّ. فمن ناحية، كنت أكره المدرسة وكنت على وشك أن أقفز من فرط سعادتي لمجرد الفكرة بأنني سأمضي يوماً خارج المدرسة وبعيداً عن الدروس. لكنني في الوقت نفسه، لم أصدّق ما سمعته أذناي. فقد ضربني خالي عندما قلت له ذات مرة إنني أفضّل ألا أذهب إلى المدرسة لكي لا أحضر بعض الدروس التي تعلّمني أن أكره الذين ينتمون إلى ديانات أخرى، بل حتى تفسير الإسلام ذاته.

شعرت بسعادة في داخلي، فسألته: «لماذا؟ هل توجد مناسبة خاصة؟»

«لأن .»، وقاطعه أخي الصغير الذي دخل إلى الغرفة، بعد أن استحم وارتدى ثيابه وبدا مثل صبي سعودي حسن المظهر. وبدا وكأنه أصبح أكبر من عمره البالغ ثماني سنوات.

«إبراهيم، انتظر في الخارج. سأتكلّم مع ناصر الآن».

«حسناً يا خالي»، قال إبراهيم، الجندي الصغير المطيع. وبينما همّ بمغادرة الغرفة، نظر إليّ وهزّ رأسه وكأنه يريد أن يقول: «وماذا فعلت الآن؟»

تابع خالي كلامه، «أريدك أن تأخذ بطاقات الإقامة إلى كفيلنا، بدر بن عبد الله، بارك الله فيه. فقد طلب مني أن تأخذها له بنفسك. يجب أن نجدد تصاريح إقامتنا».

كنت أعرف منذ زمن بعيد أنه يجب أن يكون لكلّ أجنبي في

السعودية كفيل ـ رجل سعودي يكفل إقامته في المملكة لقاء مبلغ سنوي. لكن اتضح لي في ذلك اليوم فقط أن الكفيل يتحكم بشكل تام بحياة الأشخاص الذين يكفلهم. وقد اكتشفت ذلك عندما قلت لخالي: «لماذا لا تذهب أنت؟ فأنت تفعل ذلك دائماً». كنت على وشك أن أندفع خارجاً حاملاً حقيبتي المدرسية، عندما شدّني من ذراعي. وقد بدأ العرق يتفصد منه.

ثم ترك ذراعي وقال: «ناصر، أرجوك لا تكن عنيداً. يجب أن نطيع أوامر كفيلنا ونفعل كل ما يطلبه منا. أريدك أن تجدد بطاقات إقامتنا، أرجوك. لقد طلب مني أن تأخذها له أنت. وإذا لم نفعل ما يطلبه منا فإنه سيغضب، وستكون تلك هي النهاية لنا في هذا البلد. أرجوك يا ناصر. أتوسل إليك».

تردّدت. لم يتوسل إليّ خالي قط. خالي المسكين، المرهق بأعباء أبناء أخت يكرهها، الذي يعمل مهاجراً في هذا البلد الغني، لكنه مع ذلك لا يكاد يستطيع أن يتدبر أمور معيشته.

لذلك قلت لنفسي: لماذا أقاوم؟ إذ سيكون لي ما تبقى من اليوم عندما أعود.

«حسناً»، قلت لخالي، «سأذهب».

أعطاني بطاقات الإقامة.

«وماذا عن النقود؟» سألته.

«نعم؟»

« الألفا ريال التي يجب أن ندفعها له لتجديد إقامتنا».

«لا أملك نقوداً. لكنه قال إنه سيتغاضى عن المبلغ هذه المرة، بارك الله فيه».

حاولت أن أبتسم إرضاء لخالي، لكننا نعرف أنه لا يوجد شيء مجّاني تماماً بالنسبة لأجنبي يعيش في السعودية.

قرعت جرس الفيللا وفتح لي خادم إريتري يدعى هارون، واستقبلني بابتسامة وحيّاني بلغة تيغرنيا(*). طلب مني أن أستخدم الباب الخلفي لأن زوجة الكفيل وبناته على وشك أن يغادرن البيت. هززت رأسي وسرت ببطء في الممر الذي تظلله الأشجار وقرعت الباب عند المدخل الخلفي. فتح هارون الباب، كان لا يزال يبتسم، وطلب مني أن أدخل إلى الباحة الكبيرة الواسعة. طلب مني أن أعبر الباحة من الدرب الصغير الذي تحفّه أشجار مثمرة صغيرة.

وصاح هارون وهو يمشي خلفي، «علي، أخبر المعلّم بارك الله فيه، بأن الصبي هنا».

خرج علي من غرفة في الجانب الآخر من الباحة وطلب مني أن أنتظر. كانت هناك ألعاب ودراجات عادية صغيرة مركونة في الخارج. وكان جدار الباحة مزداناً بتصاميم تجريدية جميلة فوق خلفية بلون تركوازي براق، محدثة تضاداً جميلاً إزاء النباتات الخضراء. كانت تفوح رائحة بخور قوية في الباحة بينما انسل نور ذهبي من بين أشجار الحديقة. رفعت بصري وعددت أربعة طوابق. لم يكن المكان الذي أقف فيه سوى جزء صغير جداً من قصر الكفيل.

(*) اللغة الإرتيرية.

عاد علي وأخبرني أن الكفيل جاهز لرؤيتي.

«اذهب»، قال، خافضاً رأسه.

«أين؟ لماذا لا تأخذني إليه؟»

«حسناً، اذهب إلى هناك فقط»، قال، ورأسه لا يزال مطرقاً.

مشيت، محاولاً أن أجد طريقي. عدت إلى علي.

«في أي غرفة؟»

«هناك»، قال، مشيراً إلى الباب الكبير إلى جانب شجرة ليمون، «هناك، هناك. ادخل».

فُتح الباب على مصراعيه وكان هناك رجل ضخم يرتدي عباءة ثقيلة باهظة الثمن يقف على الدرجات مثل تمثال. كنت قد رأيته مرتين قبل الآن عندما كنت صغيراً، أما في هذا الصباح، فهي المرة الأولى التي أذهب فيها وحدي إلى بيته. رمقني بحدة.

«أهلا وسهلاً بك يا ناصر»، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

«شكراً»، قلت له وأحنيت رأسي لأقبّل يده.

عندما دخلت «المجلس» شممت رائحة البخور العربي. كانت فرش سميكة تمتد على طول الحائط، وقد تكدس عدد كبير من الوسائد الضخمة فوق البسط الملوّنة التي فرشت على الأرض.

انتظرت حتى جلس.

قال: «اجلس»

جلس فوق الفراش وأعاد ترتيب الوسائد وراءه ليجلس بارتياح أكثر، وأضاف، «هل أحضرت الأوراق؟»

فأجبته، «نعم»، وقدمت له الاستمارات وعليها صورنا الرسمية، وجلست.

تصفّح أوراق الإقامة. رفعت عيني لأرى صورته معلقة على الجدار خلفه. كان ينظر إلينا إلى الأسفل، مرتدياً عباءة ذات حواف مذهبة فوق ثوبه المتألق. بدا وجهه هادئاً ورائقاً.

كيف يمكنه أن يحافظ على هذين الخدين الناعمين مثل خدود الأطفال وقد بلغ هذه السن، كنت أتساءل عندما سألني: «والنقود؟»

«أيّ نقود؟»

«نعم. لقد ارتفع السعر، كما تعرف. أصبح الآن ثلاثة آلاف ريال»، قال بصوت منخفض.

«ظننت أنك قلت لخالي إنك لن تأخذ منه نقوداً هذه المرة».

«انظر يا بني. لقد قلت ذلك لخالك لأنني أشفق عليه. إنه يرعاك ويرعى أخيك مع أنكما لستما من أبنائه. فقط فكّر بالنقود التي أنفقها ليجلبكما إلى هذا البلد، والنقود التي ينفقها لشراء ثيابكما وطعامكما. إنه يدفع كلّ ذلك من وظيفة لا يكسب منها إلا ثمانمئة ريال في الشهر. والله إنه رجل طيب ولطيف».

الضوء المتسرب من الباحة جعل خديه يتوهّجان. قلت: «لم أفهم».

«دعني صريحاً معك يا ناصر. أظن أنك يجب أن تسدد تكاليف بطاقات الإقامة هذه المرة. لقد بلغت الخامسة عشرة من عمرك الآن. يجب أن تساعد خالك وتساهم معه، إن لم يكن دائماً، فعلى الأقل هذه المرة».

«لكن كيف؟»

«فكّر في الموضوع. ألا تريد أن تساعد خالك؟»

«طبعاً أريد. لكنني أخبرته بأنني سأسدد له كل هذه المبالغ عندما أنهي دراستي. قلت له عندما أعمل، فلن أدعه يعمل ثانية».

توقّفت. لماذا أخبره بهذه الأمور؟ إن هذا الأمر يخصني ويخص خالي. توقّفت عن الكلام ونظرت إليه، وأنا أدعو الله بأن يكون رؤوفاً بي وأن يستجيب لدعائي، مع أنني لم أكن مسلماً مخلصاً.

أمعن النظر في وجهي ثم سعل. فرك جسر أنفه بإبهامه وسبّابته، وقال: «ناصر؟ فكّر في الأمر، وحسب ما أعرف، فقد عهدت بك أمّك أن تعتني بإبراهيم. هل نسيت ذلك؟»

لم أعرف كيف أرد عليه.

«ناصر؟»

قلت هامساً، «نعم، لكنني سأعوض خالي عندما أجد عملاً بعد أن أكمل دراستي».

«إني أتحدث عن الحاضر يا ناصر».

«نعم، لكنني لا أملك نقوداً».

«لديك ما منحك إياه الله».

أغمضت عيني.

تخيّلت أمّي تجري نحوي، وكانت تقع بعد كلّ خطوة، لكنها كانت تنهض ثانية لتتابع جريها، لتتعثّر مرة أخرى.

«ناصر»، قال الكفيل. كان قد اقترب مني الآن، وراح يمرر يده ببطء على كتفي. «ناصر؟»

اعتراني شعور غريب. رفعت عيني ونظرت إليه.

«لنقل إنه يوجد لديك ما يمكن أن يساوي الثلاثة آلاف ريال».

أغمضت عيني ثانية، ودعوت أن تأتي أمّي وتأخذني معها. لكنها لم تستطع أن تنهض هذه المرة. سمعتها تقول شيئاً وغمغمت قائلاً: «حسناً يا أمّي. إني أسامحك»

«ناصر؟»

قاربت العاشرة من تلك الليلة، ولم يغمض لي جفن، وكنت لا أزال أرتعش. في تلك اللحظة، لم أعد أذكر كم مرة تحممت.

حاولت أن أجلس في الحمّام، لكنني في كلّ مرّة أحاول الجلوس، كنت أثب واقفاً كما لو كنت أجلس على جمر. توجهت إلى سريري وتمدّدت على بطني، لكن الألم كان شديداً.

التفت نحو سرير أخي. زحفت على الأرض نحوه. جثوت على يديَّ وركبتيَّ بجانبه. كان نائماً. داعبت شعره. كان يستدير نحو الجدار ولم يستيقظ. بكيت وقلت له: «أحبّك يا إبراهيم».

«إني نائم يا ناصر. دعني وشأني»، همهم أخي.

«إبراهيم؟ «لكزته، «إنني أتألم، أرجوك ساعدني». استوى جالساً ونادى خالي بصوت عال.

«لا تصرخ، سأدعك وشأنك. أنا آسف»، همهمت، وعدت إلى سريري.

تمدّدت على بطني ورحت أعض الوسادة، ممسكاً بأطراف السرير بأصابعي. لم يغمض لي جفن. رحت أفكّر بأمّي وأردت أن أكون قريباً

منها. نهضت وارتديت ثيابي، وزحفت مجتازاً غرفة نوم خالي، وغادرت الشقّة. توجهت إلى الكورنيش، إلى المكان السري الذي لم يكن يعرفه حتى أصدقائي. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وكان لا يزال لدي وقت لكي أستقل آخر حافلة.

دفعت أجرة ركوب الحافلة وتوجهت إلى المقعد الخلفي في قسم الرجال، واضعاً يدي تحت فخذي لأسند ثقلي.

استندت إلى المقعد وأخذت نفساً عميقاً. وعلى الرغم من الألم، فقد أحببت أن أجلس هناك، لأنه كان أقرب المقاعد إلى قسم النساء. ومع أنه كان يفصلنا لوح طويل، كانت رائحة النساء تهبّ إلى قسم الرجال عبر النافذة الصغيرة فوق رأسي.

خلال الشهور الأولى تلك في جدة، عندما كنت أحنّ إلى أمّي وصديقاتها كثيراً، كنت أركب الحافلات لمسافة طويلة لكي أكون قريباً من النساء ومن عالمهن. وفي تلك اللحظات فقط، كنت أشعر بأن الحياة في جدة يمكن أن تبقى جميلة، وأنه يمكن احتمال أشياء كثيرة. كنت أحبّ ساعات الازدحام بشكل خاص، لأنهن كن يُحشرن في قسمهن الصغير، ويفوح من عباءاتهن مزيج من روائح زيت شعرهن المعطّر، وروائح البخور اللاذعة، وروائح اللحم والأعشاب الطازجة المنبعثة من سلالهن، عبر النافذة.

وفي أحد الأيام، ضربني رجل على رأسي عندما رآني ألصق وجهي باللوح الذي يفصل بين القسمين، وأنظر من خلال النافذة إلى النساء في عباءاتهن السود، تلتصق إحداهن بالأخرى. وصاح الرجل إلى سائق الحافلة وطلب منه أن يتوقّف، ثم ألقوا بي خارج الحافلة. في ذلك اليوم، نزلت منها وأنا أشعر بالخفة.

يُزعم أن نافورة جدة تطلق الماء إلى أعلى ارتفاع في العالم، وهي تقع بالقرب من أحد قصور الملك فهد بن عبد العزيز على شاطئ البحر الأحمر. لم يكن مكاني السري بعيداً من هناك.

كانت الساحة المحيطة بالنافورة عريضة ومليئة بالمطاعم والمقاهي. كنت أتمشّى عادة على امتداد الكورنيش، مستمتعاً برؤية العائلات وهي تتنزه على الشاطئ، فتذكّرني بأنه كان لديّ أنا أيضاً، شخص يحبني ويرعاني.

لكن في تلك الليلة، كنت منغلقاً على العالم. أسرعت مجتازاً صفوف السيارات المركونة متجاهلاً نداءات الباعة المتجولين الأفارقة، الذين جاؤوا مثلي من الطرف الآخر من البحر الأحمر.

في أسفل الشارع، في المكان الذي أهبط فيه إلى الشاطئ، رأيت المغني يجلس على مقعده ويعزف على عوده كالمعتاد. مشيت خلفه بهدوء، وهبطت الدرجات الشديدة الانحدار.

عندما كنت أمشي على امتداد الشاطئ بالقرب من الماء، كنت أخطو فوق القناني البلاستيكية الفارغة والأصداف الميتة التي دفعتها الأمواج. وعندما كنت أقف فوق صخرتي، كنت أتخيّل أنني أقف مع أمّي.

كانت صخرة كبيرة، واحدة من الصخور الكثيرة هناك. وكانت تنحني عليها صخرة أخرى ناتئة من الأعلى بحدة، جاعلة منها ملاذاً. عندما جلست تحت الصخرة، رحت أنصت إلى أغنية عازف العود الجالس فوقي.

عندما رأيته للمرة الأولى، ظننت أنه رجل مشرّد مع أنه كان يرتدي

زياً سعودياً نظيفاً للغاية، لأنني كنت أجده جالساً في مكانه كلما أتيت إلى الكورنيش، في النهار أو في الليل. لكنني سرعان ما أدركت أنه عاشق وجد ملاذه بين ذراعي البحر. وفي أغانيه، كان يصف فتاة مصرية وهبته أسعد أيام حياته في أحد مقاهي القاهرة المطلة على النيل. لكنه عندما قال لأبيه إنه يريد أن يتزوجها، مزّق جواز سفره إلى قطع صغيرة لكي لا يتمكن من السفر. وكان يغنّي عن كيف كان يخطّط للذهاب لرؤيتها، مستخدماً عوده الخشبي كقارب: وكانت نبضات قلبه هي المحرّك ويداه هما المجدافان.

لم أتوقف عن محاولة أن أمحو من ذاكرتي ما فعله بي الكفيل، لكن الألم داخل بطني وجسمي لم ينقشع. طلع الفجر وأنا لا أزال جالساً على الصخرة، أحدّق إلى البحر، نحو إريتريا. كانت الأمواج تتكسر برقة تحت الشمس المشرقة. وبين الفينة والأخرى، كانت تظهر في السماء غيوم، مترددة كأنها ضلت السبيل، قبل أن تستأنف رحلتها إلى جدة. ثمّ هدأت الأمواج، وعكس البحر لون السماء ـ أحسست كأنني أمتلك قوى خارقة مثل النبي موسى بعصاه الخارقة. أغمضت عيني نصف إغماضة لأجعل البحر الواسع جدولاً صغيراً فأتمكن من عبوره بسهولة، وأعود سيراً إلى إريتريا، إلى صدر أمّي الحنون.

كانت تجلس في مقعدها المعتاد في المجمّع قبالة الشارع، كما كانت تفعل دائماً بعد الظهر.

رحت أراقبها بصمت من داخل كوخنا. جلست تلفّ ساقاً على ساق، قدمها اليمنى تتأرجح في الهواء، وحذاؤها الأحمر يطفو فوق حبات الرمل الصفراء. كانت تنحني أمام الهواء العليل. وكان وجهها

الطويل النحيل أسود وكأنه غُطس في مسحوق من الكحل المتلألئ، وكانت عظام خدّها تشبه تلالاً صغيرة تكسوها بشرة ناعمة. وعندما بدأت تحدّق في الفراغ أمامها، بدت عيناها أشد سواداً من بشرتها، وعندما كانت تحرّك رموشها السميكة والطويلة، كانت تنتشر برفق مثل ريش طاووس.

كنت في السابعة من عمري. كنت أرتدي قميصي القطني الأبيض وبنطالي الأصفر ذا الخطوط السوداء. وكان شعري المجعّد طويلاً بطول إبهامي. نظرت إلى طرف الكوخ ورأيت دجاجة تحاول أن تحدث فتحات في كيس الحبوب بمنقارها. كانت أمّي قد اشترت الكيس من السوق البارحة، فأسرعت وأبعدت الدجاجة، وحملت الكيس إلى الكوخ ووضعته وراء الباب.

خرجت إلى ساحة المجمّع لأشرب ماء من الحوض الخارجي. فتحت ذراعي واسعاً لأعانق الريح، وأتنشق رائحة اللحم المفعم بالتوابل. تلفّت إلى كلا الجانبين لأعرف من هم الجيران الذين يطهون الطعام.

كانت هناك امرأتان أخريان تعيشان بجانبنا: لومليم وكاملا. فقد كانت كلّ أسرة تمتلك المساحة التي أقيم عليها كوخها، أما ما تبقّى من الأرض، فكنا نتقاسمه جميعنا: الحظيرة، البراميل الكبيرة الثلاثة المخصصة للماء، الحبل لتجفيف ملابسنا التي علّقناها بين ثلاث عصي خشبية طويلة.

لم يكن ثمة شيء أخضر في المجّمع الذي نعيش فيه سوى الشجرة الضخمة التي تنتصب بجانب كوخنا القريب من كوخ لومليم. وفي

بعض الأحيان، كنا نتجمّع تحتها للاستماع إلى قصصها والإنصات إلى الموسيقى من المذياع القديم الذي تملكه والذي كانت تعلّقه على أحد الأغصان.

اتجهت إلى حوض الماء القائم تحت ظلّ صغير كنا قد أقمناه ليظل الحوض الطيني بارداً. رفعت الكوب، ورفعت الغطاء الحديدي. وفجأة هبت ريح جعلت ثيابنا الرطبة المعلقة على الحبل تتطاير، مصدرة صوت «كرار» الأرتيري. التفت لأرى شعر أمّي الطويل السميك يتطاير في الهواء مثل جناحي بجعة سوداء تتهيأ للطيران.

عدت إلى شقّتي الصغيرة، وإلى المواد الكيميائية التي يحتوي عليها العطر والتي تجعل عينيّ تدمعان، أغلقت مفكرتي. نظرت إلى ساعتي - كانت الساعة التاسعة وخمساً وعشرين دقيقة. كان من المزمع أن ألتقي بيحيى عند الساعة العاشرة. أعدت المفكرة إلى الدرج لكنني لم أكن مستعداً للمغادرة بعد. تناولت القطرات الأخيرة من العطر، وسحبت ركبتي إلى صدري، ولففت ذراعي حولهما. ظللت هكذا إلى ما بدا لي انه وقت طويل.

قبل الموعد بخمس دقائق، اجتزت الشارع وهرعت إلى شجرتي المفضّلة التي تنتصب أمام بيت خالي القديم، حيث كنت سألتقي يحيى. إنها الشجرة التي كبرت معي في السعودية. فبعد وصولي إلى جدة بحوالي سنة، بدأت البلدية تغرس أشجار النخيل في شارعنا، وقد غرسوا شجرة أمام بيت خالي. أقسمت أن أرعاها لتكبر بسرعة ولأتمكن من الاختباء تحتها لأتقي الحرارة القائظة التي تشبه الجحيم. وكنت أسقي الشجرة بعد عودتي من المدرسة بالقناني التي كنت أملؤها من

حنفية بيتنا. كنت أراقب أغصانها الصغيرة وهي تكبر، حتى بدت مثل إمبراطور ذي تاج ضخم.

وبعد سنوات أصبح عدد أغصانها يزيد على الأوراق التي تقيني قيظ الشمس. لقد أصبحت رفيقتي. كانت الأغصان تحرسني عندما أجلس تحتها وأتساءل هل كانت فتاة أحلامي واحدة من النساء اللاتي يمررن أمامي، وحتى عندما بدا الحلم مجرد خيال مستحيل، ظللت أجلس تحت الشجرة، لأنه كان مكاناً جيداً لمشاهدة الفيلم بالأبيض والأسود الذي لا نهاية له من العباءات والأثواب التي يرتديها المارة. ومع أنه فيلم متكرر، كان الفيلم الوحيد في جدة الذي يمكنني من تخيّل ذلك الشيء القابع وراء الثياب السود، فمن الممكن أن تدخل إحدى الممثلات لوناً مختلفاً في حياتي.

مع أن الساعة قد أصبحت العاشرة والربع، لم يصل يحيى.

بدا لي أن ثمة شيئاً يحدث في ناحية اليسار، قرب حاوية القمامة الطافحة بالزبالة. رأيت هلال يشير إلى عامل النظافة الآسيوي. وكان هلال، الذي عثر على عمل في مغسلة للسيارات، صديقاً سودانياً يعيش على العمولات التي يحصل عليها من إيجاد وظائف بأجور منخفضة للعمال الأجانب. كان سمساراً غير رسمي للعمال.

أشحت بوجهي، فلم يكن من الممكن أن أدخل مع هلال في أي مناقشة لأنها ستستغرق وقتاً طويلاً.

نظرت إلى ساعتي وتساءلت عن سبب غياب يحيى. عندما رفعت رأسي، رأيت امرأتين تسيران معاً. كانت كل منهما بطول الأخرى وكانت عباءتاهما متشابهتين إلى حد جعلتهما تبدوان كأن الواحدة منهما

ظلّ للأخرى، توأمان ليليان. التفتتا نحوي. تباطأت خطواتهما. هل كانتا تنظران إليّ أم إلى شيء آخر على الجدار خلفي؟

كان أبو مهدي، الرجل العجوز الذي يقيم في البناية ذات الطوابق التسعة، يسير في الشارع، وكانت تسير وراءه امرأة ترتدي حجاباً كاملاً. لا بد أنها زوجته، لأنه لا يوجد لديه سوى أبناء، وكانوا قد تزوجوا جميعهم ويعيشون في مناطق أخرى من جدة. إني أراه في الشارع طوال السنوات العشر الماضية، وقد ملأت التجاعيد وجهه الآن فغدا مثل شبكة عنكبوت. تساءلت هل شاخت زوجته أيضاً.

سمعت صوت سيارة قادمة. خيّل إليّ أنه يحيى، لكن سرعان ما تبين لي أنها سيارة الكاديلاك البيضاء التي يملكها أبو فيصل تسير باتجاه شارع مكة المكرمة. عندما مرت سيارة السيّاف، أغمضت عيني حتى غاب عني. لم أكن أريد أن أراه ثانية.

كانت أول مرة أراه في عمله منذ ست سنوات، بعد عيد الفطر بأسبوعين في عام ١٩٨٣. كنت متجهاً إلى مركز التسوّق لشراء قميص جديد بالريالات الخمسين التي أعطاني إياها أحد أصدقاء خالي عيدية.

استقللت الحافلة إلى منطقة البلد في الحي القديم في جدة، ومن هناك رحت أمشي في الأزقة الضيّقة المبلطة بأحجار كبيرة متصدّعة. ويعود عمر معظم المباني القديمة في هذه المنطقة إلى قرون، وقد بنيت من الطين والحجارة المنحوتة، وبدت الشرفات الخشبية الملوّنة مهلهلة، لكنها لم يكن يبدو أنها ستسقط أبد الدهر، وكأنها تقوم فوق أكتاف أشباح.

فاحت رائحة التوابل المستوردة من الدكاكين الصغيرة المصطفة أمام محلات أكبر تشتهر بصناعة المجوهرات البدوية الفضّية.

عندما خلّفت منطقة البلد ورائي واقتربت من مركز التسوق الحديث، ازدادت الجلبة في الشوارع. كانت قد مضت حوالي ساعة على انتهاء صلاة الجمعة، لذلك كانت الشوارع تعج برجال يرتدون أثواباً نظيفة، وكان الهواء الساكن مشبعاً برائحة العطر والمسك.

ووراء مدخل مركز التسوّق، رأيت حشداً كبيراً في الساحة، يشكل نصف دائرة كبيرة.

كان عليّ أن أشقّ طريقي لأصل إلى المحلات. وبينما حاولت أن أشقّ طريقي مجتازاً بطون الرجال الكبيرة، بذلت جهداً كبيراً لكي لا يغمى عليّ في هذه الحرارة الخانقة. تدافع الحشد إلى الأمام وكدت أُرفع عن الأرض. وجدت نفسي في المقدمة، محاطاً بحشد من الرجال فقط. سمعت نداء من مكبّرات الصوت. سيقطع رأس رجل هندي بتهمة تهريب المخدّرات.

دخل أبو فيصل وسط الدائرة. لبثت ساكناً في مكاني. لم يسبق لي أن رأيته وهو يقوم بعمله قط. كان الرجال من حولي يصيحون: «الله أكبر».

كان أبو فيصل يرتدي معطفاً أسود فوق ثوبه الأبيض، وكان عقاله يربض مثل تاج أسود فوق غترته الحمراء. كان أطول رجل أراه في حياتي، وكنّا نقول في المدرسة، لقد خلقه الله طويلاً ليمنحه القوّة عندما يقطع رأساً أو يداً.

وكان يقف وراءه رجل قصير بدين يحمل سيفاً طويلاً يلمع تحت أشعة الشمس. اقتيد الرجل الهندي المعصوب العينين إلى الساحة، وطُلب منه أن يركع على ركبتيه، وأحاط به ثلاثة رجال. جلس أحد

الرجال وسأله أن يتلو الشهادة، ثم أسرع مبتعداً عنه وتقدم الرجل الذي يحمل السيف نحو أبو فيصل، الذي كان يذرع المكان جيئة وذهاباً، مطرق الرأس. وعندما رأى أبو فيصل الرجل الذي يحمل السيف يقترب منه، وقف في مكانه، واعتدل في وقفته، ومدّ ذراعه الطويلة.

وبعد أن أصبح السيف في قبضته القوية، لوّح به في الهواء لتحمية ذراعه، وراح يتطلع حوله إلى الحشد. ووقعت عيناه على عينيّ، وعندها تذكرت عندما انهار ابنه فيصل أمامي لأنه قال لي إن أباه يشيع بأن ابنه ولد ليكون سيّافاً، وهو ما لم يكن يريد أن يكونه.

تلاشت همهمات الحشد. وأصبح الآن سيف أبي فيصل على بعد سنتمترات قليلة من الرجل الهندي الجاثي. وعندما رفع أبو فيصل سيفه فوق رأسه، أدرت وجهي ورحت أشقّ طريقي عبر الحشد.

حلّ سكون مطبق على الحشد.

كنت لا أزال أشقّ طريقي عبر الحشد عندما سمعت صوت صرخة تشق عنان السماء، تلتها جوقة تصيح «الله أكبر».

هرعت إلى مركز التسوّق، وجلست بالقرب من نافورة المياه قبالة مخزن الإلكترونيات. وضعت يديّ بين ساقي، راجياً أن تتوقف ذراعاي عن الارتعاش إذا ما ضغطتهما معاً، ذراعايّ اللتان كانتا تجعلان صدري يرتعش أيضاً.

اخترق هتاف الحشد في الخارج جدران مركز التسوّق. كانت عيناي مغمضتين، وسددت أذني بأصابعي، آملاً في أن أتمكن من الخروج من مركز التسوّق. ثم تلاشى الهتاف وعرفت أن قطع الرأس قد انتهى، وجاء بعض من كان في الساحة إلى المركز، جالبين معهم همهماتهم وصيحاتهم الخفيفة «الله أكبر».

عندها فقط عرفت أنني أستطيع أن أذهب إلى البيت، ولم تعد لي رغبة في شراء قميص جديد.

وصل يحيى متأخراً ساعة تقريباً. ركن سيارته على مسافة أمتار عديدة من الشجرة وترّجل منها. استويت واقفاً واتجهت إليه. كان يرتدي قميصه القطني المفضل المرسوم عليه شعار نادي الأهلي لكرة القدم، ويحمل علبة بيبسي.

كان يحيى يعيش على الثروة التي ورثها عن أبيه، الذي كان قبل أن يتوفى واحداً من أغنى الأجانب في حي النزلة. وكان يحيى معروفاً بأنه يجوب الحيّ بدرّاجته العادية. وكان يتفاخر بأن جميع الفتيان يحبونه، وأنهم يختارونه بسبب عضلاته. فقد كان الوحيد الذي يمارس رياضة رفع الأثقال في حيّنا، وكان يجد سعادة عندما يواجه حركة مرور مكتظة جداً، وكان يمضي ساعة كلّ يوم وهو يقود سيارته للذهاب إلى النادي الوحيد في جدة المجهّز بمعدات لرياضة رفع الأثقال.

قال بصوته المبحوح: «آسف لقد تأخرت. كنت منهمكاً بحزم أمتعتي».

«حسناً»، أجبت، واختطفت علبة البيبسي من يده، «وهل أصبحت مستعداً للسفر؟»

فأجاب، «نعم. يمضي هاني وأسرته العطلة في أبها أيضاً هذه السنة، لذلك سأراه، لكنني سأواصل عملي، كما تعرف».

كان هاني صديقاً سعودياً، ومثل يحيى لم يذهب إلى المدرسة. وكان يعمل في شركة أبيه بالاستيراد والتصدير. وكان يحيى قد توقّف عن الدراسة عندما وصل إلى الصف الثامن، لأنه كما قال لا يرى

جدوى من متابعة الدراسة لأنه أجنبي، ولن يسمح له بدخول الجامعة. سألته: «ومتى ستعود أنت وهاني؟»

فأجاب، «في حوالي منتصف أيلول (سبتمبر)».

في تلك اللحظة، فُتح باب الفيللا المقابلة وخرج منها محمد الحيراني الذي كان يرتدي ثوباً قصيراً وطاقية، وكانت غترته تتدلى من ذراعه. وقف وأخذ يراقبنا بعينين ثاقبتين، ثم نشر غترته فوق رأسه، وبدأ يتلو آيات قرآنية بصوت مرتفع. كان رأسه يهتز إلى الأمام وإلى الوراء، وعيناه تحدّقان بنا.

«إننا لسنا مكة المكرمة، لماذا لا تنظر إلى المكان الصحيح؟» صاح به يحيى.

وظل ذلك الأحمق يردد دعوات، وعيناه لا تزالان مثبتتين علينا. وعندما انتهى من تلاوتها، أغلق الباب وراءه وسار في طريقه، يداه معقودتان وراء ظهره، وكان يتلفت بين الحين والآخر وينظر إلينا.

كان قصر السرور قصراً مهجوراً وكان يعيش فيه ذات يوم الملك سعود بن عبد العزيز، الذي أقصي عن الحكم منذ قرابة خمس وعشرين سنة بتوجيه من أسرته وبتأييد من علماء الدين.

ولم يكن القصر يبعد سوى بضع دقائق عن الشارع الذي نقيم فيه. كان قصراً ضخماً، يتداعى تحت وطأة وحدته. غادرنا أنا ويحيى حي النزلة وسلكنا الطرق المختصرة المعروفة إلى الجادة غير المطروقة كثيراً، المفضية إلى قصر الملك. كنت جالساً في المقعد الأمامي أنظر إلى الأبراج العالية التي يعادل ارتفاعها ارتفاع أعمدة المساجد المحيطة. لكن تلك الأبهة كانت مجرد وهم. ففي ضوء النهار، كنت ترى الطلاء الذهبي يتقشر.

ومع أننا كنا نعرف أن الحكومة أو الشرطة الدينية لا تريد أن يقترب أحد من القصر بسبب تاريخ ذلك الملك الحافل بالكحول والنساء، وكان يُعتبر مكاناً شريراً، نستطيع أن نتجوّل في أرجائه، ونحتسي عطرنا، ونشمّ الغراء، كنا واثقين من أن الشرطة لن تطاردنا هناك. وعندما وصلنا إلى الشارع الخلفي وراء القصر، كان اليماني، وهو صديق سعودي لنا يقيم في شارع مكة المكرمة، ينتظرنا بسيارته.

حيّا أحدنا الآخر، ثمّ قال يحيى: «لن تصدقا ما رأيته صباح هذا اليوم. لقد رأيت زب الأرض خارج المسجد مع المطوّعين، وكان يرتدي ثياباً مثلهم تماماً. يا إلهي، حتى إنه أرخى لحيته. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ هذا هو صديقنا الذي نتحدّث عنه، سأقتل من سببّ ذلك».

سرت إلى ذلك الجزء من حائط القصر الذي تهاوى واستبدل بصفيحة من الزنك. كان بولي يصدر رنيناً على صفيحة الزنك ويطرطش أمام قدمي.

في طريق عودتي، شعرت بغتة بثقل شديد في قلبي. تهاويت وسقطت على ركبتي. تقيّأت، لكن بما أنني لم أكن قد تناولت شيئاً طوال اليوم، لم يكن القيء يحتوي إلا على سائل معطّر. كانت أحشائي تهدر. أخذت شهيقاً وزفيراً ببطء. لم أكن أريد أن أمرض. كنت أريد أن أمضي قليلاً من الوقت مع صديقيّ قبل أن يغادرا، لأنني سأصبح وحيداً خلال فترة الصيف كلها.

«هل أنت على ما يرام؟» سأل يحيى، محدّقاً بي، ثم قال: «يجب أن تتوقّف عن شرب ذلك العطر».

فأجبت، «لكل منا عاداته، أليس كذلك؟» ونظرت في عينيه مباشرة.

فرك يديه، وكأنه تذكر شيئاً فجأة. أدار ظهره إلى اليماني، وأخرج محفظته، وسحب منها صورة صغيرة. كانت صورة صبي فاتح البشرة ذي وجه ناعم وابتسامة رقيقة.

«من أين هو؟» سألته.

«لا أعرف»، أجاب دون اكتراث.

«ماذا تعني أنك لا تعرف؟»

«لقد انتقل مع أسرته مؤخراً إلى شارعنا ولا يستطيع أن يتكلم العربية».

«إذن كيف تتواصل معه؟»

«إن العربية هي لغة الإسلام، آه؟ من قال إنها لغة الحبّ؟»، قال ضاحكاً.

والتفت يحيى إلى اليماني وقال: «هيا قل لي ما الذي جعل زب الأرض يتغيّر. إنك تعرفه جيداً».

بدأ اليماني يوضح من وراء دخان سيجارته. «لقد غيّر رأيه الإمام الضرير وباسل».

«أعرف الإمام الضرير، لكن من هو باسل؟»

«إنه الذي يقود الإمام الضرير».

قاطعته قائلاً: «لقد رأيته مرات عديدة بصحبة الإمام في الشارع. لكنه ليس من الحيّ، أليس كذلك؟»

«لا، إن باسل من الكرنتينا. كان فتى سيئاً، وكان يتعاطى المخدّرات، وعنده أسطول من الدراجات النارية. لكن الجميع كانوا يعرفون أن نقطة ضعفه الرئيسية تكمن في الغلمان الجميلين، ولديه نصيب جيد منهم. لكنه تعرّض ذات يوم لحادث خطير بدرّاجته وكاد الغلام الجالس في المقعد الخلفي من دراجته يموت».

«أيّ فتى؟» سأل يحيى، الذي مدّ ذراعه واستند إلى كتفي. لم يعجبني ذلك.

«لا تقلق»، قال اليماني، «لا يزال هناك بعض الغلمان الذين لم تتمكن من النوم معهم».

نظر يحيى إليّ وقال بابتسامة: «ربما القليل منهم. لكنها مسألة وقت فقط».

وتابع اليماني كلامه، «لذلك عندما عاد باسل إلى بيته من المستشفى، قرّر أن يذهب إلى المسجد في منطقته ليؤدي صلاة الحمد لله. وفي ذلك اليوم، كان الإمام الضرير هو الضيف المدعو. وتغيّر كلّ شيء بعد خطبة ألقاها الإمام وصف فيها جهنم بشكل مفصّل وحيوي وكأنه رأى نفسه فيها. وتأثر باسل كثيراً فألقى بماضيه وراءه، حتى إنه ألقى بجميع أصدقائه وأحبائه وأفراد عائلته، وكرّس حياته كلها للإمام ولله. إنه يحاول أن يكفّر عن ذنوبه بأي طريقة وبأسرع ما يمكنه».

توقّف اليماني ليأخذ نفساً آخر.

«لذلك، إن كلّ ما يفكّر به باسل هو أن يجمع أكبر عدد من الحسنات، وقد عزم على بناء جبال وعرة جداً من الأعمال الطيبة. أشياء مثل تحويل ولد شرير إلى مطوّع، أو إرسال رجل إلى أفغانستان».

سأل يحيى، «إذن كيف تغيّر زب الأرض؟»

«حسناً، لا أعرف تماماً»، أجاب اليماني، «لكن لا بدّ أن ذلك حدث أثناء الصلاة على أخيه الشهيد».

«هل توفي خالد؟» سألناه أنا ويحيى بصوت واحد.

فقال اليماني: «نعم. لقد استشهد في أفغانستان قبل بضعة شهور خلال معركة ضارية بين الشيوعيين والمجاهدين، وقد وصل خبر وفاته مؤخراً. كنت ستبكي لو سمعت الكلمة التي ألقاها باسل في الجنازة. لقد بكى جميع الرجال. فقد امتدح باسل الشهيد خالد بقصائد جميلة»، وأضاف، «وبينما كان باسل يصف ما ينتظر الشهداء في الجنة، كان يحدّق في وجه زب الأرض وكأنه يريد أن يقول له إنّه يجب أن يغار من استشهاد أخيه، وأظن أنه أحسّ بالغيرة. وبعد أيام قليلة، بدأ زب الأرض يلبس ثياباً تشبه الثياب التي يرتديها المطوّعون المتشددون، وبدأ يتصرّف مثلهم. ولم يعد يضع العقال على غترته وقصّر ثوبه حتى يظهر كاحلاه. ورمى جميع أشرطة الموسيقى والمجلات الإباحية والأفلام التي كانت لديه. بل حطم كذلك جهاز التلفزيون، وأتلف جميع ألبومات الصور التي يمتلكها، وبدأ يقول إن الصور محرمة، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صور، وإن الله سيعاقب يوم القيامة كل من يلتقط صوراً، وسيتحدّاهم بأن يمنحوا خلقه الحياة. فالله وحده هو الخالق، على حد قول زب الأرض».

«إذن لماذا سيذهب زب الأرض إلى أفغانستان؟ ظننت أن الحرب قد انتهت»، قال يحيى.

فأجاب اليماني، «نعم، لكن حسب ما قاله لباسل، فإن المجاهدين

يشاركون في جهاد آخر هام أيضاً ضد نظام نجيب الله الموالي لموسكو. ولهذا السبب، قال باسل، إن الأفغان العرب يحتاجون إلى عدد أكبر من المتطوعين ليتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالخونة والمرتدين. وقد لبى زب الأرض الدعوة».

توقّف اليماني. غمغم قائلاً: «أستغفر الله، أستغفر الله».

فسأله يحيى غاضباً، «لماذا تستغفر الله؟»

«لقد أدركت الآن أنه أصبح مطوّعاً، حرام أن نطلق عليه اسم زب الأرض. يجب أن ندعوه باسمه الحقيقي: مراد».

«هيا!»، صاح في اليماني، «إنه لا يزال قزماً، وعلى حد علمي فإن قضيبه الطويل لا يزال يلمس الأرض عندما يمشي. سيظل زب الأرض على الدوام».

هزّ اليماني رأسه وابتعد، وهو لا يزال يدمدم «أستغفر الله، أستغفر الله».

كان هناك جزء منّي يقول إن زب الأرض اسم يليق به وكنت أريد أن أصرخ به في جميع أركان المدينة لأنه يتبع الإمام الضرير ويصبح مراد، لكن كان هناك جزء آخر منّي لا يزال يحبه، ولا يمكنني أن أنسى أننا كنا صديقين جيدين منذ زمن بعيد.

من هو الشخص التالي الذي سيقع بيد الشيخ الضرير وتابعه باسل؟ ليس أنا ـ أو على الأقل هذا ما فكّرت به في تلك الليلة وأنا أراقب اليماني يغادر قصر السرور.

ذهبنا أنا ويحيى وجلسنا على الرصيف خارج القصر. أعطاني علبة البيبسي. وضعت أصابعي حول العلبة، وأغلقت فتحة أنفي بإصبعي،

وأملت رأسي إلى الأمام، وألصقت علبة البيبسي بفتحة أنفي. أغمضت عيني وتنشقت الغراء بعمق. حبست أنفاسي قليلاً، وعندما أطلقتها، أملت رأسي ببطء إلى الوراء. ظللت هكذا لبرهة من الوقت.

وضعت العلبة بيننا. داعب النسيم المسائي ساقي. رفعت بصري ونظرت إلى برج القصر، والجدران المتداعية، وشجرة النخيل الوحيدة التي لا تزال منتصبة في وسط الأعشاب الجافة.

ألمّ بي شعور بالدوّار ثانية. التفت إلى يحيى: كان يتنفّس بالقرب من رقبتي، كانت عيناه تلمعان. ابتعدت عن أنفاسه الحارة.

تمدد يحيى على الرصيف، واستلقى على جانبه، وساقاه باتجاه العشب. وضع يده على فخذي.

أبعدتها عني. ضحك.

أردت أن ألكمه، لكنني كنت أعرف أنه أقوى مني. لذلك أشحت بنظري، واستقرت عيناي على النخلة ثانية.

أحسست بيد يحيى على صدري. أمسكت علبة البيبسي وضربته بها على ذراعه. اتسعت عيناه. أغمضت عيني، منتظراً انتقامه. نهض وأمسكني من كتفيَّ ورفعني ثم ألقى بي على الرصيف. مكثت ساكناً كما النخلة.

نظر يحيى إليّ وصرخ، «لا يستطيع أحد أن يضربني، أتفهم؟»

قلت بهدوء: «لقد قلت لك مليون مرة ألا تلمسني».

«لماذا؟ «سأل، ملتفتاً إليّ.

نهضت، ونظر أحدنا إلى الآخر. رحت أنفض التراب عن ذراعي وساقي.

«يحيى، من المفترض أننا صديقان».

قال: «أعرف أنك تلعب».

أملت رأسي إلى الوراء، وأغمضت عيني. كان فكّي منقبضاً.

سأل: «هل ذلك لأنني لست سعودياً؟»

قلت: «إنني ذاهب. أرجو أن تمضي وقتاً سعيداً في أبها».

عندما مررت بجانبه، أمسكني من ذراعي وشدني إليه. قال: «أجبني، هل هذا لأنني لست سعودياً؟ هل لأنني لا أملك نفوذاً أو سلطة عليك؟»

«لا، يحيى، لا علاقة لذلك بما تقوله».

صرخ، «ماذا إذن؟ هيا قل لي». أفلت ذراعي، وبصق على الرصيف، وشمّر كميّ قميصه القطني، واستعرض عضلاته المنتفخة، وصرخ: «ما رأيك بهذه؟» ثمّ قبّل عضلة ذراعه، وأضاف: «هل لرجالك شيء مثل هذه؟»

«يحيى، إنك لا تسمع»، قلت بإصرار، «إني أنتظر فتاة».

أخذ يضحك مثل ضبع. لم يتوقف عن الضحك. «بدأت تصبح مثل هاني. إنك تعرف أنه يحمل صورة ممثلة مصرية اقتطعها من مجلة، ويتحدث عن مدى غرامه بها. إنه يتحدّث عنها كما لو كانت امرأة حقيقية. يتحدّث كيف أنه سيمضي معها ليال في شقّة تطل على الشاطئ، وكيف أنه سيشتري لها ما تشاء». توقّف وأخرج علبة سجائر، ووضع سيجارة في فمه وأشعلها، ثم قال: «إحذر ولا تفقد صوابك أنت أيضاً».

أخذ نفساً طويلاً، ثم أعطاني سيجارة. «أين تظن أنّك ستلتقي بمثل هذه الفتاة؟ في السينما؟ في المسرح؟ هذا يحدث في أماكن أخرى مثل مصر أو بيروت، لكن ليس هنا في السعودية. انظر، إننا نعيش في عالم منفصل، إلى أن نلتقي عندما نتزوج. وفي هذه الأثناء، أقول لنستمتع بصحبة أحدنا الآخر كما كنت تفعل في مقهى جاسم. هذا هو قدرك الحقيقي، ويجب أن تقبل ذلك».

دفعته جانباً. تركته واقفاً بجانب شجرة النخيل ولم أودّعه، وتوجهت إلى موقف الحافلات لأذهب إلى الكورنيش.

لا بدّ أنني ظللت جالساً على الصخرة بضع ساعات، بصحبة صوت المطرب السعودي الحنون. حسدت دموعه لأنه يحبّ امرأة، لأنه حزين على امرأة يقول إنها كانت حبيبته وأعزّ صديقة له. أردت أن أشاركه في الغناء لأتذوق لوعة قلبه.

لكنني لم أشأ، كالعادة، أن أضايقه. بل رحت أحلم مع أغانيه، وطاف قلبي في مكان ما في المستقبل حيث سيأتي الله بمعجزة لي وتمسك فتاة يدي، وأقول لها كلّ ما يتبادل العاشقان قوله.

في آخر الليل من ذلك اليوم، استحممت وأويت إلى الفراش.

كان جسدي يتوق لملامسة أنثى. أغمضت عيني وتخيّلت عالم الماضي عندما كنت أعيش مع أمّي وصديقاتها. وكنت قد بدأت أزور هذا العالم منذ عدة سنوات لأوقف الألم الذي يكوي معدتي كلما اعتراني خوف بأنني لن أرى أمّي مرة أخرى. لكن عندما هدأ الألم، أصبح المكان الوحيد الذي أستطيع أن ألتقي فيه بنساء. لقد أصبح عالم أمّي ملاذاً لرغباتي المتزايدة.

ولكسب العيش، كانت أمّي تضفر شعر النساء، وترسم أشكالاً مختلفة بالحنّاء على أيديهن وأقدامهن. كانت تعمل في كوخنا، وتجلس على مقعد بجانب سريرها الذي كان قبالة سريري. وكانت زبوناتها، اللاتي كان معظمهن صديقات لها، يأتين إلى كوخنا عندما يشأن. وكانت تنشغل كثيراً قبل الأعراس، وقبل العيد، وعيد الفصح، وعيد الميلاد.

وكنت أنصت إلى ما يقلن وأنا مستلق على سريري، وأستمع إلى قصصهن التي تتحدث عن الحبّ، وعن أزواجهن، وعما يجعلهن سعيدات أو حزينات. وعندما كانت النساء يأتين لقضاء الليلة مع أمّي، كنت أتظاهر بأنني أغطّ في النوم، وكنت أختلس النظر إليهن بحذر. وكانت سميرة، عرابتي، المرأة النصف إريترية والنصف إيطالية، تأتي كثيراً لزيارتنا.

بعيني المغمضتين، أرى سميرة الآن أمامي. ولم أعد أراها كالمرأة التي كنت أعرفها، المرأة التي كانت تمنحني الرعاية والنصائح، بل كانت إلهة الحبّ والرغبة. فقد كانت المرأة الوحيدة التي رأيتها عارية في حياتي كلها، وقد جعلني تذكر انحناءات جسمها أحسّ بأنني لا أزال على قيد الحياة.

وتذكّرت ذلك المساء، عندما كنت في التاسعة من عمري، وأنا أجلس في حضن سميرة. كانت تمضغ علكة في فمها، وكانت تظهر بين شفتيها الحمراوين بين الحين والآخر. كانت ترتدي قميصاً أبيض، ملفوفاً بإحكام حول الجزء العلوي من جسدها، مفتوح الصدر، يكشف عن المكان الذي ينبثق منه ثدياها خارج صدرها. كان القميص المفضّل

لدي. وكنت أراقب حركة يدها كلما مشّطت شعرها. سألتها، «هل يمكنني أن أتناول علكتك؟» أومأت، ودفعت العلكة إلى طرف شفتيها بلسانها. مددت يدي إلى شفتيها المنفرجتين، وتناولت بأصابعي العلكة الدافئة التي كانت تلوكها في فمها. فقدت العلكة حلاوتها، لكنها كانت مليئة بطعم فمها. وعندما بدأت أمضغها ببطء، جالت عيناي فوق عنقها الطويل والقلادة الذهبية التي تكمّل بشرتها السمراء الفاتحة، وكانتا تستقران فوق منحنيات ثدييها، وأنا مبهور. ابتسمت، وأشاحت بعينيها.

في صباح اليوم التالي، استيقظت عند الساعة الخامسة، وتوجهت إلى مغسلة السيارات. كان آخر يوم عمل لي قبل أن أبدأ عطلتي السنوية لمدة أسبوعين.

كانت مغسلة السيارات تقع في شارع صغير بجانب حي النزلة في شارع يقطنه التشاديون، بالقرب من مدرسة مؤقتة يعلّم فيها رجل تشادي اللغتين الفرنسية والإنكليزية.

وكان زبائننا الرئيسيون ينتمون إلى أسر سعودية غنية تقيم في حي النزلة الشرقي الغني. وكان سائقون يحضرون سياراتهم إلى المغسلة.

لكن بما أن معظم تلك العائلات يذهب في رحلات خلال العطلة الصيفية، وخاصة إلى أوروبا، يقل عدد السيارات التي تأتي إلى المغسلة، لذلك منحني رئيس العمل، الرجل التشادي البالغ من العمر خمسين سنة، إجازة. ومنحني إجازة لمدة أسبوعين، كانت تعتبر طويلة بالمقارنة مع الوظائف الأخرى المتاحة للأجانب مثلي. وبطريقة ما كنت محظوظاً، لكن كان عليّ أن أعمل كثيراً أثناء السنة، وأعمل منذ ساعات الصباح الأولى وحتى ساعة متأخرة من الليل، وإذا جاء زبون يريد أن

يذهب للقاء شخص مهم، كنت أتولى غسيل سيارته حتى تبدو كأنها جديدة.

وفي عصر أحد الأيام، وبعد أن نظّفت سيارة رولز رويس وسيارتي مرسيدس، قال لي رئيسي إنه يمكنني أن أبدأ عطلتي الصيفية.

حان الوقت لإمضاء ساعات طويلة تحت شجرة النخيل، لأستعيد ذكريات الماضي الدافئة.

الجزء الثاني

وحيداً في الصيف

يخيم هدوء مخيف على مدينة جدة في تموز (يوليه) بعد أن يغادرها معظم سكانها في الصيف. وكان حي النزلة مقفراً، حتى في فترات المساء عندما يصبح الطقس أبرد. وقد أقفرت الشوارع تماماً الآن، الشوارع التي كانت شديدة الازدحام منذ أسبوع أو أكثر.

وكان جميع من أعرفهم تقريباً قد غادروا جدة. فقد كان صديقاي فيصل وزب الأرض يحاربان في أفغانستان، وغادر جاسم إلى باريس لشراء هدايا، وربما كان يبحث الآن عن طرائق جديدة لتغيير الديكور في المقهى الذي يملكه، أما يحيى، فقد ذهب إلى أحد المعسكرات، ولا ريب في أنه يبحث عن حبّ على سفح أحد التلال في مكان ما، ولم يبق في المدينة أحد غيري. ولم أعد أفكّر بخالي وبأخي - فمن العبث أن تحاول أن تكون برفقة الذين لا يريدون أن يكونوا في صحبتك. بالإضافة إلى ذلك، فهما لن يكلما شخصاً يعمل في مقهى جاسم. وكان خالي يفترض دائماً حدوث أسوأ الأشياء. كان ذلك أسلوبه الديني.

ينقسم الأشخاص الذين لا يسافرون في العطلة الصيفية في حيّنا عادة إلى أربعة أنواع وهم: الذين لا يملكون نقوداً، والذين لا يوجد لديهم أقرباء يزورونهم، والذين يعتبرون أن العطلة مجرد لهو مبتذل ومحرّم، والذين يفضّلون البقاء في حي النزلة لأنه يصبح هادئاً. ومع

أنّني كنت قد ادخرت قليلاً من المال عندما كنت أعمل في مقهى جاسم، فإن الشيء الوحيد الذي كنت أريد أن أفعله هو أن أزور أمّي وسميرة، اللتين تعيشان في بلد يبدو أن الحرب الدائرة فيه لن تنتهي.

ومع أنّني كنت أحبّ أن أخلو إلى نفسي أحياناً، تظللني ذكرياتي، لم أكن أقوى على تحمّل الحرّ الشديد والصمت الثقيل الذي يطبق على شوارع جدة المقفرة خلال موسم العطلات.

وكانت تلك الأيام تبدو أطول من الأيام العادية، والزمن يمر بطيئاً. ولم يكن هناك ما يمكنني أن أفعله، لذلك لم يكن ثمة ما أدوّنه في مفكرتي عن كلّ دقيقة أمضيها وأنا في جدة. كنت أشعر بأنّني أزداد غرقاً.

بعد ظهر يوم الثلاثاء، وبعد مضي ثلاثة أيام على الإجازة التي حصلت عليها، قرّرت أن أخرج وأن أجلس تحت فيء شجرتي للحصول على قليل من الاستراحة والقراءة.

لفحتني حرارة العصر الخانقة. نظرت في كلا الاتجاهين قبل أن أجتاز الطريق، لم يكن ثمة شيء يتحرك. كان الشارع مقفراً. وبالصندل الذي أنتعله، أزلت قليلاً من التراب عن الرصيف وجلست. كنت أريد أن أحصل على استراحة طويلة. كان الهدوء جميلاً في تلك الفترة من النهار، إلى حد أنك تستطيع أن تتخيّل شجرة تهوي أمامك من أحد أفلام رعاة البقر القديمة وتتدحرج في حيّ النزلة، ولا يمكن لأحد أو لأحد المطوّعين أن يوقفها.

عندما تمددت تحت الشجرة، رأيت امرأة ـ مغطاة من رأسها حتى أخمص قدميها في عباءة سوداء طويلة ـ تمشي بخفة عند ناصية الشارع.

تساءلت ما الذي يجعلها تخرج من بيتها في هذه الفترة القائظة. كنت ممدداً على الرصيف البارد، ووجهي نحو الشارع.

كان وقع الخطوات المسرعة يقترب مني. رفعت رأسي. كانت المرأة تسير نحوي، فاستويت في جلستي.

توقّفت، تطلعت يمنة ويسرة. اقتربت مني كثيراً، وأخذت تنظر إليّ من وراء برقعها الأسود، وكان أنفها بارزاً من وراء حجابها. ألقت قصاصة ورق مجعّدة في حضني، وأسرعت مبتعدة.

فتحت الورقة بسرعة. كانت رسالة مكتوبة لي. قرأتها وطبعت الكلمات في ذهني.

هززت رأسي وعدت لأجلس على الرصيف وتطلعت حولي لأتأكد من عدم وجود أحد يراقبنا. أي مكيدة هذه؟ طويت الورقة ودسستها في جيبي.

أقفر الشارع ثانية. أشعلت سيجارة وحاولت أن أبدو هادئاً، لكن الأفكار والأسئلة راحت تتسابق في رأسي. يا له من تصرف جنوني. ألا تعلم المرأة أن المطوّعين يراقبون كلّ حركة نقوم بها؟ وكيف يمكنها أن تثق بي؟ ماذا لو كنت رجلاً تقليدياً، محافظاً، شخصاً يمقت ما فعلته ويعتبره تصرفاً مخالفاً لتعاليم الإسلام؟ وربما تبعتها إلى بيتها وأخبرت الرجل المسؤول عن أسرتها عن تصرفها الطائش هذا. بل إنني لم أجرؤ على التفكير في ماذا يمكن أن يفعل بها الرجال الذين همهم الوحيد الحفاظ على شرفهم. يا إلهي، قلت لنفسي، لا بد أنها امرأة مجنونة، طائشة حتى تجازف هكذا.

لكن بالرغم من ذلك، شعرت بالاستثارة لأنني أجلس في هذا

المكان وفي جيبي رسالة ألقتها إليّ فتاة. وفي لحظة ما، وأنا لا أزال جالساً على الرصيف، بدأت أفكّر جدياً باقتراح الفتاة.

«لم لا؟ سيكون صيفاً طويلاً على أي حال»، قال الشيطان في داخلي. نهضت وقرأتها ثانية وأنا عائد إلى البيت:

عزيزي،

إني أكتب إليك سرّاً. لا أحد يعرف عن ذلك إلا الله وأنا. أردت فقط أن أقول لك إنني أحبّك وإنني أودّ أن أكتب إليك ثانية. سأبحث عنك في نفس الوقت غداً تحت هذه الشجرة.

أغمضت عيني وحاولت أن أتذكّر شكلها: متلفعة ببرقع أسود عريض، وترتدي قفازات سوداء، وتنتعل حذاء أسود. كانت تبدو مثل أيّ امرأة أخرى تسير في الشارع. ومع ذلك، فإن أيّ شيء محتمل تحت ذلك.

قد تكون ابنة إحدى تلك الأسر الملكية، أو ابنة إحدى الأسر السعودية الغنية التي تقيم في حي النزلة الشرقية. لكنها لو كانت غنية أو أميرة، فلماذا لم تغادر المدينة كالآخرين؟ لعلها خادمة أو ابنة رجل متدين؟ من الممكن أن تكون زوجة رجل سافر لقضاء إجازته مع أصدقائه الذكور، وتركها مع أطفالهما؟ هل هي فتاة، أم امرأة، أم أرملة؟ هل هي إحدى الجارات في البناية التي أقطنها؟ هل يمكن أن تكون أخت أحد أصدقائي؟ لكن أصدقائي لم يتحدّثوا قط عن النساء في أسرهم.

تذكّرت ما قاله عمر في صباح أحد الأيام في مقهى جاسم عن الفتيات اللواتي يلقين برسائل عند أقدام الفتيان. ربما تكون قد كتبت

رسائل مماثلة لفتيان آخرين. ربما كانت قد حطمت قلوباً عديدة وهي تبحث الآن عن ضحيتها التالية.

حتى لو جريت وراء ذلك، فلحظة طائشة واحدة قد تؤدي إلى اعتقالي من قبل المطوّعين وقد يفضي بي ذلك إلى ساحة القصاص حيث يُجلد العشاق ويُقتلون في بعض الأحيان. كيف تتجاسر هذه المرأة على تعريضي للخطر؟ فالحياة في جدة صعبة بما يكفي من دون أن يستثير أحدهم أعصابك. من يريد هذا النوع من الرعب ملفوفاً في قصاصة من ورق؟

رميت الورقة في صندوق القمامة، وعدت إلى غرفتي.

في فترة الصيف تلك، وبسبب وحدتي، أمضيت وقتي في قراءة الكتب، وفي قراءة مذكراتي والرسائل التي أرسلتها إلى أمّي مرة أخرى. وكانت الأفكار والذكريات تراودني غالباً منذ أن كنت فتى في الخامسة عشرة من العمر، عندما وقعت في مصيدة مقهى جاسم، وأُجبرت على قبول رغبات الرجال المتعطشين للجنس. لم أكن بحاجة إلى مذكرات لتذكرها. إذ تتغلغل ذكريات تلك الأيام في جلد جسدي.

لقد حدث كلّ شيء بعد بضعة أسابيع من حادثة كفيلي، بدر بن عبد الله. كانت الكوابيس لا تزال تنتابني. فقد استيقظت ذات يوم في منتصف الليل وأنا أبكي. كنت أبكي وأنادي أمّي.

جاء خالي إلى غرفتنا.

صاح: «أسكت».

لكنني لم أتوقف عن مناداة اسمها، وكان ذلك يكفي لإثارة غضب خالي.

«قلت لك أن لا تذكر اسم تلك الآثمة، ليحرقها الله في نار جهنم إن شاء الله».

قفزت من سريري وانقضضت على صدره، ورحت أضربه على وجهه. دفعني إلى السرير، وأمسكني من رقبتي بيديه الاثنتين. كان العرق يتصبب منه بغزارة، وبدأت شفته العليا تنزف، وعيناه تحدّقان بي، بثبات وكأنهما عينا دمية لا حياة فيهما. كنت ألهث.

عندما أدار ظهره، صاح، «انهض وغادر بيتي. إنك فتى ناكر للجميل، إنك حتى لا تصلّي. إنك كافر ولا أريد أن أضيّع نقودي على شخص مثلك. أريدك أن تخرج من بيتي غداً».

احتججت، بكيت، توسلت، لكن خالي لم يصغ إليّ. وفي الصباح، راح يراقبني وأنا أحزم أمتعتي. وقال لي إنه لا يوجد أمل في أن أصبح مسلماً صالحاً لأنني رُبّيت على يد امرأة غير متدينة، ثم أضاف: «انظر إلى ابراهيم. لقد أصبحت أباه الآن، ويمكنك أن ترى الفرق بينكما. إنه سيصبح مسلماً مباركاً».

لم أعرف إلى أين أمضي. توسلت إليه للمرّة الأخيرة لأن يغيّر رأيه. قلت متوسلاً: «لم أتجاوز الخامسة عشرة من العمر، ولا أملك نقوداً. إلى أين تريدني أن أذهب؟»

فأجاب، «عد إلى أصدقائك المسلمين السيئين الذين يتنشقون الغراء». دفعني خارج بيته وأغلق الباب ورائي. جلست خارج البيت لفترة من الوقت لا أعرف ماذا أفعل.

كان جاسم الصديق الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني.

كنت قد تعرفت على جاسم قبل ثلاث سنوات، عندما ذهبت إلى

المقهى في صباح أحد الأيام وأنا لا أزال في الثانية عشرة من عمري. وعندما هممت بدفع ثمن المشروب، قال إنني لست بحاجة لأن أدفع لأنني أصغر زبون يقرأ صحيفة ويحتسي الشاي في مقهاه. وقال: «كما أنك تقرأ الجريدة المفضّلة لديّ»، مشيراً إلى صحيفة عكاظ، وقال إنه يحترم الأشخاص الذين يحبّون القراءة، وإنني بدلاً من أن أشتري صحيفة كلّ صباح، يمكنني أن آتي إلى المقهى وأستعير صحيفته.

ومع مضي الوقت، توثقت معرفة أحدنا بالآخر. وبالإضافة إلى إعارتي صحيفته اليومية، بدأ يقدم لي هدايا أيضاً، ولاسيما روايات ومجموعات شعرية. لكنه عندما رسم لي صورة أمّي من الأوصاف التي ذكرتها له، أصبح صديقاً عزيزاً عليّ. فقد خففت رسمته الجميلة لأمي من شدة اشتياقي لها لأنها أصبحت قريبة مني، ولأن وجهها، المطبوع في ذاكرتي، جعلها تبدو حقيقية مرة أخرى، وأصبحت ابتسامتها تلوّن كلّ شيء في طريقي، ولأنني كلما رغبت في حبّها الدافئ، كنت أحمل الرسم وأضمها إلي بقوة.

وعندما أنهى رسمه لها، قلت له: «إنك أعزّ صديق لي. إنك أفضل صديق».

عندما وصلت حاملاً حقيبتي، أخذني جاسم على الفور إلى المطبخ بعيداً عن الزبائن. أقنعته بأن يسمح لي بأن أقيم في الغرفة الصغيرة في مؤخرة المقهى، الغرفة التي تكسو سقفها مرآة.

قال: «انظر يا ناصر، يمكنني أن أسمح لك أن تعيش في هذه الغرفة، لكن يجب أن تفهم أنها تشكل لي أكثر من مجرد غرفة».

قاطعته قائلاً: «جاسم، لا تقلق. سأتوسل إلى خالي أن يعيدني إلى البيت. إني متأكد من أنه سيوافق. ثق بي، سأتركها بعد بضعة أيام».

فقال: «لا، لا، لا تقلق بشأن الانتقال بسرعة. أريد أن أساعدك. لكنني أريدك أن تساعدني أيضاً».

سألته «ماذا تريدني أن أفعل؟»

«أن تعمل في المقهى. سأطرد النادل من العمل. لا يمكنني أن أعتمد عليه. لدي شعور بأنك ستكون أفضل منه. ولا تقلق، سأدفع لك الأجر المعتاد».

وافقت بسرعة. لأنني قلت إنه لو كنت أملك نقوداً، لدفعت للكفيل لتجديد إقامتنا، لا بجسدي. همهمت، «أستطيع الآن أن أوفر مبلغاً كافياً من النقود لي ولأخي».

«هل كل شيء على ما يرام؟» سألني جاسم.

«نعم»، قلت، وابتسمت وسررت لأنني سأتحمّل مسؤولية نفسي من الآن وصاعداً.

«أحبّ ابتسامتك يا عزيزي»، قال جاسم، وأمسك يدي وراح ينظر إليّ بعينين براقتين.

أشحت بوجهي.

ترك يدي وحذرني قائلاً: «لكنك تعرف أن العمل هنا يعني أنك يجب أن تترك المدرسة؟»

ومقابل ذلك، وعدني جاسم بأنني أستطيع أن أقرأ ما أريد من الكتب التي يهرّبها من الخارج. وكان يهرّبها بناء على طلب أشخاص يريدون قراءة الكتب التي تحظر السلطات دخولها. وكانت هذه الكتب تُمنع إما لأنها تتحدى الحكومة، أو لأن الحكومة ترى أنها تخالف

تعاليم الإسلام. ومن بين الكتب التي يطلبها زبائنه روايات الكاتب السعودي عبد الرحمن منيف، الذي جُرّد من جنسيته السعودية بسبب كتاباته السياسية، وعاش في المنفى في سورية.

خيّل إليّ أن إقامتي في المقهى ستكون قصيرة لأنني كنت مقتنعاً بأن خالي سيعيدني إلى بيته إذا ما أعطيته معظم المبلغ الذي أكسبه للمساهمة في نفقات الأسرة. لكن بعد بضعة أسابيع من انتقالي إلى المقهى، انتقل الكفيل الذي يعمل عنده خالي إلى الرياض وانتقل معه هو وأخي. ولم أكتشف ذلك إلا بعد أن زرت ناظر البناية التي يسكن فيها خالي، وكان صوفياً من باكستان ـ غريباً مثلي ـ وَحدثني عن إبراهيم وعن أحواله.

ففي ذلك الصباح، أطرق برأسه ولم يقل شيئاً، ثمّ ضمني إليه وقال: «إن الله هو رفيقك الوحيد في الحياة الآن يا بني».

ظننت أن أمراً فظيعاً قد حدث لأخي. صرخت وطلبت منه أن يفصح أكثر، وتوسلت إليه أن يخبرني في الحال. لكنه شدّ على يدي وقال: «اطمئن لم يحدث له مكروه. لكنهما غادرا ولن يعودا. لكنك لست وحيداً يا بني، إن الله معك».

«ماذا تقصد أنهما غادرا؟ إلى أين؟ إلى أيّ منطقة؟ هل لديك عنوانهما الجديد؟»

«لا يا ناصر، لقد ذهبا إلى الرياض. ولن يعودا».

«لماذا لم يودّعاني على الأقل؟» رحت أبكي.

فقال: «أنا آسف، أنا آسف».

منذ تلك اللحظة، أضحى المقهى حياتي. فقد كنت استيقظ في السادسة صباحاً وأعمل حتى العاشرة ليلاً. وبعد العمل طوال النهار، لم

تكن تتبقى لديّ القدرة حتى على مغادرة المقهى. وكنت أتناول الطعام الذي يطبخه الطبّاخ اليمني في المقهى، وكان جاسم يشتري لي ثياباً جديدة. وبدأت أعيش حياة تختلف تماماً عن الحياة التي كنت أعيشها مع أمّي: فبدلاً من أن أكون محاطاً بالنساء، أصبحت محاطاً بالرجال.

وبعد مضي بضعة أشهر على وصولي إلى المقهى، طلب مني جاسم أن أرتدي بنطالاً ضيقاً لونه بني فاتح تحت الثوب، وقال وهو يرشف قهوته: «إنه لباسك الجديد في العمل». كان ذلك في وقت مبكر من صباح أحد الأيام عندما كنّا في الغرفة الخلفية.

قلت محتجاً: «انظر يا جاسم، إنني لا أستطيع أن أغلق السحّاب. إن هذا القياس لا يناسبني».

فقال: «لا، إني متأكد من أنه سيلائمك. اسحبه إلى الأعلى بقوة. دعني أساعدك»، وأمسك ببنطالي من الخصر وشدّ سروالي الداخلي.

ارتجفت من دفء يديه على جسمي. ثبّت عينيه في عينيّ، ودمدم: «أنا آسف»، ثم أضاف، «أترى يا عزيزي. هذا رائع!»

أشعل سيجارة ورأيت عينيه تحدقان في جسدي.

«انظر يا جاسم، لا أستطيع أن أرتدي هذا في المقهى. يكفي أن أرتدي الثوب، لا أستطيع أن أتخيّل ماذا يمكن أن يحدث إذا ما ارتديت شيئاً ضيّقاً كهذا. لقد مللت من الزبائن الذين يقرصونني من مؤخرتي طوال الوقت ويعدونني بهدايا إذا ما وافقت على تنفيذ طلباتهم».

كان بإمكاني أن أشمّ رائحة الهال من أنفاسه عندما قرّب وجهه من وجهي، وقال: «لا تقلق، سترتديه تحت ثوبك. لكن، هل يمكنك أن تلومهم يا ناصر؟»

«ماذا؟»

«يا عزيزي، في عالم لا توجد فيه نساء وتغيب فيه فتنة الأنثى وسحرها، يكون الفتيان مثلك البديل لهن. لماذا يجب أن تخفي جاذبيتك وجسمك الرشيق مثل امرأة محجّبة؟ إنك أجمل شخص في عالم زبائني. لذلك لماذا تجلس على جمالك مثل طير من دون أجنحة، عندما يكون بإمكانك أن تطير؟»

جلست على السرير لا أعرف كيف يمكنني أن أردّ عليه.

«ناصر، أريد أن أجعل المقهى أشبه بالجنة، حيث يتوفر كل ما يشتهيه المرء، ويستطيع أن يحصل عليه. إنهم يستطيعون أن يسجنوا النساء، لكنهم لا يستطيعون أن يسجنوا مخيلتنا. أريد أن أجد سبلاً أخرى لإطلاق الرغبات الحبيسة».

ولفترة، لم يعد أحدنا يقول شيئاً للآخر. وكنت أفعل ما أفعله دائما عندما لم يكن هناك شيء آخر يمكنني أن أفعله. أغمضت عيني.

لم يكن رشيد يكفّ عن مراقبتي وأنا أتحرك في أرجاء المقهى، وهو يدخن الشيشة، وهو يحتسي، وهو يأكل، وحتى وهو يتكلّم مع أصدقائه. ومع أنه لم يكن الوحيد الذي كان يحدّق بي، فقد كان أكثرهم إلحاحاً. وكان يُعرف بأنه الرجل الوحيد في المقهى الذي يتناول وجبة طعام كبيرة كلّ ساعتين، وهي عادة دأب عليها على الرغم من تحذير طبيبه له ونصيحته له بأن يخفف وزنه.

«ماذا ترتدي اليوم، أيها الوسيم؟»، سألني رشيد ذات يوم.

«ثوباً طبعاً. هل أنت أعمى؟»

«هيا. إنك تعرف قصدي».

«دع ذلك، أرجوك»، قلت، «هل أحضر لك طلبك المعتاد؟»

فقال: «نعم. ولا تنس أن تجعل حبات الفول تسبح في الزيت»، وغمزني.

عندما توجهت إلى المطبخ لأجلب له طلبه، أخذت أدمدم متذمراً.

«ناصر؟» قال جاسم. كان وراء طاولته، يجري بعض الحسابات، «ما المشكلة؟»

«إنه هو»، وأشرت إلى رشيد برأسي.

«حاول أن تكون هادئاً»، قال، وتناول منديله وجفف جبينه.

«لقد تعبت»، قلت بصوت منخفض.

وضع جاسم يده الأخرى على كتفي وربت عليها بهدوء، وقال: «عزيزي، عندما تشعر بأن الأمر زاد عن حده، تذكّر ما قلته لك منذ أيام. كن فخوراً بمن أنت. تقاسم ما لديك مع الآخرين».

يجب أن أكفّ عن التذمر وأفعل ما طلب مني أن أفعله لأنني شعرت بأنه لا يوجد لدي خيار حقيقي آخر. فالمقهى الذي يمتلكه هو المكان الذي أعيش فيها أيضاً. والآن بعد أن هجرني خالي وأخذ أخي معه، لم يبق لي أحد غير جاسم.

وفي صباح اليوم التالي، رفع زبون آخر، السيد هادئ، يده المليئة بالخواتم ليلفت انتباهي. ابتسمت. كان واحداً من الرجال القلائل الذين لم يحاولوا لمسي قط، وكان يجلس على الدوام في مؤخرة المقهى، الطاولة الوحيدة التي يوجد فيها كرسي واحد، والتي كانت تُحجز له باستمرار. كان وجهه يختفي وراء دخانه، ونظاراته الشمسية، وصمته.

وكنت أقوم بخدمته كالمعتاد: قطعة بسبوسة مع القهوة. ولم يكن يقول لي أكثر من: «أغناك الله».

ولم يكن يكلّم أحداً إلا جاسم، وكان حديثهما على الدوام مقتضباً. كان طويل القامة ذا لحية رمادية كثة، وكان يرتدي على الدوام سترة فضفاضة فوق ثوبه.

«لا تسأله عن أي شيء على الإطلاق»، قال لي جاسم محذراً، وأضاف، «إنه يحبّ أن يبقى وحيداً».

«ولا حتى اسمه؟»

«سأقول لك اسمه. إنه يدعى أبو عماد».

ضحكت، وقلت: «حتى إنه يختبئ وراء اسم ابنه».

هرعت إلى طاولة السيد هادئ. حيّيته قائلاً: «السلام عليكم».

ردّ بصوته الرقيق: «وعليكم السلام».

سألته: «أي شيء آخر تريد اليوم بالإضافة إلى كعكة البسبوسة مع القهوة؟»

فأجاب، «لا، شكراً. أغناك الله».

بعد لحظات، دخل رشيد وجلس إلى طاولته كالمعتاد، وصاح: «يا ولد؟»

«أوه، يا الله»، تمتمت، واتجهت إلى طاولته.

قال: «خدمتك بطيئة جداً اليوم».

فأجبت: «إن كنت تريد خدمة أسرع، يمكنك أن تذهب إلى مقهى آخر».

«نظّف الطاولة، سيأتي أصدقائي إلى هنا قريباً».

«لقد نظّفتها منذ لحظة».

قال: «لم تنظفها جيداً. انظر، هنا وهنا وهنا. ألم يعلّمك جاسم أنك يجب ألا تردّ في وجه مصدر رزقك ونعمتك؟ إخرس الآن ونظّف الطاولة».

هززت رأسي، وعندما انحنيت فوق الطاولة، دسّ يده تحت ثوبي وانزلقت بين فخذي.

رميت قطعة القماش على الطاولة واندفعت إلى المطبخ.

في المطبخ. غسلت يدي وبدأت أطحن حبّ الهال مع القهوة. وقف الطاهي اليمني إلى جانبي، ممسكاً إبريق القهوة من فوهته المقوّسة الحادّة، منتظراً أن أضيف الهال الذي طحنته للتو.

اندفع جاسم إلى المطبخ وسألني ما الذي أفعله.

تجاهلته وانتزعت إبريق القهوة من الطاهي وصببت فيه قليلاً من الماء.

قال جاسم بصوت مرتفع: «ناصر، إني أحدّثك».

«دعني وشأني».

طلب من الطاهي أن يتركنا وحدنا للحظة.

في هذه الأثناء، دخل رشيد إلى المطبخ، وصاح، «جاسم، كلّ ما طلبته من هذا الولد أن ينظف الطاولة جيداً».

التفت جاسم نحو رشيد وقال: «رشيد، أعرف أنك رجل تتمتع بالصحة ولك احتياجاتك، لكنك يجب أن تكون لطيفاً مع ناصر. إن كنت تحتاج إلى أيّ شيء منه، اطلبه منه بلطف».

خبطت قبضتي على الطاولة، وصحت في وجه جاسم، «إن كنت تريد أن تبيع جسدي، يجب أن تكون رجلاً وتقول لي ذلك في وجهي».

نظرت إلى عينيه لأرى هل كان يشعر بالخجل، لم أر شيئاً. دفعته لأبعده عن طريقي وهرعت إلى غرفتي. أنزلت صورة أمّي عن الحائط ووضعتها في حضني. أردت أن أبكي، لكنني أمسكت عن البكاء. جلست على سريري ورحت أنظر إليها بصمت، أكزّ على أسناني.

اندفع جاسم إلى غرفتي. نظر إليّ بطريقة أربكتني.

«جاسم، أرجوك انس الأمر»، قلت متوسلاً، عندما اقترب أكثر، «أرجوك دعني وشأني».

جلس بالقرب مني وهمس، «ناصر، يصعب عليّ أن أطلب منك أن تفعل ذلك لأن. . .»، توقّف قليلاً، وتنهّد بعمق، ثم قال: «ناصر، إن رشيد يحبّك. قال يجب أن ينالك لأنه يريدك أن. . .»

«دعني أحزر. إنه يريدني أن أكون «غلامه» إلى أن يتزوّج. لقد سمعت ذلك كثيراً من قبل لكنني لن أفعل ذلك».

«ناصر، لا يمكننا أن نرفض رشيد. ربما لا يبدو عليه ذلك، لكنه رجل مهم جداً بالنسبة لهذا المقهى. لم أقل لك ذلك من قبل، لكن لكي يستمر عملي، يجب أن أفعل بعض الأشياء، أن أمتثل لبعض القواعد. فأنا أجنبي مثلك. ومن الممكن أن أُطرد من هذا البلد في أيّ دقيقة إذا لم أنفذ هذه القواعد. إنك عزيز عليّ كثيراً، ولا أطلب منك أن تفعل أشياء إلا لسبب معين. فإذا أُغلق هذا المحل، إلى أين ستذهب؟ من سيفتح باب بيته لك؟ ناصر، إن خالك وأخاك يعيشان في

الرياض الآن، ولن يعيداك قريباً ويجب أن تجدّد إقامتك. من أين ستحصل على النقود لتجديدها؟ فإذا لم تدفع وانتهت إقامتك، فإنهم سيرّحلونك. أهكذا تريد أن تكافئ أمّك؟»

«دعني وشأني»، صرخت به.

«ناصر، استمع إليّ. إذا أعطيت رشيد ما يريده، فلا تخش شيئاً. لقد أعطاه الله كلّ شيء إلا الجمال والأخلاق الجيدة. سأقدم له دروساً في آداب السلوك ويجب أن تقدم له أنت شيئاً من جمالك. ويمكنني أن أطمئنك بأننا سنحصل على شيء من ثروته».

«كفّ عن ذلك يا جاسم»، قلت، ووضعت صورة أمّي جانباً.

لكن لا بدّ أنه شعر بأنّني بدأت أنهار، فقد كان مثل قاتل يرمق ضحيّته، فتل جاسم سكينه في داخلي: «تذكر كم عانت أمّك لتبعدك عن الحرب إلى مكان آمن. والآن تريد أن تعود إلى منطقة الحرب، إلى الموت. إني متأكّد من أنها مشتاقة إليك، هذا إن كانت لا تزال على قيد الحياة».

وثبت ورحت أضربه، وأصيح، «أعرف أنها لا تزال على قيد الحياة. إنها تنتظرني!»

لم يبد أي مقاومة، وقال: «هيا اضربني يا ناصر، لكنك يجب أن تدرك أن الواحد منا للآخر. لا توجد لديك أسرة ولا توجد لدي أسرة. أقسم لك بأنني لا أريده أن يلمسك. لكن ليدعم أحدنا الآخر. يجب أن نفعل كل ما يمكننا لنعيش».

تركت الغرفة وجريت خارجاً من المقهى.

أخذت أجري واجتزت المحلات والمسجد الكبير والبناية ذات

الطوابق التسعة. استقللت الحافلة إلى الكورنيش وهرعت إلى مكاني السري. هبت عاصفة شديدة فوق البحر والشاطئ. أحسست بأنني ازددت قرباً من أمّي في هذا المكان، لا يفصلنا شيء سوى البحر.

جالساً على الصخرة التي دأبت على الجلوس عليها، محدقاً في المياه الداكنة، بدأت أتساءل لماذا لا تسير الأمور معي على ما يرام. لكنني لم أجد الكلمات التي يمكنني أن أصف فيها مشاعري الداخلية. مشيت ببطء نحو البحر. هل كانت الأمور لتختلف لو لم ترسلني بعيداً عنها؟ هل لا تزال حية ترزق في كوخها عند سفح تل العشاق؟ ربما كان جاسم محقاً. لعلها ماتت. قلت لنفسي لكنها لو كانت ماتت، فلا بدّ أنها ماتت منذ فترة طويلة، عندما أرسلتني أنا وأخي بعيداً عنها، لأنها غالباً ما كانت تقول لنا إننا كنا السبب الوحيد الذي يجعلها تعيش في هذه الحياة.

في ذلك المساء، قرّرت أن أغادر جدة. لم يكن يهمني إلى أين سأذهب. فقد قرّ قراري على ذلك. لم يعد ثمة ما يدعوني للمكوث، ولكي أفعل ذلك يجب أن أجمع مبلغاً كبيراً من المال بسرعة.

غفوت فوق الصخرة، وتلاشى غضبي. عدت إلى جاسم في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، مبلّلاً، متسخاً، وجائعاً.

عندما فتحت باب المقهى، غمرت المكان رياح دافئة، وجلبت معها رائحة مياه المجاري. وفي الشارع، كانت الحفر مليئة بالماء. وأُغلقت المدرسة القريبة من المقهى بسبب الأضرار التي ألحقتها العاصفة بالمبنى. وسمعنا أن الرياح قد دمرت مطعماً يملكه رجل مصري في أعلى الشارع. وقد امتدح إمام مسجدنا الضرير الدمار الذي

لحق بالمطعم المصري أثناء خطبته الصباحية. وكنت أسمع صوته ملعلعاً وأنا أرتّب الطاولات والكراسي في المقهى. وكعادته بدأ يندد بالأعداء في هذا العالم، وكرّس جلّ خطبته لتذكير المصلّين بواجباتهم تجاه أسرهم. وبعد أن توقف لوهلة طويلة، بدا أنه قد بدأ يخرج عن مسار خطبته المعتادة.

قال: «لقد ظهرت في مجتمعنا أشكال جديدة من الشرّ، ويتمثل هذا الشرّ الجديد في رجل أجنبي جاء ليحطّم أخلاقنا وقيمنا. وقد بدأ هذا الرجل يبيع أطباق التقاط الأقمار الاصطناعية». هززت رأسي. ومضى يقول: «أيها المؤمنون بالله، هناك رجل ينتقل من بيت إلى بيت ليبيع هذه الأطباق، ويهتز شعبنا طرباً لهذا الشرّ القادم، وبدأ الناس يركّبون هذه الأشياء القبيحة فوق سطوح منازلهم كالمآذن. وهل تعرفون سبب ذلك؟ إنهم يريدون مشاهدة الأفلام المصرية المحظورة لإفساد شبابنا. لكن ليلة البارحة، قال الله كلمته. فقد أرسل غضبه ودمّر مطعم الرجل الذي يدّعي أنه فتحه ليملأ بطون الناس، لكنه لا يملأ إلا عقولهم بالشهوات والفجور. إن هذه رسالة بعثها الله إلى حكومتنا التي إذا لم تتصرف في الوقت المناسب، فإن العلي القدير سيتصرف».

كان «البرهان» على انتقام الله لا يزال واضحاً للعيان في الشارع.

بعد أن فتحت المقهى بقليل، بدأ الزبائن يتوافدون. كان الطاهي اليمني في المطبخ، وكان جاسم يعدّ النقود. لم يقل شيئاً.

رأيت رشيد يبصق قبل أن يدخل المقهى، ثم أعلن، كما لو كنت زوجته، «لقد وصلت، هيا أحضر لي القهوة».

جلس إلى طاولته. ثم وصل رجال آخرون وجلسوا في أماكن

متفرقة من المقهى، وحيّا أحدهم الآخر. وقف رشيد فجأة، وصاح في صديقه جمال الجالس في الركن المقابل، «هل ترى ما يحدث لمدينتنا؟ إن حكومتنا لا تكفّ عن إخبارنا بمدى غنانا، ومع ذلك انظر ماذا يحدث - دلو واحد من المطر وتغرق جدة. يجب أن يقيموا شبكة صرف صحية جيدة بالأموال التي يملكونها».

ضحك جمال، وجلس رشيد، مسروراً بنفسه. «قهوتك»، قلت، ووضعتها على طاولته.

عند الطاولة، أمسك جاسم بيدي ونظر إليّ بارتياب. رحت أحدّق به.

أبعدت يدي عن يد جاسم. استدرت وقلت: «سأكون في غرفتي».

كان الهواء ثقيلاً في الغرفة الخلفية، وكان جفناي يزدادان ثقلاً. وكانت صرخات الرجال الذين يلعبون الدومينو تبقيني صاحياً. كانوا يخبطون على الطاولات، لكنني حافظت على إقامة حاجز بيني وبينهم. كنت أتوق إلى أن أسمع من أمّي وسميرة بأنهما على ما يرام.

استدرت إلى الحائط. بدأت أتذكّر أمّي وسميرة وصديقاتهما والعاهرات في تلّ العشاق. وفكّرت بالسنوات التي لا تعد ولا تحصى التي قدمن خلالها أجسادهن إلى الرجال الجياع. ورحت أفكّر بالليالي التي يقضينها بين أذرع الرجال الذين لا يعرفونهن، الرجال الذين يأتون تحت جنح الظلام، الرجال الذين ينتظرون حول التلّ مثل ذئاب لتحاشي الرجال الآخرين بانتظار إشارة تدل على أن المرأة قد أصبحت متاحة. أخذت أفكّر بأمّي وسميرة، وكيف ربتنا أنا وإبراهيم، وكيف كانت كل منهما تساعد الأخرى بالنقود القليلة التي كانتا تكسبانها. وتساءلت ماذا

ستقولان إذا ما رأتاني هنا، في غرفة جاسم الخلفية. سمعت طرقاً على الباب.

أخذت نفساً عميقاً. زفرت قائلاً: «ادخل».

دخل رشيد الغرفة، وأغلق الباب وراءه، ثم علّق غترته على خطّاف. مسّد ثوبه، نظر إلى حذائه، ودون أن يقول شيئاً، أطفأ الضوء.

في الظلام وقبل أن يمسك يدي، همس رشيد، «قال جاسم إنك ستكون غلامي إلى أن أتزوّج».

في صباح أحد الأيام، وبعد مرور أربعة أسابيع على مجيء رشيد بانتظام إلى غرفتي، كنت أدخّن سيجارة خارج المقهى، غير آبه بما يجري حولي. كان السيد هادئ يهم بدخول المقهى. لا بدّ أنه لاحظ شيئاً ما على غير ما يرام، لأنه اتجه إليّ.

«ناصر، كيف حالك اليوم؟»

هززت كتفيّ.

همس قائلاً: «أرجوك قل لي إن كنت تريد أن تتكلم. يمكنني أن أؤكد لك أن الأشخاص الهادئين ينصتون جيداً».

أشعل سيجارة ودخل إلى المقهى، خافضاً رأسه.

كنت أشعر بخجل شديد من إخبار السيد هادئ عن رشيد. مضت فترة قبل أن أقترب منه.

بينما كنت أقوم على خدمته، كان جاسم ينظر إلينا من وراء الطاولة من مسافة قريبة، وكان رشيد يراقبنا من طاولته التي دأب على الجلوس

إليها في الجزء الأمامي من المقهى. همست له بأنني أريد أن أتحدث إليه، لكن الوقت الوحيد الذي يمكنني أن أفعل ذلك هو قبل أن أفتح المقهى، وقبل أن يصل جاسم والطاهي اليمني.

هزّ رأسه وقال إنه سيأتي غداً بعد صلاة الفجر مباشرة.

جاء السيد هادئ إلى غرفتي في تمام الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي.

قال إنه يعرف ماذا يريد مني رشيد لقاء توفير الحماية لعمل جاسم، وإنني لم أكن أول فتى يحدث له ذلك، مما جعلني أشعر بالارتياح. وقال إنه يعرف شخصاً سودانياً يدعى هلال يمكنه أن يجد لي عملاً جديداً بسرعة، وقال إنه رجل طيب وإنه واثق من أنه سيعتني بي.

مرّ وقت على الوعد الذي قطعه لي السيد هادئ لمساعدتي، إلى أن عثر لي هلال على عمل في مغسلة للسيارات، وشقّة صغيرة أقيم فيها.

وعندما تركت جاسم، كنت قد عملت في الغرفة الخلفية مدة ستة أسابيع.

في آخر يوم لي في المقهى، ترك لي رشيد مبلغاً قدره مئة ريال. رحت أمعن النظر في السقف. إن ضغط جاسم وحلمي بمغادرة البلد جعلاني أقبل الحياة في المرآة، لكنني لم أستغرق فترة طويلة. أخذت إحدى فردتي حذائي وألقيتها بقوة على صورتي المنعكسة في المرآة.

للمرّة الأخيرة، نظرت إلى الأعلى. شُطرت صورتي إلى نصفين. ثمّ خرجت، تاركاً ورائي صورة انعكاسي المكسورة.

عندما اكتشف مكان إقامتي، رجاني جاسم أن أعود. طلبت منه أن

يتركني وشأني. قال: «حسناً، لكنني صديقك الوحيد. لن يدعمك أحد كما دعمتك».

فقلت: «اتركني بحالي».

استمرت صداقتي مع السيد هادئ حتى بعد أن غادرت المقهى، وكنا نلتقي في مركز التسوّق أو في الكورنيش. كنت أشعر براحة كبيرة عندما أكون برفقة السيد هادئ. ومنذ وصولي إلى جدة، لم يكن لديّ صديق يمكنني أن أثق به، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالأمان مع أحد.

كان مقيماً بصورة غير شرعية في جدة، وكان قد رُحِّل مرات كثيرة، لكنه كان يعود باستمرار. وفي آخر مرّة، قال إنه تعلّم درسه. فمنذ أن هُرِّب وعاد إلى جيزان، الميناء الرئيسي في جنوب السعودية، غطّى وجهه بلحية طويلة ونظارات سوداء، وارتدى الثياب التي يرتديها السعوديون. وابتعد أيضاً عن الأجانب الآخرين لكي لا يرتاب به أحد.

عندما حاولت أن أتعرّف على هلال أكثر، تبين لي أنه لا يوجد لديه وقت لإقامة صداقات. وكان هلال، الذي يقيم في شقّة صغيرة مع ثلاثة سودانيين آخرين في حي النزلة، يعمل كثيراً، ولم يكن لديه وقت للراحة. وكان يقول عادة: «بما أنني أعيش في بلد غني فإنني سأستغلّ الفرصة وأعمل لأوفّر مبلغاً أكبر من المال». وكان يريد أن يوفّر مالاً ليعود به إلى السودان ويقيم شركة حافلات بين بور سودان وعاصمة شرق السودان، كسلا، مسقط رأسه.

وبالرغم من عدم وجود أصدقاء عديدين، كانت الأمور تسير على ما يرام. كنت أسعى بحماسة شديدة لبناء حياة جديدة وحدي. ولم أكن بحاجة إلى خالي ولا إلى جاسم.

ما إن عادت ابتسامتي إلى وجهي حتى جلب لي هلال خبراً حزيناً قضى على سعادتي الصغيرة التي كنت قد بدأت أستمتع بها.

ففي صباح يوم الخميس، جاء إلى شقّتي وأخبرني أن شرطة الهجرة داهمت شقّة السيد هادئ، وأنه يقبع الآن في أحد السجون وسط جدة، بانتظار ترحيله.

«لا يمكنني أن أصدق أنه قبض عليه»، قال هلال، «فأبو عماد أكثر المهاجرين غير الشرعيين الذين أعرفهم حذراً، وصدقّني، أعرف الكثير منهم. لا يمكنني أن أفهم كيف حدث ذلك».

ما إن نقل لي هلال الخبر، حتى هرعت محاولاً أن أرى السيد هادئ لأودّعه قبل ترحيله.

كان مطار جدة القديم قد تحوّل إلى سجن. وكان يبدو من الخارج ضخماً، مسوّراً بجدران بيضاء عالية، ولا توجد فيه نوافذ إلا في الطوابق العليا. عندما وصلت إلى السجن، رأيت تمثال طائرة صغيرة عند المدخل، عجلاتها الخلفية راسخة على الأرض، بينما ارتفعت عجلاتها الأمامية قليلاً عن الأرض، تتهيأ للإقلاع. ومما يدعو للسخرية أن يكون في هذا المكان شيء مثل طائرة، مثل طائر حرّ، تنتصب عند مدخل مبنى يُحتجز فيه الناس لأنهم جلبوا أحلامهم إلى المكان الخاطئ.

وكان شرطي مسلّح يقف خارج البوابة. كنت أعرف أنه لا توجد لديّ فرصة كبيرة، لكنني حاولت.

حيّيته قائلاً: «السلام عليكم».

فأجاب ببرود، «وعليكم»، ولم يكمل التحية كاملة.

قلت: «أطال الله عمرك. هل من الممكن أن أرى صديقاً لي ينتظر الترحيل؟»

بسط وجهه الناعس وتحوّل إلى ابتسامة ساخرة، وسأل: «هل أنت أجنبي؟»

أومأت.

«أين إقامتك؟»

أعطيتها له. أخذ يتصفّحها، ثم رماها إليّ. أمسكتها عند صدري.

قال: «اذهب من هنا. لا يمكنك أن تزور أحداً. إن السجن مغلق».

«لكنه الصديق الوحيد الذي بقي لي في جدة. أرجوك اسمح لي بأن أودعه، مرة واحدة فقط...»

«قلت لك ابتعد من هنا. يالا، ماذا تنتظر؟ هل تريد أن تشارك صديقك زنزانته؟»

أطرقت برأسي وعدت سيراً إلى غرفتي الوحيدة. ما إن وصلت إلى البيت، حتى اتصل بي جاسم. «ناصر؟»

وضعت سماعة الهاتف. لكنني ما إن استلقيت على السرير، حتى بدأت أدرك أنه الشخص الوحيد الذي أعرفه. أطفأت الضوء وأجهشت في البكاء.

الجزء الثالث

الرياح التي تهبّ
من البحر الأحمر

في الأيام التي تلت ذلك، لم تشغل الرسالة بالي كثيراً، وعندما كانت تخطر لي، كنت أحاول أن أقمع الفكرة، لعدم وجود جدوى منها. إلى أين يمكن أن تقودني؟ في مساء يوم الجمعة، بعد مضي ثلاثة أيام على إلقاء الفتاة الرسالة لي، قررت أن أذهب إلى الكورنيش لأزيل هذه الأفكار من رأسي. وأمضيت الليلة كلها في مكاني السري.

في صباح يوم السبت، استيقظت وقد ألمّ بي ألم شديد في ظهري بسبب النوم فوق الصخرة الصلبة. أغمضت عيني، محاولاً أن أستريح قليلاً، لكن ضوء الشمس اللامع كان يسطع عبر جفنيّ. انتصبت في جلستي وتثاءبت.

مشيت نحو البحر لأغسل وجهي. عندما انحنيت رأيت انعكاس صورة وجهي المرتجّة على سطح الماء. بدا وكأنه يحاول الهرب، ويغوص إلى أعماق البحر. لكن الماء البارد غيّر رأيي.

لماذا تركت جدة، بأنظمتها وظلمها، تجعلني شخصاً سلبياً وخائفاً؟ لماذا لا أكون هناك في الشارع أبحث عن الفتاة ؟ ينبغي لي أن أجري وراءها بدلاً من أن أختبئ. ربما لا يوجد شيء خاص تحت عباءتها: نعم، قد تكون سراباً، امرأة مجنونة، أو فتاة غبية لديها وقت فراغ كثير. لكن أليست تلك فرصة يجدر بالمرء أن يستغلها في بلد ينتصب فيه جدار شاهق يفصل بين الرجال والنساء؟

نظرت إلى الماء صوب البحر الأحمر. كنت أرجو أن تكون الفتاة حقيقية، وأملت أن تأتي وتبحث عني ثانية.

بعد أن عدت إلى حي النزلة، كان الفيلم بالأبيض والأسود لا يزال يدور. لكن لم يكن في الشارع سوى حفنة من الناس يتناثرون هنا وهناك. أحسست وكأنني ممثل ثانوي في الفيلم، أحظى باهتمام كبير في غياب الممثلين الرئيسيين.

وعندما وصلت إلى البيت، أردت أن أهرب بسرعة من أشعة الشمس الحارقة. كنت أحتاج إلى مشروب بارد ووجبة طعام سريعة، ثمّ أنتظرها تحت ظلّ شجرة النخيل. لم أشعر اليوم بالخوف.

«سلام»، قلت لصاحب محل الشاورما، وهو رجل لبناني بدين.

فأجاب، «وعليكم السلام».

«سندويشة شاورما من فضلك».

«دجاج أم خروف؟»

«منذ متى تظن أنني أتناول لحم الدجاج؟»

«مشاكس، إيه؟» قال موبّخاً.

عبست.

عندما مددت يدي إلى جيبي لأدفع له ثمن السندويشة، قرأت العبارة المعلقة على الجدار وراءه: «الحياة لا تدوم»، وفي المرآة بجانبه، رأيت انعكاس أبو فيصل، قاطع الرؤوس. قادماً إلى المحل.

كان لحضوره نفوذ قوي. إذ كان الرجال يثبون عندما يرونه، ويقتربون، الواحد تلو الآخر، لتقبيل يده اليمنى الشهيرة بحماسة

شديدة، وكأنها قطعة من الحجر الأسود في الكعبة المقدّسة. وكان الآخرون يمطرون جبهته وكتفيه بمزيد من القبلات. وسمعت أحدهم يصيح: «الله أكبر، بارك الله فيك، يا منفّذ العدالة».

وقفت أنظر إليه. أحسست وكأن ملاك الموت يقرع بابي. إن مجرد التفكير في هذا الأمر جعلني أرتجف. وضعت نقودي على الطاولة معلناً أنني أريد أن أغادر المحل، تحيناً لانتهاز فرصة اليوم.

كانت عينا أبو فيصل، الشبيهتان بجنديين مختبئين في خندق، صغيرتين، مدوّرتين، وضيّقتين. كيف يمكنه أن ينظر إلى العالم بتينك العينين الصغيرتين؟

تناولت سندويشتي وشققت طريقي بين الناس المحتشدين. عندما خرجت إلى الهواء الحار، أحسست بتلبك في معدتي. رميت السندويشة في علبة القمامة وتوجهت إلى دكان اليمني.

شققت طريقي بين الزبائن القلائل المتجمّعين حول طاولة صاحب المحل القديم. لوّحت بيدي مبعداً دخان البخور عن وجهي، وتوجّهت إلى مؤخرة الدكان. كانت تنبعث من مكبّر الصوت المثبت فوق الرفّ آيات قرآنية بصوت منخفض. أبعدت الصناديق الفارغة المكوّمة على الأرض، فتحت الثلاجة، وبحثت عن علبة بيبسي باردة.

صاح صاحب الدكان، «جميعها باردة، خذ واحدة وغادر المحل». تجاهلته وواصلت البحث حتى التصقت أصابعي بعلبة. التقطتها، توجهت إليه ووضعت نصف ريال بجانب صندوق النقود. عندما عدت إلى ظلّ الشجرة المقابلة لبيت خالي القديم، عدت إلى العرض السينمائي بالأسود والأبيض، والعرق يتصبب من وجهي.

جلست تحت أغصان شجرة النخيل العريضة، ورحت أجرع البيبسي. واندلق السائل البارد إلى حنجرتي بسرعة.

نظرت إلى جهة اليمين. من بعيد رأيت امرأة خارجة من أحد المنازل. توقّفت عن الشرب وركّزت انتباهي عليها. هل هذه هي الفتاة؟ لكن أليس هذا هو بيت زب الأرض الذي خرجت منه؟ إنه يشارك في الحرب في أفغانستان، فكيف يمكن أن يبدو الأمر إن كانت هذه أخته... هل توجد أخت لزب الأرض؟ لم أكن متأكّداً، لكنني أعرف أنه توجد لأبيه زوجة ثانية تقيم على بضعة أمتار من بيت زب الأرض. استويت واقفاً ورحت أحدّق في المرأة ثانية. ربما كانت زوجة أب زب الأرض الثانية هي التي ألقت الرسالة عند قدمي؟ ربما كان ذلك.

قبل أن يهديه الإمام الضرير إلى الطريق القويم ويصبح مسلماً متشدداً، عندما كان تحت تأثير الشراب، كان زب الأرض يتحدّث عن زوجة أبيه. وكان قد قال لي إنه عندما كان أبوه في العمل، صادفها في مطبخ البيت عندما جاءت من بيتها لتساعد أمّه المريضة. كانت في السادسة عشرة من عمرها، بنفس عمره أيضاً، وقال إنها لم تكن ترتدي عباءتها لأنها كانت تظن أنه لا يوجد رجل في البيت. وقال زب الأرض، إنهما عندما التقيا أعجب أحدهما بالآخر، وسرعان ما بدأ يقبّلها. وبعد أيام قليلة، ضاجعها على طاولة المطبخ. لقد فقد بكارته من زوجة أبيه عندما كانت أمّه نائمة في الغرفة المجاورة.

دخلت المرأة التي خرجت من بيت والد زب الأرض الأول إلى البيت الثاني. عدت وجلست على الرصيف، لكنني لم أستبعد إمكانية أن تكون الفتاة هي الزوجة الثانية.

مرّت حفنة من الأشخاص: مجموعة من أربع نساء وصبيين ورجل يمني يضع خنجراً تحت حزامه، ثم خرج رجل عجوز من الفيللا المقابلة ليبعد حمامتين تتسافدان فوق الشجرة المطلة على بيته. عددت السيارات التي كانت تمرّ. كانت رقم ثلاثة سيارة جيب بنوافذ مظلّلة. كانت تسير بسرعة، محطّمة الهدوء الذي يخيم على الشارع، وكأنها تنطلق لتلبية حالة طارئة؛ فلا بد أن هناك أحداً يرتكب إثماً في مكان ما في حي النزلة، ويجب معاقبته على الفور.

كنت قد بدأت أغفو، وبدأ جفناي يستسلمان ببطء للنسيم المنوّم الذي كان يداعبني تحت الشجرة. بذلت جهداً كبيراً لأظل مستيقظاً. كان ذلك عندما استدرت بعينيَّ نصف المغمضتين إلى جهة اليسار، ولاحظت امرأة تسير بخطى وئيدة نحوي. لكن عقلي كان متعباً ولم أتمكن من التساؤل عما إذا كانت هي أم لا. أشحت بوجهي وتمددت على الرصيف البارد، وغططت في النوم.

كان الشيء التالي الذي تناهى إليّ وقع خطوات تقترب مني. انتصبت جالساً على الرصيف، ورأيت قصاصة ورق تسقط أمامي. رفعت عيني، لكنني لم أر سوى ظلّ داكن يخطو بسرعة أسفل الشارع. التقطت الورقة ووثبت واقفاً. جريت إلى وسط الشارع محاولاً رؤيتها، لكنها كانت قد اختفت. لم يكن ثمة شيء يتحرّك. نظرت إلى يميني ورأيت أربع نساء، جميعهن محجبات بالكامل، يتحرّكن بصمت.

لبثت واقفاً تحت أشعة الشمس المحرقة. كانت قطرات العرق تسيل من جبهتي وتتساقط إلى رقبتي.

نظرت إلى الورقة الصفراء التي أصبحت طرية في يدي الرطبة.

نسيت أنني كنت واقفاً في منتصف الطريق. تناهى إليّ من بعيد صوت بوق سيارة. كنت سارحاً في أحلامي التي لم أخرج منها إلا بعد مضي فترة من الوقت. كان أحدهم يصيح بي. إنه محمد علي الحيراني ـ المعقّد. كانت رقبته ممدودة خارج النافذة، وأبوه يحدّق بي من وراء المقود ويداه على بوق السيارة.

«ابتعد عن الطريق»، صاح الفتى المعقّد. ابتعدت قليلاً لأدعهما يمران وعدت إلى البقعة التي كنت أجلس فيها تحت النخلة. تطلعت حولي لأتأكد من أن أحداً لا يراقبني، ثم قرأت الرسالة بنهم شديد:

حبيبي،

إني أجازف مجازفة كبيرة بالقيام بذلك. كنت أمرّ من جانب هذه الشجرة كلّ يوم منذ يوم الثلاثاء الماضي، أكثر من مرة واحدة، بأمل أن أراك. لكن الشجرة كانت وحيدة طوال الأيام الأربعة الماضية. لا أعرف بماذا تفكر، لكنني إذا اضطررت، سآتي إلى هذه البقعة كلّ يوم طوال حياتي لأقنعك بأنني أكنّ لك محبة خاصة.

باسم الله، يجب أن أخبرك بأنني وقعت في حبك منذ أكثر من سنة، وظلت عيناي مخلصتين لك منذ ذلك الحين. لقد أصبحت رفيقي الوحيد في وحدة أيامي ولياليّ، طوال الصيف والربيع. عندما رأيت ابتسامتك من بعيد للمرة الأولى، كنت مثل شخص عطشان في صحراء يرى سراباً. لكنني عندما اقتربت من وجهك أكثر، رأيت أن ذلك السراب لم يكن في حقيقة الأمر سوى واحة، وللمرة الأولى في ذاكرتي الحيّة، اجتاحني شعور بالأنانية، وتمنّيت أن أحطّ في واحتك وحدي وأستريح فيها استراحتي الأبدية.

سلام من قلب فتاة في حي النزلة.

نظرت إلى الأرض إلى جانبي وكأنها تجلس بعباءتها السوداء تقرأ رسالتها لي بصوت مرتفع. تمددت على الرصيف، معانقاً الرسالة، أحس بدفئها، وكلماتها تغوص في أعماقي.

وفي طريق عودتي إلى غرفتي، رحت أغني أغنية كنت أسمعها في مخيّم اللاجئين، تتحدث عن امرأة ترقص فوق شجرة صمغ، وأمضى المغني طوال حياته يتعقبها، وكان أنفه هو الذي يقوده إلى كيانها الرائع العطر.

في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي، أيقظني رنين الهاتف من نومي. مشيت مترنحاً لأرفع السماعة. «ألو؟ ناصر؟ ناصر؟»

«هل هذا جاسم؟ «سألت، وأنا أفرك عيني.

«ومن غيري يمكن أن يتصل بك في هذا الوقت من الصباح؟ لقد اشتقت إليك يا عزيزي. لشدّ ما أتمنّى أن تكون هنا. إن باريس مليئة بالأمطار وأنا أسير في الظلام لا أفكّر بأحد سواك».

وتابع حديثه يبثني أشواقه، وقال إنه يشعر بالأسف لما جرى لي مع رشيد. لكن التعب كان قد بلغ مني مبلغاً لم أستطع معه أن أقول شيئاً. مرَّرت راحة يدي على وجهي وكأنه صفحة ماء، محاولاً أن أوقظ نفسي.

«ناصر، هل أنت هناك؟»

«جاسم، أرجوك، ليس هذا وقتاً مناسباً للحديث».

«حسناً، إنك متعبٌ، نم يا عزيزي. لا أصدّق متى أراك».

ألقيت سماعة الهاتف بقوة على الطاولة.

كانت الليلة شديدة الحرارة، وكان العرق يتصبب مني. قبل أن أعود إلى السرير، أخذت دوشاً بارداً. خرجت من الحمام وقطرات الماء لا تزال تلمع على صدري، متمنياً أن أجفّف نفسي بالاستلقاء على ظهر المرأة الدافئ.

بدلاً من ذلك، كوّرت جسدي الرطب حول ملاءات السرير ونمت، وأنا أمسك رسالتها في قبضتي.

استيقظت في حوالي الثامنة صباحاً. عندما وقفت أمام مرآة الحمّام، توقعت حدوث الأسوأ بعد تلك الليلة المقلقة، لكن قسمات وجهي كانت متألقة، وقد غادر النوم أجفاني ولم يعد له أثر في عينيّ.

كانت تراقبني منذ أكثر من سنة، وأنا لم أنتبه إلى ذلك. فلو كنت أعرف، لتأنقت في ملبسي واعتنيت بمظهري كلما خرجت إلى الشارع، فربما كانت تراقبني وأنا أعبر الطريق.

تساءلت ما الذي أحبته فيّ. عيناي اللوزيتان، أم عظام خديّ العالية؟ أعرف أنني أتمتع ببنية جيدة لأنني كنت أسمع إطراءات كثيرة في مقهى جاسم، وكانت عضلات ذراعي وصدري بارزة بسبب عملي في غسيل السيارات منذ خمس سنوات. وللمرة الأولى، سمحت لنفسي أن أتذكر كلمات الرجال عني في المقهى. «ناصر، إني مستعد لأن أعطي كلّ ما أملك لكي أحظى بجسمك الرشيق والمتناسق».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أخذت دوشاً آخر قبل أن أغادر غرفتي، وارتديت بدلة رياضة جديدة وقميصاً قطنياً أبيض، ورششت على نفسي قليلاً من العطر الذي أعطاني إياه جاسم. لكن شكوكي

القديمة عادت لتطفو ثانية. كيف يمكن لبضع كلمات رومانسية أن تؤثر فيّ؟ إن أي شخص في جدة يستطيع أن يكتب ما تكتبه لي. كم شخص بيننا يجلس محاطاً بالمشاعر؛ أليست المشاعر الحبيسة هي التي تصنع منا شعراء، حتى الأمّيين منّا؟

أخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وتذكّرت غضبي في الماضي لأنه لم تكن تتاح لي فرصة التسكع في الشارع لأنتظر فتاة من دون حجاب تمرّ وترميني بابتسامة مغرية؛ والشوق إلى رؤية معالم شفتي فتاة في قبلة بسيطة؛ والليالي المؤرقة التي أنتظر فيها مجرد لمسة إصبع، وأن يضغط صدرها على صدري، وأن يلتف جسدها حول جسدي، ونبضات قلبها تخفق على صدري.

أطبق صمت ثقيل على الشارع بسبب الشمس الحارقة. ثمة شيء يحدث في مكان بعيد، أمام البناية ذات الطوابق التسعة. استطعت أن أرى رجلاً يقف فوق غطاء ما بدا لي أنه سيارة عائلية كبيرة. توقّفت ونظرت بعيداً، أظلل عيني بيدي اتقاء لأشعة الشمس اللامعة. كان الرجل يملأ الجزء العلوي من السيارة بحقائب سفر. قلت لنفسي ها هي ذي أسرة أخرى سعيدة الحظ تغادر حي النزلة لقضاء العطلة.

كنت أعبر الشارع عندما سمعت أحداً ينادي اسمي. التفت ورأيت هلال، صديقي السوداني، يسير متكئاً على عكاز. كان يلف عمامته البيضاء الطويلة حول رأسه.

قال: «سلام ناصر. كيف حالك يا صديقي؟»

أجبته، «الحمد لله».

«تبدو أنيقاً وتفوح منك رائحة لطيفة يا صديقي، إلى أين أنت ذاهب؟ إلى لقاء فتاة؟» وانطلقت منه ضحكة هستيرية.

ابتسمت وصحت بصوت يعلو ضحكته، وقلت: «عزيزي هلال، أليست الحياة ثقيلة بما يكفي ولا حاجة لأن تلفّ سبعة أمتار من القماش حول رأسك؟»

توقّف عن الضحك فجأة. بصق قطعة التنباك الكبيرة من فمه، وسال قليل من لعابه الأصفر على ذقنه، مسحها بكمّ دشداشته. انحنى إلى الأمام وقال: «ناصر، لقد جئت لأنقل إليك خبراً جيداً. لكنك إن كنت تريد أن تهزأ بعمامتي فإني سأذهب».

«لا، لا تذهب. ما هو الخبر الجيد؟»

فقال: «خبر رائع في الحقيقة»، وبصق ثانية.

«هيا أخبرني إذن».

ببريق يتلألأ في عينيه، قال: «سأذهب إلى السودان لأحضر زوجتي بعد أن تمكنت من الحصول على تأشيرة لها».

عانقته وقبّلت خديه، وأخبرته عن مدى سعادتي من أجله.

قال: «نعم، كلّ الحمد لله والشكر لكفيلي. إنه رجل طيب للغاية. وبالإضافة إلى أنه منحني كفالته للحصول على التأشيرة، فقد دفع لي ثمن تذكرتها أيضاً».

كان كفيله رجلاً سعودياً مسناً يدعى جواد بن خالد، وكان قد عاش فقيراً قبل اكتشاف البترول في المملكة، وجمع ثروة ضخمة بعد أن أسّس شركة بناء. كان رجلاً سعودياً في غاية اللطف والكرم. ليس مثل كفيلي.

ولم يتوقف هلال عن التحدّث عن كرم جواد بن خالد. وعندما كان يتأهب للمغادرة، نقل إليّ خبراً آخر.

سألني: «هل تعرف هارون؟»

أجبت، «هناك عدد كبير من الأشخاص الذين يحملون اسم هارون في حي النزلة، أي واحد منهم تقصد؟»

«خادم كفيلك المبتسم».

«ماذا عنه؟»

«هرب إلى ألمانيا».

«ماذا؟ هارون؟» تساءلت كيف يستطيع شخص إريتري يحمل جواز سفر الأمم المتحدة أن يذهب إلى أوروبا. كنت أحمل جواز السفر نفسه، وقد حاولت أن استخدمه للهرب من جدة عندما كنت أعمل في مقهى جاسم، لكن جميع السفارات الأوروبية رفضت طلبي، وأخبرتني جميعها الشيء نفسه: بأنني غير مؤهّل لأنني أعيش الآن في بلاد آمنة ولا يوجد سبب يدعوهم إلى منحي لجوءاً. كما رفضوا طلبي بمنحي تأشيرة سائح وقالوا لي إنه عندما يُمنح أشخاص يحملون جواز سفر مثل جواز سفري تأشيرة، فإنهم يمزّقون جواز سفرهم في مرحاض الطائرة ولا يعودون مطلقاً.

وواصل هلال كلامه: «لقد جلب له أحد المهرّبين جواز سفر مزيفاً وتأشيرة. وقال إنه التقى به في المقهى الإريتري. هل تعرف أين هو؟»

«نعم، لكنني لم أذهب إليه مطلقاً. إني أخشى دائماً أن أعرف ماذا يحدث في إريتريا».

أطلق هلال تنهيدة، وربّت على كتفي، وقال: «أفهمُ. أفهمُ يا ناصر».

سادت فترة قصيرة من الصمت.

ثمّ سألته: «هلال، هل تعرف كم يتقاضى هارون راتباً؟»

فقال هلال: «لست متأكّداً، لكنه قال إنه مبلغ كبير. لم يكن أحد يعرف أن لديه خطة كهذه تختبئ وراء تلك الابتسامة الأبديّة. يا له من رجل. في جميع الأحوال، سآتي لأودعك قبل أن أسافر إلى بور سودان»، وبصق على الأرض ثانية. تصافحنا، واختفى في شارع جانبي.

قررت أن أجلس باتجاه الشارع، مستنداً بظهري إلى الشجرة، وعيناي تجوبان المكان من جهة إلى أخرى، منتظراً ظهور الفتاة. لكنني لم أتمكن من البقاء هادئاً في جلستي. يا ترى هل ستأتي اليوم؟ وإن جاءت، فهل ستقترب مني أكثر؟

لفحت الحرارة وجهي. كان شعاع الضوء البراق يشب من المرآة الجانبية لإحدى السيارات المركونة. مشيت نحو السيارة وانحنيت لألقي نظرة على وجهي في المرآة. كان العرق يتساقط على أنفي. تطلعت حولي لأجد شيئاً ـ أي شيء ـ يساعدني على تهوية وجهي. كان كلّ ما أملكه الرسالة الصفراء.

لكن بدلاً من أن تجلب لي الرسالة نسيماً منعشاً، جلبت لي مزيداً من التساؤلات. لعلي يجب أن أكتب إليها لأعبّر لها عن مدى إحساسي بالإثارة؟ لكن ماذا ينبغي لي أن أقول؟ إذ لم يسبق لي أن كتبت إلى فتاة من قبل. ما الذي يجب عليّ قوله؟ لعلي يجب أن أمتدح هيئتها؟

حاولت أن أتخيّل كيف تبدو تحت عباءتها. في البداية، حاولت أن أتخيّل كيف تبدو لو كانت سعودية. لكن بما أنني لم أر في حياتي وجه امرأة سعودية في الشارع أو في الصحف أو الكتب، أو في شاشة التلفزيون ـ فالنساء الوحيدات اللاتي يظهرن على التلفزيون هنّ من العجائز والمحجبات ـ أوقفت الفكرة بسرعة. ماذا لو كانت مصرية؟ تذكّرت بعض الممثلات المصريات اللاتي كنت قد رأيتهن في الأفلام، واستحضرت إلى ذاكرتي على الفور الممثلة المفضلة لديّ، بعينيها الموحيتين الجميلتين الواسعتين وابتسامتها الفاتنة المغرية.

ففي جدة يعيش أشخاص ينتمون إلى جنسيات لا تعد ولا تحصى، ويأتي عدد كبير من المهاجرين للعمل هنا، لذلك لم يكن من المجدي محاولة تخمين كيف تبدو، فهذا يتوقف على مسألة هل هي عربية أم أفريقية أم آسيوية.

وفجأة مزّقت صفّارات سيارة الشرطة السكون المخيم على الشارع.

وتلت سيارات الشرطة المدنية القافلة التي تقلّ كفيلي بدر بن عبد الله. وقد تعرفت على سيارات المرسيدس الأربع الرمادية من قصره. إن مجرد رؤيته، حتى بعد هذه السنوات منذ أن كنت في غرفة الجلوس في بيته وأنا في الخامسة عشرة من العمر، يلبك معدتي.

تذكّرت كيف أنه بعد أن أنهى أمره معي في ذلك اليوم، أخرجني خادمه هارون من البيت بسرعة. لم أتمكن من التوجه إلى الشرطة الدينية لأشتكي، بسبب ما حدث لإحدى خادمات زوجة الكفيل، المرأة الفلبينية التي كانت تقيم بالقرب من حيّنا.

فقد تم ترحيلها إلى الفلبين مع طفليها الصغيرين عندما أبلغت

الشرطة الدينية أنها تعرضت لاعتداء جنسي. كان ذلك قد حدث منذ سنة، عندما رأيتها هي وطفليها يُجَرُّون خارج بيتها بالقوة من قبل ثلاثة مطوّعين. كانت تصيح وتقول إنها ضحيّة اغتصاب ارتكبها بدر بن عبد الله. لكن أحد رجال الشرطة صفعها على وجهها، وصرخ فيها، «لا نريد أن تأتي عاهرات مثلك إلى هذا البلد المبارك».

«إنه شيء عادي»، همس جارنا السعودي الذي كان يقيم في الطابق الثاني، والذي كان يقف بالقرب مني، وأضاف، «إني متأكّد من أن الكفيل قد اختلق كذبة ضدها للشرطة الدينية ليخفي جريمته البشعة، وهاهم يرحّلونها الآن إلى بلدها».

«ألا يجب أن يجلب قانون الشريعة العدالة إلى هذا البلد؟» قلت محتجاً.

تنهّد وقال: «يا بني إن القانون لا يطبق إلا على الفقراء وعلى الأجانب، ولا يطبق على الأغنياء أو على أفراد العائلة المالكة».

ظللت واقفاً لمدة نصف ساعة قبل أن أتوجّه إلى المحل اليمني لأتناول شراباً بارداً. عندما عدت حاملاً علبة البيبسي، لم أستطع الانتظار لأروي عطشي، مع أنني كنت على وشك أن أصل إلى البقعة المظلّلة تحت شجرة النخيل. مشيت بخطوات وئيدة وفتحت العلبة.

نظرت إلى الوراء ورأيت امرأة تسرع نحوي. لا بد أنها هي. كنت واثقاً من ذلك. كادت تصطدم بي وهي تجري أمامي. ألقت برسالة باتجاهي قبل أن تعود لتجري من حيث أتت. وضعت العلبة على الأرض، التقطت الورقة، ورحت أجري خلفها. لم تنظر إلى الوراء

وهي تركض بجانب السيارات المركونة، وظلّها يتراقص على هياكل السيارات. توقّفت، فتحت باباً، واختفت داخل إحدى البنايات.

نظرتُ إلى الأعلى، وكان عليّ أن أخطو بضع خطوات إلى الوراء لأرى أين نحن. كنت أقف أمام البناية ذات الطوابق التسعة المعروفة. عبرت إلى الجانب الآخر من الطريق، وألقيت نظرة على نحو أفضل. نظرت إلى الورقة المطوية في يدي. كانت مكتوبة على ذات الورقة الصفراء التي كتبت عليها رسالتها السابقة، لكن هذه الرسالة كانت تبدو أطول.

ألصقت رسالتها على خزانتي ورحت أحدّق فيها من سريري. كانت مكتوبة بخط جميل ـ فقد كان كلّ حرف فيها يمنح حياة للحرف الذي يليه، وتعلقت الكلمات كلّها في الصفحة مثل الأزهار في جنائن بابل المعلقة.

اقتربت أكثر، ونفخت قليلاً على الرسالة، راجياً أن أحرّر الكلمات وأجعلها تخبرني عن سرّ الفتاة التي تكتبها ـ كيف كانت تبدو وهي تحني رأسها وتكتب كل حرف فيها؟ أغمضت عيني وتخيّلت أصابعها تتحرّك بقلمها من جانب الصفحة إلى الجانب الآخر، ومن سطر إلى سطر، وكيف كان خصرها الذي يحمله ردفاها المتينان، يتراقص مع كلماتها.

استويت واقفاً وقرأت الرسالة مرة أخرى:

حبيبي،

لقد استغرقت وقتاً طويلاً لكي أحشر الأفكار الكثيرة التي جمعتها عنك خلال الشهور الماضية في هذه الرسالة الصغيرة. لذلك أرجو أن تفهم إذا ما بدت لك بعض الكلمات عارية من المعنى.

عندما رأيتك في المرة الأولى، أحسست أن بذرة قد نبتت في وسط قلبي. ومنذ ذلك الحين، وفي كلّ مرّة كنت أراك في الشارع، كما لو أن قطرات صغيرة من المطر تسقي تلك البذرة. وها قد نمت البذرة الآن، وأصبحت زهرة، وتفتحت براعمها.

إني أعرض عليك حبّي. هل تقبله؟

ربما كنت من ذلك النوع من الرجال الذين يتمنون للمرأة التي تخطو خارج بيتها وحدها أن يكون مصيرها نار جهنم، ناهيك عن أن تسير في الشارع لتبحث عن رجل أحلامها حاملة عرض الحبّ في يديها. ربما كنت لا تؤمن بالحبّ ولا تقبل إلا رفقة مرتّبة بين الرجل والمرأة.

يبدو أن بحراً شاسعاً وغادراً من الحيرة يفصلنا. لكنني مستعدة لركوب هذا البحر الهائج إذا تمكنا، في نهاية الرحلة، من أن نلتقي في الجزيرة نفسها..

أرجو أن لا تكتب لي رداً. فهناك خطر كبير في أن يرتاب الناس فيّ عندما أنحني لالتقاطها في الشارع، ولا أريد أن أجازف بذلك.

سلام من القلب

جمال كلماتها جعلني أفكر بأن ثمة فرصة بأن تكون هي الفتاة التي أنتظرها طوال هذه السنوات التي أتذمر خلالها بأنني أعيش في بلد يحكمه الخوف، ويحكمه رجال يريدون أن يسلبوا بهجة الحياة. لكن ها هي فتاة تأتي إليّ لتعرض عليّ حبها. لماذا أتردّد؟ مم أخاف؟ أليست الحياة قصيرة؟ حياة خاوية مثل حياتي، ما الذي يمكن أن أخسره؟

في تلك الليلة، لم أستطع أن أضع لقمة في فمي ولم تغمض لي

عين. بعينين مغمضتين، رحت أمرر أصابعي فوق الكلمات في رسالتها الجميلة.

كانت صلاة العصر قد بدأت في المسجد، وكنت أسمع صوت الإمام الضرير المرتفع. أردت أن أخرج، لكنني لم أستطع لأن المطوّعين كانوا يجوبون الحيّ أثناء الصلاة بحثاً عن الرجال الذين لم يؤموا المسجد. لذلك اضطررت إلى البقاء في البيت حتى ينهي الإمام الصلاة. أخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً راجياً أن ينتهي بسرعة، وأن يقرأ آيات قرآنية أقصر. وعندما بدأ التكبير للمرة الرابعة والأخيرة لصلاة العصر، أدخلت المفتاح في قفل الباب، وأدرت المقبض. وعندما وصل إلى التسليم، منهياً الصلاة، اندفعت إلى خارج البيت، وتوجّهت إلى شجرة النخيل التي اعتدت على الجلوس تحتها.

وفجأة اكتظ الشارع بالرجال الذين خرجوا من المساجد وهم في طريق عودتهم إلى بيوتهم. إلا أن الشارع سرعان ما أصبح خاوياً، وعاد الصمت يغلفه مرة أخرى.

رأيت امرأة محجّبة تقترب مني.

نهضت.

أبطأت خطاي.

أردت أن أسير نحوها، لكن تلك مجازفة كبيرة. لذلك انتظرت.

أشارت إليّ بيدها واستدارت. مشيت نحوها.

على الفور استدارت نحو اليسار. أسرعت وراءها. عندما تبعتها عند حافة المنعطف، وصلنا إلى الدكان المشهور بالخيّاط الهندي البالغ الحساسية، الذي كان من عادته أن يصيح ويبصق في كلّ مرّة يعارضه

فيها أحد في زعمه بأنه مصمم شأن المصممين الذين يعيشون في ميلانو.

كانت الفتاة تسير إلى الأمام. انعطفت عند الزاوية ودخلت إلى الشارع الذي يعيدنا إلى حي النزلة. وعلى مسافة قصيرة من حي النزلة، التفتت وألقت نظرة سريعة باتجاهي. ألقت رسالة إلى الأرض وسارت ببطء. أسرعت والتقطتها. لم أتوقف عن ملاحقتها دون أن أتوقف لقراءتها. لا بد أنني كنت على مسافة قريبة منها، لأنها نظرت بسرعة إلى الوراء وأشارت بيدها المكسوة بقفاز إلى الرسالة. كانت تريدني أن أقرأ الرسالة.

حبيبي،

اقرأ هذه الرسالة بسرعة واتبعني من بعيد. عندما تسير ورائي، انظر إلى الأسفل وألق نظرة على حذائي. لقد اشتريته خصيصاً لنا. لقد طلبت من صديقتي المصرية أن تجلبه لي من القاهرة عندما رأيته في كتالوغ الأزياء. إنه حذاء فريد من نوعه، ولا توجد في حي النزلة امرأة أخرى تنتعل حذاء مثله. إنه سيميّزني عن النساء الأخريات في حي النزلة عندما أسير في الشارع، وعندها سيكون بوسعك أن تعرفني بسهولة.

إنك تتبعني، وهذا يعني إنك وافقت على اقتراحي. إن رحلتنا تبدأ الآن.

لم أعد أستطيع أن أبحث عنك في حي النزلة. إن إلقاء رسالتي في الشارع الموجود قبل الزقاق المسدود في نزلة البعدا أقل خطورة. سأعود إليك برسالة أخرى وسأبحث عنك هناك. لكنني لا أعرف متى،

لأن أيامي ليست ملكاً لي. سألقي برسائلي بالقرب من صندوق القمامة لكي تبدو كأنها قطعة من الفضلات، لكن فقط إذا لم يكن هناك أحد. أرجو أن تلتقطها بسرعة.

وأردت أن أقول أيضاً أنك أعجبتني كثيراً عندما ارتديت بنطلونك الزاهي اللون وقميصك المخطّط.

سلام من القلب.

رفعت بصري ورأيتها تستدير عائدة إلى حي النزلة. تبعتها ونظرت إلى قدميها. وعندما سارت أمامي، كان حذاؤها يبرز ويغيب عن بصري تحت عباءتها السوداء. كان لونه وردياً غامقاً مصنوعاً من الجلد الناعم، وكان بإمكاني أن أرى أن الجلد يحيط قدميها بارتياح، وهو ينثني بطراوة في كلّ خطوة تخطوها. ومن ورائها، كان الشيء الوحيد الذي استطعت أن أراه جيداً كعبيها المتوسطي الحجم اللذين يظهران من تحت عباءتها. وبغتة، أصبح المحيط في حي النزلة الذي كان يسوده اللونان الأبيض والأسود ملوّناً. كما لو كان طيران من طيور الفلامنغو الوردية قد جاءا من جزيرة استوائية بعيدة.

الجزء الرابع

الحذاء الوردي

لـم يعد بوسعي أن أنتظر قدوم اليوم التالي للذهاب إلى الزقاق المسدود في النزلة البعدا، وأنتظر تلك الفتاة الغامضة. كان قد مر أسبوع كامل على استلامي رسالتها الأولى.

من صندوق قديم أضعه تحت سريري، أخرجت سروالي وقميصي الخاصين، اللذين لم أكن قد ارتديتهما منذ فترة طويلة ـ إذ كنت اشتريتهما لارتدائهما في الحفلة التي أقامها هلال منذ أكثر من سنة احتفاء بعودته من السودان بعد زفافه. وعندما فتحت الصندوق هبّت رائحة عفن. غسلتهما وعلّقتهما خارج النافذة ليجفا.

ألقيت نظرة أخرى على الرسالة. خيّل إليّ أن الحبر يسيل من كلّ كلمة، وأن الكلمات تجري نحوي مثل موجة تغسل النوم من عينيّ.

بعد انتهاء أذان صلاة الصبح خرجت، وتذكرت فجأة أنّها لا تستطيع تحديد الوقت الذي تظهر فيه. فقد تخرج في أيّ وقت أثناء النهار. نهضت وأخرجت قنينة العطر من درج منضدتي. رفعت قميصي وأخذت أرشه بنفثات من العطر حتى كاد يتبلل. ارتشفت بعضاً منه أيضاً، لكي تفوح من كلماتي رائحة عطر إذا أتيحت لي فرصة التحدث إليها وهي ترمي الرسالة، وكأنها استوردت من باريس.

وفور انتهاء الصلاة، غادرت شقّتي مرتدياً بنطالي وقميصي المخطّط اللذين غسلتهما وكويتهما بعناية.

رحت أسير وعيناي متجهتان إلى أعلى بناية في المنطقة، البناية التي تقيم فيها. وعندما مررت من أمام البناية، راحت عيناي تتفحصان كل طابق من طوابقها التسعة، متسائلاً أين تقع نافذتها وفي أي غرفة تقف الآن، ربما كانت تقف أمام مرآتها تصفف شعرها، وتطابق بين تنورتها وبلوزتها، أو تطابق لون قرطيها بلون أحمر شفاهها. تخيّلتها تهبط الدرج والسابلة جميعهم يديرون رؤوسهم نحوها في اللحظة التي تطأ فيها قدماها أرض الشارع، من دون نقاب.

بعد أن تمشيت في حي النزلة لمدة خمس عشرة دقيقة تقريباً، واجتزت المسجد الكبير ومنزل أبي فيصل، انعطفت يساراً إلى شارع فرعي صغير. وفي ركن الشارع، كان يقف رجل فيلبيني قصير بالقرب من سيارة أجرة.

أخذت أغذّ الخطى. انعطفت إلى شارع آخر. خلّفت الشوارع المسفلتة ورائي ورحت أركل بحذائي الأحجار الصغيرة المتناثرة على الطريق الترابي. كان الشارع مليئاً بالبيوت ذات الطابق الواحد، وكان لبعض هذه البيوت جدران يصل طولها حتى الخصر تفصل البيت عن الشارع. دخلت شارعاً فرعياً آخر مليئاً بالتراب الأحمر.

ازداد الشارع ضيقاً، وعرفت أنني أقترب من الزقاق ذي النهاية المسدودة. وقفت وتطلعت حولي. مررت من أمام كومة قمامة تعج بالذباب، ولم تكد رائحة البخور القوية المتسربة من أحد البيوت القريبة تغطي على رائحة القمامة. ها هو، قلت لنفسي. هذا هو الزقاق الذي حدثتني عنه قبل النهاية المسدودة.

في هذا الزقاق تحوّلت إلى حبيب مترقب: رأسي مرفوع عالياً، فكّاي مطبقان، يداي في جيبي، وكتفاي مستويتان.

تناهى إليّ صوت شخص يعدّ الفطور في بيت قريب: كانت رائحة قهوة الصباح والبيض المقلي لذيذة. أخذت نفساً عميقاً عندما استندت إلى عمود ضوء الشارع منتظراً.

كانت الشمس قد بدأت تبزغ فوق سماء جدة، وتركت أشعتها بقعاً صفراً قاسية على طلاء الجدران الباهت. وسرعان ما بدأ العرق يتصبب مني. فككت أزرار قميصي حتى سرتي. قلت لنفسي: «لفترة وجيزة فقط». أمسكت الرسالة ورحت أهوّي نفسي بها.

لسنوات طويلة، دأبت على الالتزام بالتعليمات التي تقول إنه يتعين على الرجال أن يشيحوا بأنظارهم عن أيّ جزء من امرأة تمر في الطريق، وإنهم يجب ألا يلقوا نظرة ثانية بعد النظرة الأولى.

لكن بعد أن أرتني الفتاة حذاءها، أصبحت أمشي ورأسي مطرق بحثاً عن قدميها الورديتين. وبدأت ألاحظ الآن أنّه أصبح بإمكاني أن أتصوّر شكل سيقان النساء بالرغم من العباءات الفضفاضة التي يكتسين بها. فأما النساء اللاتي يمشين وأقدامهن متباعدة تباعداً أكبر من عرض أكتافهن بكثير، فهن إما حبالى أو أن لديهن أفخاذاً كبيرة. وأما المرأة التي تكون حركة مشيتها آلية ومتصلّبة ومرهقة، فهي تدل على أنها سيدة ذات عظمة ساق كبيرة، أو ربما كانت ذات كاحلين أو فخذين كبيرين، أو كلّ هذه الأشياء مجتمعة. أما القدمان المتباعدتان تباعداً ضيقاً فهما تدلان على أنها امرأة ذات ساقين قصيرتين. أما الخطوات السريعة، فتدل غالباً على امرأة ذات ساقين طويلتين نحيلتين. كانت مراقبة النساء ذوات السيقان الرفيعة مثيرة لأن الطاقة فيهن تدفع أقدامهن إلى عدو سريع. إن مراقبتهن وهن يتسابقن في حي النزلة أشبه بمراقبة السيارات وهي تتسابق في طريق سريع.

«انظر إلى الأقدام»، همست مستثاراً عندما رأيت الحذاء الوردي يطأ الزقاق ذا النهاية المسدودة. لكن حركاتها التالية أربكت نظريتي الجديدة. فما هي إلا لحظات، حتى تقدمت نحوي بقدمين ثقيلتين. قلت لنفسي: «لا بد أن ساقيها كبيرتان». لكن قبل أن أتمكن من استيعاب ما كنت أفكّر به، تغيرت الحركة؛ فقد تباعدت قدماها تباعداً واسعاً. «لا، لا يمكن أن تكون حبلى»، فقد ضاقت المسافة بين قدميها، لكنني كنت متأكّداً من أن ذلك لم يكن لأن ساقيها قصيرتان. لكنني لاحظت بعد ذلك أنها كانت تمشي بين حفرتين، فكان عليها أن تسير عبر الحيز الضيق. وبعد ذلك، اكتسبت قدماها مزيداً من الزخم، بل إنها كانت تكاد تعدو بسرعة. وقلت لنفسي لكن ذلك ليس لأن ساقيها نحيفتان، بل لأنها رأتني أخيراً.

بدأت تغذّ الخطى حتى تجاوزتني. التقطت الرسالة التي ألقتها عند قدمي. تمنّيت أن تتوقّف لثانية واحدة فقط، حتى لتحيّيني. لكنني قلت لا بدّ أنها متوترة. وقلت لنفسي، «إن المجازفة بإلقاء رسالة لي تحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة. ويجب أن أكون سعيداً بذلك، وأن لا أطمع في المزيد».

حبيبي،

كان من دواعي التهذيب طبعاً أن أبدأ رسالتي بسؤالك عن يومك وصحتك، وهل أنت في صحة جيدة وهل تسير حياتك سيراً جيداً. لكن بما أنه يتعذر عليّ أن أعرف إجاباتك في هذه الظروف، فلن أزعجك بمثل هذه الشكليات، بل يجب أن تستمع إلى بعض الأخبار المتفرقة، مثل النشرة المسائية المبكّرة.

ولو كان بمقدوري لأعطيتك رقم هاتفي. لكن أبي سمع من أصدقائه قصصاً عن بعض الفتيات اللاتي يجرين مكالمات هاتفية مع فتيان عندما يكون رجال العائلة خارج البيت، ولهذا السبب فصل الهاتف عن البيت. لذلك أريدك أن تقرأ رسالتي كما لو كنت أقول لك هذه الكلمات على الهاتف، أو أقولها لك وجهاً لوجه.

عزيزي سأعود إلى هذا المكان بعد يومين برسالة أخرى. وفي مساء هذا اليوم سأذهب إلى مكة المكرمة مع والديّ لمدة يومين لأداء العمرة وزيارة بيت أحد أصدقاء أبي.

سلام من القلب

بعد يومين عدت إلى الزقاق قبل صلاة العصر بقليل. انعطفت إلى الطريق الذي أقف فيه. قلت لنفسي إن الوسيلة الوحيدة لاكتشاف شكل ساقيها هو أن أجلب معولاً وأسوّي به الشارع.

وقالت في رسالتها المكتوبة بخط أنيق جعلني أقول لا بدّ أنها درست الخطّ في بغداد، إن صديقتها هي التي لاحظتني لأول مرة.

كنّا عائدتين من الكليّة عندما رأتك جالساً تحت الشجرة. لكزتني وقالت لي انظري إلى هذا الشاب. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أتمالك نفسي من عدم النظر إليك.

حبيبي، لقد رأيتك في عدة حالات: تمشي، وترقص في الشارع مع أصدقائك، تلعب كرة القدم، وتسقي شجرتك. إني أحتفظ بألبوم يضم صوراً لك في مخيلتي.

وبالمناسبة، بما أن يوم غد هو يوم الجمعة، أتمنّى لك عطلة جيدة، وأرجو ألا يفسد الإمام الضرير يومك بخطبته.

عندما سقيت شجرة النخيل في عصر ذلك اليوم، رحت أدندن بأغنية كانت كلماتها تتراقص في رأسي مثل رقصة الدراويش.

وفي اليوم التالي، صحوت عند بزوغ الفجر وظللت طوال الصباح مستلقياً في سريري. دهشت كيف يمرّ الوقت بسرعة كبيرة عندما يفكّر الرجل في امرأة.

كانت رائحة غرفتي وكأن امرأة كانت تزورها، إذ بدأت رائحة يديها تنبعث من الرسائل ببطء وتملأ غرفة نومي.

كنت لا أزال أفكّر برسائلها الرائعة وبحذائها الوردي الجميل، عندما سمعت آذان صلاة العصر في يوم الجمعة ذاك.

كان صدى وقع الخطوات في الشارع يتردّد داخل غرفتي. أزحت الستائر ونظرت من النافذة إلى الطابق الأول. بدا لي أن جميع الرجال في حي النزلة قد خرجوا إلى الشارع للذهاب إلى المسجد. وكان الرجال يتدفقون من الرصيف إلى الشارع. وكان معظمهم يتحادثون معاً، لكن كان هناك عدد منهم يسير بصمت وهم ينظرون أمامهم. وكانت أشعة الشمس تنعكس بقوة على أثوابهم البيضاء. أما النساء، فقد كنّ داخل بيوتهن، يهيئن طعام الغداء خلال غياب الرجال عن البيت، وكن يصلّين عادة في البيت، لأنه لا يُطلب منهن الصلاة في المسجد.

وعندما دخلت الجموع إلى المسجد، وبدأ الشارع يفرغ شيئاً فشيئاً، رأيت الإمام الضرير يقوده رجل طويل القامة ذو لحية سوداء طويلة. لا بد أن هذا هو باسل الذي ذكره اليماني في تلك الليلة عندما كنا في قصر السرور.

كنت قد توقّفت عن الذهاب إلى المسجد عندما بلغت الرابعة عشرة

من العمر. كنّا قد التقينا جميعاً لسماع خطبة الجمعة التي سيلقيها الإمام الضرير. وقف أعلى المنبر، مرتدياً ثوباً أبيض لامعاً وعلى رأسه غترة، وبدأ كلامه بحمد الله والثناء على رسوله، ثمّ أعلن أن خطبة اليوم تدور حول «المتع السوقية»، وبدأ صوته يعلو أكثر فأكثر.

«أبنائي، عباد الله، إلى متى ستنسونه، تنسون الله؟ إلى متى تتجاهلون بركاته وتواصلون الإساءة إلى رحمته؟ لماذا تدأبون بإصرار على ارتكاب الآثام، يوماً بعد يوم، ساعة بعد ساعة، ثانية بعد ثانية؟ وبينما تزداد ذنوبكم، لتشكل جبالاً ذاتَ قمم عالية فوق أرض الله، بينما تسوُد قلوبكم بآثامكم اليومية، لا تتركون مكاناً له في قلوبكم، بينما أضلّ سعيكم وراء المتع المبتذلة عيونكم عن رؤية الصراط المستقيم، عن الله، وعن رسالة رسوله على هذه الأرض؛ وبينما أنتم تفعلون كلّ ذلك بهذا الاستخفاف بالخالق، دعوني أذكّركم بهذا يا أمة محمد: النار، النار، النار. يا عباد الله، إن أجسادكم ستتمزق، وستنخلع قلوبكم من صدوركم، وستتحول عظامكم إلى رماد بسبب لهيب النار. إنه المنتقم الجبار. احذروا شدة عقابه، عندما يقلب الأرض رأساً على عقب، ويلقي بالآثمين في نار جهنم الواحد تلو الآخر. إن الله عز وجل لن ينسى الذين يسيئون إلى رسالته على هذه الأرض. إنه سيصليكم بناره، بناره، بناره، منذ اللحظة التي تموتون فيها وحتى يوم الحساب».

تحرك داخل ثوبه، وألقى بأحد أطراف غترته فوق كتفه، وأخذ نفساً عميقاً.

ثم تابع قوله: «يا عباد الله، اسمعوا جيداً هذه القصّة. فقد مات

رجل مسلم فاسق فجأة، ودفنته أسرته الحزينة حسب الشعائر الإسلامية، لكن لم تكن تلك نهايته. فقد كانت المقبرة قريبة من بيت العائلة، وكانوا في كلّ ليلة يسمعون صراخ ابنهم، يصيح، يعدّد الآثام التي ارتكبها في الماضي. وكان يصرخ «يا الله اغفر لي. يا الله، كنت آثماً، كان يجب أن أسير على الصراط المستقيم. يا الله، ما كان يجب أن أرتكب إثماً. لم يكن يجوز لي أن أشرب كحولاً أو أدخّن سجائر. يا الله، كان يجب أن ألبّي نداءك وأصلّي لك، أيها العظيم»، لكن تلك الصيحات كانت مثل دموع التماسيح، فالندم بعد تذكّر ما ارتكب المرء من أعمال لا يجدي نفعاً مع الله تعالى. وهكذا هبط ملاك عذاب القبر من ملكوت الله لينفذ حكم الله بهذا الرجل الأحمق. ومع كلّ كلمة كان ينطقها هذا الرجل الفاسق، كان الملاك بارك الله فيه يغرز رمحه الحادّ في صدر هذا المرتد. ومرة بعد أخرى، كان يدفع سلاحه المبارك في قلب هذا الرجل الآثم بالقوة التي منحه إياها الله».

وبدأ الإمام يبكي الآن بحرقة دينية، وراح بعض الرجال الذي يستمعون إليه يبكون أيضاً.

وفجأة تذكّرت خطبه المليئة بمشاعر الكراهية لليهود والشيعة والمسلمين الصوفيين والهندوس والمسيحيين. وتذكّرت مئات الخطب التي كان يمطرنا بها ويحشو بها رؤوسنا بأن المرأة كائن ضعيف وأدنى مرتبة من الرجل.

ألمّ بي صداع شديد. أحسست كأن رأسي على وشك أن ينفجر. لم أعد أرغب في الذهاب إلى هناك. لم يعد بمقدوري أن أجلس وأغمض عيني وأتظاهر بأنني لا أسمع ما يقول. لم يعد بإمكاني أن

أسمع صوته الذي يغمر أذنيّ، مسمّماً قلبي. لم أكن أريد أن أكره أحداً، لم أعد أريد أن يجعلني الإمام أخاف الله أكثر من محبتي له. وتذكّرت ما كان يقوله إمامنا الإريتري في مخيّم اللاجئين: «إن الله رؤوف رحيم. تذكروا دائماً الله هو المحبة». لم أعد أريد أن أخون أمّي القوية ـ أروع شخص في العالم ضحّت بحياتها من أجل أطفالها ـ لأن تكون في مكان هذا الرجل، رجل ينشر الحقد والأكاذيب عنها لمجرد أنها امرأة.

نهضت وغادرت.

عندما عاد خالي من المسجد، نزع حزامه وضربني لأنني تركت الصلاة في منتصفها. وحسب ما قاله، لم يكن الإمام الضرير مخطئاً، وكان كلما اشتد ضربه لي، كنت أتذكّر أمّي وسميرة، وكنت أعرف الألم الناجم عن جلداته سيتلاشى عندما أفكّر بحبّهما. قررت ألا أعود إلى المسجد.

عندما استأجرت شقّتي بعد سنوات، قرّرت أن أبقى في غرفتي عندما أكون في إجازة، وحتى أستطيع أن أعود إلى بلدي، لكي لا أضطر إلى سماع كلمات مسمومة منه أو من آخرين. لم يكن لديّ جهاز تلفزيون، لذلك لم يكن بمقدوري أن أسمع ما يقولونه، لكن كان عندي جهاز تسجيل بمكبر صوت. وعندما كان الإمام الضرير يلقي خطبة الجمعة، كنت أغلق نوافذ شقتي، وأرفع صوت الموسيقى بأعلى ما يمكنني لأغطي على الصوت المنبعث من مكبرات صوت المسجد. وعندما كنت أمشي في الشارع، أو أزاول عملي، كنت أخفض رأسي وكأنني لا أعيش هناك. ولو كان هناك مكان وزمان أريد أن أكون فيهما أصمّ وأعمى، لكان هذا هو المكان والزمان.

في عصر يوم الجمعة ذاك، تمكنت من حجب صوت الإمام الهادر عبر مكّبرات الصوت ومنعه من التسلل إلى غرفتي. وعندما أخذت أداعب رسائل الفتاة، فكّرت في ما سأقوله لها لو أتيحت لي الفرصة وحصلت على بضع دقائق للتكلم معها.

كان الحذاء الوردي الشيء الوحيد الذي كان باستطاعتي أن أراه منها والذي جعلها تبدو متميزة في حي النزلة. وكلما كنت أرى حذاءها، كنت ألاحظ فيه تفصيلاً جديداً. فقد كان حذاء مدبباً، وطرفه مرفوعاً قليلاً إلى الأعلى. وكان مزخرفاً بلآلئ صغيرة فضية اللون على كلا الجانبين. وعندما كانت تمشي، كنت أحياناً أرى النعل، الذي كان أسود. في البداية، كان يلمع عندما اشترته لها صديقتها، لكن شوارع حي النزلة سرعان ما جعلته قاسياً ووسخاً. لكنني كنت أخشى أن يسودّ جانبا حذائها، بعد أن تمشي فوق الأرض التي يكسوها التراب في حي النزلة. لكن ذلك لم يحصل، لأن حذاءها ظل متألقاً كأنه سيظل كذلك إلى الأبد.

كان لون حذائها الوردي يتباين مع لون عباءتها السوداء، ولون التراب المائل إلى الحمرة في شارع النزلة البعدا، والبيوت البيضاء في الشارع. ولولاه لفقدتها في عالم الظلال الداكنة.

في صباح يوم السبت، كان من المفترض عليّ أن أعود إلى عملي، لكنني لم أستطع أن أتخلى بهذه السرعة عن الشيء الذي بدأ كخيال لكنه أصبح يحمل الآن وعداً بالحبّ. كان عليّ أن أكون في الشارع الآن للقاء الفتاة. لذلك خابرت رئيسي في العمل لأخبره أنني لن أتمكن من استئناف العمل لأنني لا أزال أشعر بتوعك صحتي، وأحتاج إلى قليل من الوقت كي أتماثل للشفاء.

استشاط رئيسي في العمل غضباً، وقال: «يجب أن تأتي. لا تدّعِ المرض».

سرعان ما فقدت أعصابي. ربما لأنني أحسست أنه يستغلّني، فقد كنت مجدّاً في عملي وأعمل ساعات طويلة خلال تلك السنوات، ولم أتذمر قط. وكان يقول: «ناصر، ليس لديك أسرة تلجأ إليها، وعندي طفلان. أرجوك اشتغل ساعات أطول وسيكافئك الله إن شاء الله». وكنت أعمل حتى ساعة متأخرة لأساعده. وفي السنتين الماضيتين، لم أكن أقطع فترة عطلتي لأنني كنت أملّ البقاء وحدي في البيت. صرخت قائلاً: «ألا تتذكّر؟ عندما عدت من عطلتي في وقت مبكر ولم تدفع لي مبلغاً إضافياً».

لاذ بالصمت.

«محمد، أرجو أن تمنحني أسبوعاً آخر. أرجوك؟» لم يقل شيئاً.

كنت متهيئاً للقول إنني أريد أن أستقيل من العمل وإنه يستطيع أن يبحث عن عامل آخر وفيّ مثلي عندما قال: «موافق، لكننا سنتحدّث عن الأجر عندما تعود».

وقال: «شكراً يا محمد. بارك الله عملك».

في عصر ذلك اليوم، أدخلت الفتاة البهجة إلى نفسي برسالة جميلة.

رأيتها قادمة، وتبعتُ بعينيّ حذاءها الوردي. استمتعت برؤيتها وهي تتهادى فوق الأرض المتعرجة، مثل لاعب سيرك يسير فوق حبل مشدود.

ألقت الرسالة بالقرب من حاوية القمامة، كما دأبت على أن تفعل. ركضت والتقطت الكنز.

حكت لي قصّة كانت قد سمعتها في الكليّة. فقبل بضعة أسابيع من اقتراب العطلة الصيفية، طافت المشرفة على الفصول الدراسية لتنقل خبراً يقول: لقد اعتقل المطوّعون البارحة فتى يضع نظارات شمسية كان يقف في الشارع المقابل للكليّة. واتُّهم الفتى بأنه يضع نظارات شمسية اشتراها من أمريكا. وأبلغت الشرطة الدينية المشرفة أن الفتى اعترف بأن للنظارة عدسات خاصّة تمكّنه من رؤية الطالبات تحت عباءاتهن وثيابهن. وأقنعها المطوّعون بأن «الأمريكيين الأشرار قادرون على عمل أي شيء».

حبيبي، لقد جعلني ذلك أدرك ما أعظم لو كانت توجد حقاً مثل هذه النظارات. عندها تستطيع أن تضعها ويمكنني أن أتمشى جيئة وذهابا أمامك.

أخذت أضحك وأنا عائد إلى البيت.

في صباح يوم الأحد، ذهبت إلى سوق الحراج لشراء سروال جديد. كنت أريد أن أري الفتاة ذات الحذاء الوردي أنني أبذل جهداً خاصاً كرمى لها. وسوق الحراج هو أكبر سوق في جدة، وهو المكان الذي يمكنك أن تجد فيه كل ما تطلبه.

وفي نهاية السوق، حيث يبيع محل «منسوجات الحراج» أقمشة قطنية وكتانية، وجدت سروالاً أسود جيداً، مصنوعاً من الصوف الإيطالي الخفيف، ذا جيوب جانبية عميقة، وساقين مستقيمتين ثمنه عشرون ريالاً فقط.

عندما عدت إلى موقف الحافلات، التقيت إسماعيل، ميكانيكي الدراجات النارية. وكان لديه محل قريب من حي النزلة يبيع قطع غيار للدراجات النارية.

تبادلنا الحديث لبضع دقائق. قال إنه يصلح حالياً دراجة يحيى النارية.

قلت له: «لم أكن أعرف أنها معطلة».

«لا، ليست معطلة. إنه يريد أن استبدل المقعد القديم بآخر جديد. قال إنه يريده أن يكون مريحاً بقدر الإمكان لابنه».

ضحكنا.

قلت له: «خذ وقتك، فلن يعود حتى منتصف أيلول (سبتمبر)».

هزّ رأسه، وقال: «أعرف. لكنه يريد مقعداً خاصاً من الجلد مصنوعاً باليد. إنه عمل شاقّ. لا أريد أن أزعج ذلك الكركدن، أليس كذلك؟»

عندما عدت إلى البيت من سوق الحراج، أدركت أنني بدأت أتأخر. غيّرت ثيابي وارتديت سروالي الجديد بسرعة وخرجت إلى الشارع. خدش البنطلون ساقي، لكنه جعلني أشعر كأنني رجل ذاهب للقاء فتاته. أحسست بطاقة كبيرة في داخلي.

عندما وصلت إلى المسجد الكبير وتطلعت حولي في الشارع، رأيت وميضاً وردياً.

عندما هبط نور الشمس على حذائها، رأيت اللون يغمر حي النزلة، وأصبح كلّ شيء يبدو مثل ظل وردة.

أبطأت خطواتي ورحت أمشي على وقع خطواتها. رأتني هي أيضاً. واصلت النظر إلى حذائها. أصبح بإمكاني الآن أن أخمّن شكل ساقيها من الطريقة التي تمشي فيها، لكنني لم أجرؤ على أن أثق بذلك كثيراً.

أغمضت عيني وتخيّلت أننا كنّا نتمشّى على الشاطئ، كما يمشي عاشقان على رصيف الكورنيش، يداً بيد.

عندما وصلنا إلى ناصية الشارع حيث أنعطف يساراً للوصول إلى شارع النزلة البعدا، توقّفت، لكن الفتاة واصلت سيرها، تسحبني معها.

بدأت تسير بخطوات بطيئة الآن، وكأنها تريد أن تطيل اللحظة. سرنا على خط متواز ـ هي على رصيف، وأنا على الجانب المقابل ـ طوال الطريق إلى شارع النزلة والعودة منه.

في ذلك اليوم، لم تلق رسالة، لكن السير في الشارع نفسه معها، جنباً إلى جنب، وبنفس الخطوة البطيئة المفعمة بالحب منحني فرصة أكبر للتفكير عندما وصلت إلى البيت.

في عصر اليوم التالي، وكان آخر يوم من شهر تموز (يوليه) بعد أسبوع من إلقاء رسالتها الأولى. ألقت لي رسالة جديدة تقول:

البارحة، عندما كنا نسير جنباً إلى جنب، أنت في جانب من الطريق، وأنا في الجانب الآخر، تمنّيت أن يقع زلزال مفاجئ ويحدث فوهة في الشارع العريض الذي يفصلنا وعندما يجدنا المطوّعون يمسك أحدنا بيد الآخر، نقول لهم: «هذه مشيئة الله عندما أراد أن يهزّ مملكته». لكنني أقسمت عندئذ بأن يضمني حبيبي بين ذراعيه من دون أن تحدث معجزة كهذه. أقسم لك بذلك.

كانت كلماتها جميلة لو أنها تحققت، وأقنعت نفسي بأنه لا يمكن أن تكتب مثل هذه الكلمات إلا امرأة. بالنسبة لي كانت مسألة إيمان بأنه توجد امرأة تحت تلك العباءة. فمن الممكن أن تكون رجلاً يرتدي حجاباً مدّعياً أنه امرأة. لا أستطيع أن أتأكّد من ذلك، فلا يوجد شيء يثبت أنها فتاة حقيقية إلا هذه الكلمات.

كان هذا النوع من الحبّ يدفعني أحياناً إلى الجنون. عندما كنت أجلس على سريري ممسكاً برسالتها، وعندما بدأت أتخيّل الصوت القابع وراء هذه الكلمات، ولون قدميها في الحذاء الوردي، وشكل نهديها، وردفيها، ورائحة بشرتها، وكلّ شيء يجعلها تبدو امرأة، كانت تتملكني رغبة جامحة في أن ألمسها. وكانت الرغبة في رؤية خصلة من شعرها تستنزف نهاري وليلي. لكن كلّ ما كان يمكنني أن أفعله لأخفف من الإحباط الذي يمزّقني من الداخل هو أن أعيد قراءة رسائلها المرة تلو الأخرى، لأنه لا يمكن أن يكتب مثل هذه الكلمات إلا امرأة.

عاد جاسم من رحلته إلى باريس في أول يوم من الشهر الجديد.

ذهبت لزيارته في ذلك المساء. كان يبدو أنحف، لكنه أقوى. كاد يرفعني عن الأرض عندما عانقني.

عندما ذهبنا إلى غرفته وجلسنا على سريره، قال: «كنت قلقاً عليك. لا بدّ أنك كنت تشعر بالملل».

لم تتح لي فرصة أستطيع أن أخبره فيها بأنني أعيش في أكثر الفترات إثارة في حياتي، لأن ذلك ينطوي على خطورة كبيرة. لذلك قلت بحزم: «كنت أقرأ كثيراً».

«جيد. جيد»، قال، واضعاً قدماً فوق حقيبته.

سألته: «لماذا لم تفرغ حقيبتك بعد؟»

فقال: «إنك متلهف للحصول على هديتك».

«لا. لأنك تفتح حقائبك بسرعة في العادة».

«حسناً يا عزيزي، سأسافر ثانية بعد خمسة أيام»، قال متنهداً.

«لماذا؟»

وقف وتناول علبة سجائر من فوق جهاز التلفزيون، وعاد وجلس على السرير. أشعل سيجارة ورمى العلبة إليّ. كانت الأحرف على العلبة مكتوبة بلغة أجنبية. ظننت أنها بالفرنسية.

سألني: «هل تريد أن تعرف إلى أين سأذهب؟»

انحنى قليلاً وأخرج تذكرة طيران من حقيبته. وضعها على حضني، وقال: «ها هي. إلق نظرة عليها».

سألته: «أأنت ذاهب إلى روما؟»

«نعم، ثم سنذهب إلى لندن، ثم إلى مدريد، ثم إلى واشنطن العاصمة».

«أنت ومن ستذهب؟» سألته.

«هل أصبحت تغار الآن؟» ضحك وأضاف، «لا تقلق، إني ذاهب مع وكيلي وحاشيته. هذه المرة سنذهب لمدة شهر كامل. سنعود في أول يوم من أيلول (سبتمبر). لكن لأنني أعرف هذا الكفيل جيداً فلن أفاجأ إن مكثنا مدة أطول. أتذكر منذ سنتين عندما وقع في غرام راقصة تعرّ في جنيف؟ جعلنا نمكث معه ثلاثة أشهر إلى أن خبا حبه لها؟»

أطفأ سيجارته، وأمسك بيدي، وقال: «سأشتاق إليك إذا حدث ذلك مرة أخرى. لأكون صادقاً معك، فقد تعبت ولا أريد أن أذهب، لكنك تعرف أنني أكاد لا أستطيع أن أرفض طلبه. إنه يحبّ رفقتي ويساعدني على الاستمرار في عملي. لكنني محظوظ بأنه يوجد لدي مساعد يقوم بإدارة مقهاي. وفي جميع الأحوال، يحرص الأمير على أن تعيش حاشيته وكأنهم من أفراد العائلة المالكة».

كان السيد هادئ قد أخبرني أنه عندما جاء جاسم إلى السعودية كان له كفيل آخر، رجل سعودي يملك مطعمين في شمال جدة. لكن جاسم صادق رشيد بعد ذلك، وأوضح لي السيد هادئ، «كان رشيد المساعد الشخصي لإحدى الشخصيات ذات النفوذ الكبير في جدة، وعرّف رشيد جاسم على كفيله الجديد».

لكن السيد هادئ قال إن أحداً لا يعرف اسم كفيله أو أيّ شيء عنه سوى أنه رجل صاحب نفوذ كبير، وأضاف السيد هادئ قائلاً: «إن كفيله لا يريد أن يُعرف اسمه في مقهى كهذا».

حاولت أن أعرف المزيد عن هذا الكفيل من جاسم، وسألته: «إذاً متى ستقول لي من هو كفيلك؟»

قرّب وجهه مني وقال: «لا يمكن البوح ببعض الأشياء يا عزيزي. كم مرة قلت لك ذلك؟»

عندما وقفت لأغادر، أعطاني جاسم هديتي. كانت رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح.

كان هلال قد أخبرني عن هذه الرواية. يبدو أنه كتاب مثير للجدل بين الروايات الممنوعة في المملكة لأنها تحتوي على مشاهد جنسية.

«يا إلهي، هذا رائع. كيف يمكنني أن أشكرك؟»

أمسك جاسم يدي وقال: «لماذا لا تمكث هنا هذه الليلة؟ عندي أشياء كثيرة أريد أن أخبرك عنها».

«لا أستطيع. عندي أشياء يجب أن أقوم بها».

«امكث الليلة فقط. إني أشعر بالوحدة».

قلت: «لا أستطيع».

أفلت يدي، وقال: «حسناً، حسناً، إذهب».

باغتتني رسالتها التالية تماماً، وزادتني قرباً منها.

في ضحى الرابع من شهر آب (أغسطس) كنت أنتظر في شارع النزلة البعدا ظهور الحذاء الوردي، أتصفّح جريدة. وكما جرت العادة، فإن معظم المقالات في جريدة عكاظ مخصصة للملك فهد بن عبد العزيز، وأفراد العائلة المالكة الآخرين. وكانت هناك صور للملك وهو يفتتح مستشفى جديداً، ويزور معالم بارزة في بقاع مختلفة من البلد. وكان كل شيء جديد يُفتتح باسمه. وكان صديقي السعودي هاني، قد قال لي إن هذا شيء سيء حقاً: «إني جاد في ما أقول. فهذا الملك يحب نفسه كثيراً. ألم تسمع الأخبار ليلة البارحة؟»

سألت: «ماذا؟»

«سيطلق على دوري كرة القدم اسم الملك وسيطلق على كأس الدوري اسم نائبه، عبد الله بن عبد العزيز». هزّ رأسه، وقال: «أخشى أن يأتي يوم يصرّ الملك فيه على أن نبدّل جميعنا أسماءنا لتصبح على اسمه أيضاً».

رحت أذرع الشارع ذهاباً وإياباً، وأنا أقرأ جريدة عكاظ. عندما انتهيت من قراءتها، مددتها على الأرض وجلست عليها. وفي الطرف الآخر، رأيت فتى واقفاً على السطح يحدّق بي، فأخذت أنظر إليه. ظل الفتى الواقف على حافة السطح يرمقني. وعندما سمعت صوت خطوات تقترب، التفتّ ورأيت الفتاة ذات الحذاء الوردي قادمة من ناصية الشارع. رفعت عينيّ إلى الفتى، ثم هبطتا إلى الحذاء الوردي، قبل أن

تعودا إلى الفتى، وهمهمت قائلاً له: «أرجوك اذهب»، ونهضت واقفاً. أردت أن أصرخ في الفتاة بأن لا ترمي رسالتها، لكنها مضت مسرعة، وألقت رسالة جديدة بالقرب من صندوق القمامة. نظرت إلى السطح وبدأ الصبي يخطو إلى الوراء. فتح سجادة صلاة وبدأ يصلي.

التقطت الرسالة بسرعة وهرعت إلى البيت حيث بدأت أقرأ كلماتها بحماسة شديدة.

قبل عدة سنوات، كان لدينا جهاز فيديو وهوائي. لكن أبي تملكته بعد ذلك أزمة ضمير وسأل الإمام الضرير هل اقتناء هذه الأشياء حلالٌ أم حرام. وأعلن الإمام أنها حرام، وأخذ يحدّثه عن العقاب الذي سينزله الله بمن يشاهد التلفزيون ويستمع إلى الموسيقى. وهكذا عاد أبي إلى البيت من المسجد وهو يرتعد، وحطّم كلّ شيء. حتى أنه دخل إلى غرفتي وانتزع جميع الصور، ومزّق كلّ صوري لأنها حرام. لذلك لم يعد لديّ صورة يمكنني أن أقدمها لك مع رسالتي، لكن يا حبيبي، إن كنت أجيد شيئاً فهو الرسم، وأعترف لك: فقد رسمت صورة صغيرة لك تشبه تماماً صورة حقيقية لوجهك. لقد وضعتها داخل حمالة صدري بين نهدي. أعدك بأنها ستظل ملتصقة دائماً بصدري مثل شامة أبدية، إلى أن يحين الوقت لأستبدلها بشخصك الحقيقي.

عندما قرأت عن صورتي التي رسمتها وعرفت المكان الذي تضعها فيه، كاد يضيق صدري. فقد بدا لي وكأن كياني كلّه قد زرع في تلك الصورة القابعة في ذلك المكان السري بين نهديها. سأكون أول من يشمّ أنفاسها في الصباح، أول من يستحم في عرقها، وأول من يرى رموشها تسقط مثل ستائر كشميرية متلألئة في نهاية يوم آخر في هذا العالم: عالم

حزين تنتصر فيه أحلام اليقظة على الحقيقة، وتتحول فيه الكلمات الصريحة إلى صمت، وتحلّ الإشارات محل أصواتها؛ مكان يجب فيه على العاشق أن يصبح هارباً ويختبئ في بشرة امرأة قد لا يلتقي بها أبداً.

في صباح يوم السبت، استيقظت باكراً. فتحت نافذتي وغمر ضوء النهار غرفتي، وتسرب إليها هواء نقي، وصوت زقزقة العصافير. عندما مددت ذراعي، طبعت الشمس بقعاً لامعة على جلدي، وأثارت فيّ كلّ رغبات الليلة السابقة وآمالها.

وفي حوالي السابعة صباحاً، توجهت إلى العمل. كنت قد قررت أن أعمل حتى ساعة متقدمة من الصباح، ثمّ أتوجه إلى شارع النزلة البعدا، وأجلب رسالتها وأعود.

وافق رئيسي في العمل على مضض، وقال: «سأسمح لك أن تفعل ذلك اليوم فقط. إني سعيد الآن لأنك عدت. يبدو أنك قادر على غسل جميع السيارات في حي النزلة».

في الساعة العاشرة صباحاً، عدت إلى البيت، وخلعت بدلة العمل، وأخذت حماماً سريعاً، وارتديت سروالي وقميصي، وتوجهت إلى شارع النزلة البعدا. وفي الساعة العاشرة والنصف، كنت هناك، وبينما كنت واقفاً بجانب حاوية القمامة، رأيت امرأة تدلف إلى الشارع. نظرت إلى حذائها، لكنه كان أسود اللون.

كانت الفتاة تأتي عادة إلى شارع النزلة البعدا بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة. وها قد حلّ منتصف النهار، ولم تأت. وتبين لي أن جميع النساء اللاتي يسرن في الشارع يحملن أملاً كاذباً. وفي حوالي

الساعة الثانية عشرة والنصف، شعرت بالإنهاك تحت الشمس المحرقة. أردت أن أذهب وأشتري ماء، لكن أقرب متجر كان يبعد حوالي عشر دقائق سيراً على الأقدام. ماذا لو جاءت وراحت تبحث عني؟ كنت أعرف أنه يتوجّب عليّ أن أعود إلى العمل، لكنني قررت ألاّ أذهب إلى أيّ مكان حتى تأتي.

كانت شوارع جدة غائمة وحارة: وكانت رسالتها الأخيرة التي أمسكها بيدي هي التي أبقتني واقفاً هناك. جففت العرق عن وجهي، وبينما رحت أمدد ساقيّ تناهى إليّ أذان الظهر. حاولت أن أسحب نفسي من خمولي. كان أمامي عشر دقائق قبل أن يبدأ الأذان الثاني ـ لدعوة المصلّين للوقوف في صف واحد وراء الإمام لبدء الصلاة ـ قبل أن يبدأ المطوّعون دورياتهم في الشارع واعتقال الرجال الذين لم يذهبوا إلى المسجد. كان آخر شيء أحتاجه هو أن يُلقى القبض عليّ وأُجلد ويسجل اسمي في سجلاتهم بأنني كافر. ومع أنني أعيش في السعودية منذ عشر سنوات، فأنا أجنبي ولا أريد أن يرحّلوني.

وبالحيوية القليلة التي أمكنني أن أستجمعها، عدت إلى البيت. وصلت إلى باب البيت تماماً مع بدء انطلاق الأذان الثاني. وعندما أغلقت الباب خلفي، بدأ الإمام الضرير الصلاة.

هرعت إلى المطبخ وجرعت كأساً مليئة بالماء، أتبعتها بكأس ثانية. لم يتوقف الهاتف عن الرنين. لا بد أنه رئيسي في العمل. تجاهلته.

كنت أعرف أنه من غير المحتمل أن تأتي خلال فترة الصلاة، لذلك ضبطت المنبه على الساعة الواحدة والربع.

تأكّدت أنني هيأت نفسي بشكل أفضل. أخذت ثلاث موزات

وملأت قنينة بالماء البارد قبل أن أغادر البيت إلى شارع النزلة البعدا ذي النهاية المسدودة. كما وضعت على رأسي قبعة البيسبول السوداء لأقي عيني وهج الشمس.

وصلت إلى الشارع وأنا في غاية الحماسة، لكن مع مرور الوقت، وبعد أن بدأ ظلي يكبر، بدأت أفقد قوّتي ثانية. كان وقت صلاة العصر يقترب، ولم تظهر أيّ إشارة منها. تهاويت على الأرض إلى جانب حاوية القمامة. وما إن بدأ المؤذّن أذانه حتى نهضت وعدوت عائداً إلى البيت، كادت قدماي تتعثر إحداهما بالأخرى.

ربما كان ثمة تغيير في الخطة. ربما كانت تفضل أن تتأخر في القدوم لسبب عائلي، أو ربما وجدت أنها لن تقوى على تحمل الحر القائظ في هذا الوقت من النهار لذلك قرّرت أن تأتي في المساء لأنه أبرد.

بعد نصف ساعة، عدت للمرّة الثالثة في ذلك اليوم إلى ذاك الشارع.

لكنها لم تأت. كانت الرائحة المنبعثة من حاوية القمامة تثير الغثيان. وشيئاً فشيئاً، بدأ ضوء النهار يختفي مع غروب الشمس. وبدأ يقلّ عدد النساء في الشارع الآن، وشارف الفيلم بالأبيض والأسود على نهايته. كم كنت أتمنى لو كانت الفتاة ذات الحذاء الوردي واحدة من تلك النساء القليلات اللاتي يجبن الشارع واللاتي، لسبب أو لآخر، يتمكّن من البقاء خارج بيوتهن من دون إزعاج الرجال في عائلاتهن. لذلك واصلت التسكّع فترة أطول قليلاً.

حلّ الليل. كان مصباح الشارع مكسوراً، وكان الضوء يومض. قرّرت أن أنتظر فترة أخرى.

ثمّ سمعت فجأة صوت أنثى لطيفاً يناديني. «هل هي يا ترى؟» تساءلت. تطلعت حولي. لم أر أحداً. ثمّ تناهى إليّ الصوت ثانية، «انظر إلى الأعلى. هنا، فوق». رأيت الصبي الواقف على السطح وبيده سجادة الصلاة. «أهذا أنت ثانية؟» سأل. واستدرت على كعبي وأطلقت ساقي للريح متوجهاً إلى بيتي مباشرة.

في البيت، وبيدين متعبتين ومرتعشتين، غسلت سروالي وقميصي وعلّقتهما خارج النافذة، كما فعلت في الليلة الماضية. «يجب أن تحافظ على مظهرك، لأنها ستأتي غداً».

في صباح اليوم التالي، عندما توجهت إلى شارع النزلة البعدا ذي النهاية المسدودة، لم أكترث بالصبي ولا بعملي على أقل تقدير. انتابني شعور بالقلق من أن الفتاة تخدعني أكثر من القلق من أن الصبي الذي يحمل سجادة الصلاة، أو من قلقي من أن أُفصل من عملي. كلّ ما أتمنّاه هو أن أرى الحذاء الوردي ثانية.

لم يظهر أثر للفتاة في ذلك اليوم أيضاً.

رحت أذرع الشارع جيئة وذهاباً، أراقب قدميّ كلّ امرأة تمرّ في الشارع، إلى أن امتلأ بياض عينيّ بسواد عباءاتهن وأحذيتهن في نهاية اليوم.

في تلك الليلة، بعد أن حلّ الظلام، لم أعد إلى البيت. مشيت في أزقة لا توجد فيها أضواء شوارع، ورحت ألقي بساقيّ في الظلام وكأنهما شيء يمكنني أن أبث الفزع فيه. لكن ذلك لم يكن مجدياً. حلّ الليل، كما يحلّ دائماً، وظللت أتساءل هل كان للحذاء الوردي وجود حقاً.

ثمّ سمعت صوت الصبي ثانية. «المعذرة»، قال الصوت. في هذه المرة لم أهرب بل التفتّ ونظرت إليه. كان الآن يقف بالقرب مني. كان الصبي صغيراً نحيلاً، ولم تكد سجادة الصلاة التي يحملها تلتف حول يديه الصغيرتين. نظرت عيناه الداكنتان المستديرتان إليّ، متأهبتين للسؤال.

لم أكن أريد أن أقول شيئاً، أشحت بعيني بعيداً. جالت عيناي في أرجاء الشارع لرؤية حذائها حتى في الظلام.

لكن الصبي ظل يلكزني ويشدني من قميصي لجذب انتباهي.

«ماذا تريد؟» صحت، من دون أن أنظر إليه، «هيا قل ما تريد كرمى لله، واتركني وشأني».

«هل أنت عاشق؟» سألني.

نظرت إليه ثانية، محاولاً أن أتصرف بطريقة طبيعية.

«لماذا تسأل ذلك؟»

فقال: «لأن أبي قال لي إن العشاق في قريتنا في تشاد يسيرون على غير هدى في الليل والنهار، وتحت النجوم والقمر والشمس. وتبدو أجسامهم وكأنهم من أولئك الذين يموتون لأنهم يمتنعون عن تناول الطعام، وتجوب عيونهم كلّ مكان، لأن قلوبهم في ترحال دائم».

لم أردّ على الصبي، بل رحت أسير مترنحاً عبر الشوارع المتربة وأنا عائد إلى غرفتي.

في صباح اليوم التالي، لم أذهب إلى العمل، بل توجّهت إلى شارع النزلة البعدا وانتظرت هناك منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخر

من المساء. وفي بعض الأحيان، كنت أتمشّى جيئة وذهاباً في الشارع المترب، أو أجلس على الرمل المحترق، أو أقف متكئاً على الجدران الملتهبة وتلسعني حرارة الشمس المنعكسة، وفي أوقات أخرى، كنت أجلس عند الناصية، أنظر متعباً إلى كلّ امرأة تمر في الشارع. لكن لم يظهر أي حذاء وردي.

شعرت بمدى غبائي. ربما كان كلّ ذلك لعبة بالنسبة لها؟ ربما كانت تريد أن تنتقم من الرجال وأن تجعل مني عبرة لمن يعتبر، وأن تراني أركع أمامها وأستجديها للظهور ثانية؟ أو ربما كانت تريد أن تري صديقاتها أنها تستطيع أن توصل رجلاً إلى حافة الجنون ببضع رسائل رومانسية؟ يا إلهي، لعلها قرّرت، بعد أن جعلتني آتي إلى المكان الذي تريدني أن أكون فيه - أن أجلس بالقرب من صندوق القمامة الذي تنبعث منه طوال النهار رائحة نتنة - أن تخلع حذاءها السخيف وهي تضحك تحت حجابها.

استنزفت الليالي المؤرقة الحارة الكثير من طاقتي، وفي صباح يوم الجمعة، بعد أربعة أيام أخرى غير مثمرة، فكّرت بما قاله لي الصبي. هل أنا عاشق؟ كيف أحبّ فتاة لم أرها أو أسمع صوتها؟ فلست سوى فتى من بين آلاف الفتيان في حي النزلة، يتلهف للتحدث إلى فتاة، وأتوق إلى أن تحبني هي أيضاً.

لا، لا يمكن أن أكون عاشقاً، قلت لنفسي، فكلّ ما رأيته منها هو حذاؤها الوردي الذي ميّزها عن باقي الفتيات. وكنت قد قرأت أن الرجال يقعون في شرك تفاصيل جسد المرأة المعقّدة: فم رقيق شهي، أو رموش جذابة، بل يقال إن الطريقة التي تهز فيها النساء أردافهن قد

تجعل قلب الرجل أسيراً في حبها. لكن الحذاء؟ لا بد أنني أول رجل في التاريخ يقع في حبّ امرأة بسبب حذائها فقط. يجب أن أنسحب من هذا العالم التخيّلي وأنساها. «لا، أنا لست عاشقاً»، قلت لنفسي، «وبما أنني كنت أحلم بأنني أحبّ امرأة فإنني أعشق فكرة الحبّ».

حاولت أن أقنع نفسي بأن أكفّ عن الانتظار وأن أتوقف عن التفكير بها. وقلت لنفسي: «يجب أن أعود إلى عملي صباح الغد، وأن أطلب من رئيسي أن يسامحني. يجب أن أنساها. انتهى الأمر».

لكنني استيقظت في صباح يوم السبت وأنا أبتسم. فقد حلمت حلماً جميلاً أعاد لي قوّتي. بعض الأحلام تنسل منك بسهولة، لكن أحلاماً أخرى تتشبث بك بقوة، إلى حد أنه إذا اجتثثّها الحقيقة، فبوسعك أن تجد بقعة أخرى لزرعها من جديد.

خطرت لي فكرة.

سأذهب إلى المكان الذي تقيم فيه. سأذهب إلى البناية ذات الطوابق التسعة وأنتظرها هناك. سأكتب إليها رسالة بنفسي، لابدّ أن تكون هناك وسيلة يمكنني أن أوصل فيها الرسالة إليها بأمان. وقلت لنفسي: «هذا صحيح. لقد جاء دوري الآن لإخبارها بأنها سحرتني عندما قالت لي إنني الزهرة الوحيدة في حديقة قلبها طوال تلك الأسابيع والشهور».

في ذلك اليوم، بدأت رحلة أخرى، عندما انطلقت أبحث عن الفتاة. «لن أخفق هذه المرة»، قلت لنفسي، وأنا أغسل ثيابي الوسخة.

في تلك اللحظة خابرني رئيسي. قال إنه كان يحاول الاتصال بي خلال الأيام القليلة الماضية، وصاح، «أيّ نوع من العمال الأجانب

أنت؟ هل تعرف كم شخصاً على الجانب الآخر من البحر مستعدين للتضحية بحياتهم كي يأتوا إلى هذا البلد للعمل؟ هناك رجال يأتون إليّ كلّ يوم ويتوسلون إليّ أن أدبر لهم عملاً وأنت تعاملني بهذه الطريقة».

لم أفه بكلمة. كنت أستمع إليه فقط حتى ينفّس عن غضبه. كان عقلي في مكان آخر. كنت قد بدأت أكتب رسالة إليها، تتنازعني مشاعر هل عليّ أن أحتقرها نتيجة اختفائها، أو أن أخصص الرسالة كلها لأعبّر لها عن مدى اشتياقي إلى كلماتها وإلى حذائها.

«ناصر؟ ناصر؟» واصل الصراخ، وقبل أن يغلق السماعة بقوة، صاح، «إنني أتحمّلك بسبب الإخلاص الذي أبديته لي خلال هذه السنوات، لكنك إن لم تأت غداً، فاعتبر نفسك مفصولاً من العمل».

أسرعت إلى طاولتي وأخرجت من الدرج بضع أوراق، وكتبت أول رسالة غرامية. لم تكن سهلة، لكنني أردت أن أكتب شيئاً يستطيع الشاعر أن يتفاخر به، مثل القصائد التي جعلت شاعرنا في المخيم عظيماً، بل ربما مثل الأشعار التي ساعدت عنترة بن شداد ـ الشاعر الذي عاش قبل الإسلام وكان ابن أب عربي نبيل، وأمّ حبشية من الرقيق ـ على أن يمتلك قلب عبلة الجميلة. بذلت محاولات مختلفة لكتابة شيء على الورق أسعد به في نهاية الأمر. سيكون عنترة فخوراً بي وسيتمنى لي حظاً سعيداً. مبتهجاً طويت الرسالة بحجم يمكنها أن تقبع معه في راحة يدي، وبدأت أستعد للسير إلى المكان الذي تسكنه الحبيبة.

كان اليوم مشمساً. بداية يوم جميلة. كان حي النزلة يضج بالحياة. الشارع مكتظ بالناس، وتغمره مجموعة متباينة من الأصوات. في

طريقي نحو البناية ذات الطوابق التسعة، مر بجانبي طفل صغير مسرع يحمل بطيخة حمراء.

وصلت إلى العمارة، ورسالتي مطوية في يدي، عازماً على أن أبقى هناك إلى أن تأتي.

وقفت قبالة بنايتها ونظرت إلى الأعلى. كانت تغطي سطح البناية هوائيات كبيرة. كان في كلّ طابق شقّتان، وكانت مكيّفات الهواء معلقة على الجدار الخارجي للشرفات، في نفس المكان في كلّ طابق، مشكّلة خطاً عمودياً من الصناديق السوداء، وقد شكّلت قطرات الماء التي تتساقط منها خطوطاً متبقعة فوق الطوب.

وكان جميع الأشخاص الذين يدخلون إلى البناية أو يخرجون منها يرتدون ثياباً سعودية كاملة. ولم تكن أي من النساء تنتعل حذاء وردياً. لمت نفسي لأنني كنت أركّز على حذائها كلما رأيتها في الشارع، ولم أركّز على سماتها الأخرى. لماذا لم أقس في مخيلتي طولها؟ ولماذا لم ألحظ شيئاً آخر في طريقة مشيتها، وعرض كتفيها، أو رائحة معيّنة ـ أي شيء يمكن أن يساعدني في العثور عليها ثانية؟

في الساعة الواحدة تماماً، سمعت صوت المؤذن يلعلع من مكبرات الصوت من المسجد الكبير يدعو الناس إلى صلاة العصر. لم أتحرك قيد أنملة. ومع أن الآذان الرئيسي كان قد بدأ، فقد بدأ الإمام الصلاة. كنت لا أزال واقفاً هناك. كان الخوف الوحيد الذي يتملكني هو أنني ربما كنت أطارد وهماً، وأنه لم تعد هناك فتاة، بل مجرد سراب من الحبّ في مكان يخلو من الحب.

التفتُّ عندما سمعت صوت محرّك ثقيل. كانت تلك سيارة

المطوّعين الجيب الكبيرة السوداء. استدرت لأنظر إلى البناية. كانت هناك سيارة أخرى مركونة خارج البناية.

توقّفت السيارة الجيب السوداء أمامي تماماً، وحجبت قدرتي على الرؤية. أُنزلت النوافذ المظلّلة وصاح أحدهم. سمعت ما كان يقوله، لكنني لم أكترث بالرد. مددت رقبتي لأرى امرأتين تخرجان من السيارة الأخرى. وقبل أن تدخلا، أدارت إحداهما رأسها نحوي. واجهتني لبضع ثوان، قبل أن تشيح برأسها بسرعة.

هل من الممكن أن تكون هي؟ قلت لنفسي، هل ينبغي لي أن أحاول تمرير رسالتي لها؟

«ماذا تفعل هنا؟»، صاح أحد المطوّعين من داخل سيارة الجيب. أدركت أن الرسالة في يدي هي دليل على جريمة. جعّدتها ودفعتها في فمي. مضغتها، مازجاً إياها بالكثير من اللعاب لكي يسيل الحبر، ثم أدرت رأسي بعيداً عن سيارة الجيب وبصقتها. لقد ذابت الكلمات الحلوة التي كنت قد كتبتها إلى حبيبتي في فمي.

قفز المطوّع من السيارة وجاء نحوي. أخذت نَفَساً عميقاً. كان يمسك بعصا مصنوعة من خشب رقيق لدن لكي لا تنكسر عند استخدامها.

«لماذا لا تصلي في المسجد؟» سألني.

لم يكن مهتماً بما تبقى من الرسالة. شعرت بالارتياح، لكنني كنت ما زلت معقود اللسان. نظرت إليه.

نخزني بعصاه بقوة بين أضلاعي، وقال: «إني أكلّمك. لماذا لست في المسجد؟»

لذت بالصمت.

«يا إلهي، إننا نسأل عفوك»، صاح وهو ينظر إلى السماء، ثمّ حدّق فيّ وقال: «قل لي ما هو أهم من الصلاة، آه؟ إنها الشيء الوحيد الذي يميّزنا عن الحيوانات. إذا لم تكن تصلّي فإنك كافر».

لم أفه بكلمة واحدة. ظلت عيناي تنظران إلى مدخل البناية.

ضربني الشرطي على رأسي، وصاح: «على ركبتيك».

ومن دون أن أقول شيئاً، فعلت ما طلبه مني، لكن عقلي كان في مكان آخر. عندما ضربني بعصاه على ظهري، كانت الفتاة كلّ ما كنت أفكّر فيه، وراحت شفتاي ترتعشان بنوع مختلف من الدعوات: أن تفتح ستارة نافذتها، أو أن تبدي إشارة لتخبرني أنّها هناك، أنّها موجودة.

جرّوني إلى سيارة الجيب وانطلقوا إلى مكان بعيد. توقّفنا خارج الجامع الكبير وقادني الشرطي الذي ضربني إلى الباب، وألقى بي في داخله، وقال مهسهساً: «لقد بدأت الصلاة للتو، اذهب وصلّ يا حيوان».

تعثّرت فوق السجادة السميكة. كان المصلّون يصطفون في صفوف مستقيمة باتجاه مكة المكرمة. وعندما سجدوا في صف واحد، نهضت وجريت إلى الجانب الآخر من المسجد، وخرجت من الباب المقابل.

نادراً ما تهطل أمطار في الصيف في جدة، لكن في ذلك المساء، سمعت المطر يهطل مدراراً. فتحت نافذتي وأحسست بالهواء الرطب الدافئ يهبّ على غرفتي. أردت أن أصرخ بصوت عال لأغطي على الضوضاء المتواصلة التي يحدثها المطر الذي أخذ يملأ الشارع.

كانت الساعة الواحدة صباحاً، ولم يغمض لي جفن. لكن لم يكن

الألم في ظهري الناجم عن العصي التي ضربني بها الشرطي هو الذي جعلني أظل مستيقظاً، بل لأنني لم أتمكن من الكفّ عن التفكير بها.

جلست على سريري وكتبت رسالة جديدة. كانت كلمات رسالتي الأولى لا تزال عالقة في ذاكرتي، وكأنني عندما مضغتها انطبعت حروفها في رأسي. طويت الرسالة، وارتديت ثيابي، واتجهت إلى بنايتها في منتصف الليل.

هرولت على امتداد الشارع الخاوي تحت المطر. وعندما وصلت إلى الرصيف المقابل لبنايتها، وقفت ورحت أقرأ كلماتي لها بصوت عال، وكان صوت المطر يُغرق صوتي:

حبيبتي،

هل يمكنك أن تغادري نومك وتسمعيني؟ هل يمكنك أن تخرجي إلى شرفتك، ليظللك الظلام بحجابه، وتستمعي إلى كلماتي؟ يا أميرة الأميرات، ألا تستطيعين أن تختبئي تحت الريح وتقتربي مني وتطيري حولي؟ ألا تستطيعين أن تجدي ورقة خريفية تحملك إلى السماء المظلمة حيث يمكننا أن نلتقي؟ ألا يمكنك أن تستحمي تحت المطر هذا المساء؟

أميرتي، أميرة القمر، لو كنت مغنياً غجرياً، لجبت الأرض حاملاً عودي وجمعت أجمل القصائد لأغنيها لك.

أحياناً أتخيّل نفسي مقعداً جالساً عند قدميك، أمعن النظر في وجهك، أنظر إلى شفتيك وهما تلفظان اسمي، ورموشك ترتعش مع كلماتي.

لشّد ما أتمنّى أنْ نكون جميعنا في هذا البلد عمياناً، لكي نكون

متساوين في أن يختبئ أحدنا من الآخر، ثمّ أتمكن من العثور عليك من رائحتك، وعندما يلتقي وجهانا، أقبّلك بهدوء، لكن بشوق ولهفة.

لقد رأيتك في حلمي يا حبيبتي. رأيتك تدخلين حديقة أزهارها ثملة بحزني، وبراعمها تتساقط على الأرض البائسة.

في اليوم التالي، ظهرت أخيراً. كان ذلك في عصر يوم الأحد. كان المطر الذي هطل في الليلة الماضية قد تبخّر. وكان الطقس شديد الحرارة، وكان حي النزلة مقفراً. كنت واقفاً على الرصيف المقابل للبناية ذات الطوابق التسعة. خرجت امرأة من البناية. نظرت إلى حذائها. وقفت مشلولا. كان لونه وردياً.

تطلعتْ يمنة ويسرة، ولوّحت لي بيدها المكسوة بالقفاز بأن اقترب منها. عندما اجتزت الطريق، أسرعت وألقت الرسالة فجأة.

حبيبي،

أرجوك سامحني لأنني تأخرت في المجيء. تذكّر أنني كنت قد حذّرتك بأن وقتي ليس ملكاً لي. لذلك فأنا آسفة، لكنّ ذلك قد يحدث ثانية. هذه المرّة كان شيئاً غير متوقّع - كان عليّ أن أعالج شيئاً شخصياً. أحبّ أن أشاطرك إياه، لكنني أحتاج إلى أكثر من رسالة حتى أتمكن من أن أحدثك عن كلّ شيء يا عزيزي. في جميع الأحوال، فإن كلّ شيء يسير على ما يرام الآن، وإنني سعيدة للغاية بأن أكون هنا، أمشي في الشارع نفسه الذي تمشي فيه.

رأيتك من نافذتي واقفاً في الشارع في هذه الحرارة الخانقة. لم أكن أظن أنك ستتحمّل مثل هذا العقاب من أجلي. كنت أتفرج عندما صبّ المطوّع جام غضبه عليك. عيناك، يا حبيبي، لم ترمشا عندما هوت

عصاه على ظهرك. وعندما هطلت الأمطار بغتة ليلة البارحة وكنت أنظر من نافذتي لأنني لم أستطع أن أنام، رأيتك واقفاً هناك. رأيت شفتيك تتحرّكان. كنت أتمنى أن تحمل الريح كلماتك إليّ. كنت أريد أن أمدّ يدي لألمس وجهك، لكنني بدلاً من ذلك أخذت اللوحة التي رسمتها لوجهك وقبّلتك برقة على شفتيك.

عزيزي، لا أزال أخاف كثيراً عندما أنحني في الشارع لأحمل رسالتك. أشعر بتوتر أكبر مما أشعر به عندما ألقي رسالتي إليك. منذ بضعة أيام، أخبرتني صديقة بأن المطوّعين ألقوا القبض على فتاة تعرفها، في مكان قريب من هنا، وهي ترمي رسالة إلى فتى.

لكن لديّ فكرة. لنلتق عند دكان اليمني غداً عند الساعة الواحدة والنصف، بعد انتهاء الصلاة. سأذهب إلى هناك مع أمّي، وكلّ ما ستقوله للبائع سيثب من الجدار ويصبّ في أذنيّ المتلهفتين.

سلام من القلب

أمضيت ما تبقى من ذلك النهار وتلك الليلة مردداً ما سأقوله في دكان اليمني. وقد عزمت على أن أقول شيئاً يهزّ أرض جدة. لكن لم يخطر ببالي شيء يمكنني أن أقوله لها. فقد تبخرت العبارات التي كنت قد دوّنتها في رأسي، عندما حاولت أن أقولها بصوت عال. ظللت مستيقظاً طوال الليل وأنا أحاول أن أجد الكلمات التي أردت أن أقولها لها.

دلفت إلى محل اليمني. كان صاحب المحل منهمكاً بملء الرفّ الواقع خلف المنضدة بعلب السجائر. نظرت إلى الساعة في مؤخرة المحل. كانت الساعة الواحدة وخمساً وعشرين دقيقة. وكالعادة كان

الهواء مشبعاً برائحة البخور، وكانت تنبعث من جهاز التسجيل تلاوة للقرآن بصوت هادئ. أدار صاحب المحل رأسه ونظر إليّ، بابتسامة متكلفة على وجهه.

توجهت إلى الجزء الخلفي من المحل وبدأت أتطلع حولي. رفعت مشعل بخور جميلاً مصنوعاً من صلصال بني. نظرت إلى قعره وقرأت أنه مصنوع في مأرب باليمن، أرض ملكة سبأ. صاح صاحب المحل مزمجراً، «إنك تعرف أن هذا غالي الثمن عليك. أعده إلى مكانه وخذ علبة البيبسي واخرج من هنا».

وقفت ممسكاً بالعلبة أمام منضدة البائع. نظرت إلى الساعة. كانت الساعة الواحدة وخمساً وثلاثين دقيقة، ولم تأت بعد. عدت إلى الثلاجة وغيّرت العلبة. «ما المشكلة في العلبة الأخرى؟» سألني صاحب المحل.

لم أرد عليه. وضعت العلبة فوق المنضدة وتطلعت حولي بصمت. كانت صورة مكة المكرمة معلّقة إلى جانب رفّ السجائر. كان الرفّ التالي يعرض كومة من العلب الصفر والبيض لحليب بودرة نيدو. وعلى الجانب الآخر، كانت تتدلى من الحائط بعض الثياب اليمنية الملوّنة.

قال: «هيا، إن هذا المحل ليس متحفاً. إدفع ثمنها وغادر».

عندها تناهى إليّ وقع خطوات تدخل الدكان. التفت. دخلت امرأتان، ترتدي إحداهما الحذاء الوردي.

قال صاحب الدكان: «هيا، لن أضيّع يومي كله من أجلك».

لم أقل شيئاً.

نظرت إلى صاحب الدكان ثم ألقيت نظرة سريعة على الحذاء

الوردي النظيف الذي بدا أنه في مكان غير ملائم مقابل الصناديق الوسخة الملقاة على أرضية الدكان. كانت تقف وراء زاوية الرفوف، بعيدة عن أنظار صاحب الدكان. بيدها المكسوة بقفاز، أمسكت عباءتها ورفعتها لتريني كاحلها الأيمن. للمرة الأولى، رأيت بوصة من بشرتها. أغمضت عينيّ وبلعت ريقي. كانت هناك ندبة صغيرة على كاحلها. بدأت أشكّ بها كثيراً وتساءلت هل كنت أطارد شبحاً. لكنني تأكدت من أن هذه المرأة موجودة. رأيت الدليل على بشرة كاحلها السمراء الناعمة البراقة. كنت أحلم بأن أحبّ وأنا على قيد الحياة. أردت أن أقفز في مكاني، أن أصيح معبراً عن سعادتي. بدت الندبة وكأنها وشم صغير. كانت قصيرة ومقوّسة، مثل جوهرة مرصعة على بشرتها. تساءلت هل كنت سأمسك بقدميها ذات يوم وأطبع قبلة على تلك الندبة ببطء وحبّ لأزيل الألم الذي سببته لها.

وفجأة بدأت أتكلم. «كيف حالك؟ «قلت لصاحب الدكان بصوت مدغم.

صرخ: «ماذا؟ قلْ يا ولد».

«قلت إنّه لطيف... باسم...».

فقال: «انتظر»، وأغلق المذياع. «ماذا قلت؟»

اعتدلت في وقفتي وقلت بثقة، «أريد أن أقول شيئاً كنت أريد أن أقوله لك منذ زمن طويل».

قال: «منذ متى تتكلّم؟ لم أكن أظن أنّ لديك لساناً في رأسك الغبي».

«تلك الندبة الصغيرة على كاحلك ألهمتني بأن أتحدث».

«أيّ كاحل؟ سيد. . .»

«عزيزي، هناك وقت لكلّ شيء. اسمح لي أن أقدّم لك نفسي بسعادة كبيرة. اسمي ناصر، وأنا من إريتريا».

«لم أسألك ولا أريد أن أعرف»، قال صاحب الدكان.

«عمري عشرون سنة وأعيش في هذا البلد منذ عشر سنوات».

فقال: «نعم، أعرف ذلك. يشرفني أنني كنت أخدمك طوال هذه السنوات».

«حتى أنني لا أعرف اسمك، سأناديك باسم فيور، إذا لم تمانع، وهو يعني زهرة بلغة التيغرينيا، وهي مأخوذة من اللغة الإيطالية».

«اسمي صفوان سعد شاكر يا ولد» قال صاحب الدكان، وانحنى فوق المنضدة وأمسك بقميصي من كتفي، وقال: «وتريد أن تعرف أيضاً هل أرغب في أن تكلمني. اخرج الآن قبل أن أعرّفك على قبضتي».

دفعني بقوة. تعثّرت ووقعت على الرفّ. عدت مندفعاً بقوة إلى المنضدة وأضفت، «أريد أن أقول لك أشياء كثيرة، وأريد أن أشاركك في أشياء كثيرة، وكلّ ما أريده هو أن أتكلم وأستمع إلى صوتك».

فقال: «حسناً، إنني سعيد بذلك، لماذا لا أخرج وأكسر ظهرك، وبهذه الطريقة يمكنك أن تجلس هنا إلى الأبد وتروي لي قصّة حياتك».

دفعني وأخرجني من الدكان، وهو يقول: «في المرة القادمة، تعال لشراء علبة البيبسي. إن كنت تريد أن تتكلم فاذهب إلى مكان آخر».

حبيبي،

كنت في غاية السرور البارحة في دكان اليمني. أحببت كثيراً الاسم الذي أعطيتني إياه.

يا له من اسم جميل «ناصر» أيضا؛ وقد أحببت صوتك عندما سمعتك تتكلم. عندما رأيتك ترفع ذقنك قليلاً، أغمضتَ عينيك لوهلة، عندما رأيتَ قطرة من العرق تسيل من جبهتك ولم تجففها، عرفت عندئذ بأنني محقّة تماماً.

عزيزي، كما تعرف، أصبح أيلول (سبتمبر)، الذي يجلب الخريف، على الأبواب، وسيجلب الخريف معه إلى جدة رياحاً مفاجئة وشديدة، قد تجعل رسالتي تطير وتحط عند قدميّ شخص آخر. لكنني أريد أن أسمع عنك المزيد، وأريد أن يكتب أحدنا إلى الآخر بالتفصيل، بدلاً من هذه الرسائل الصغيرة.

الإمام الضرير، إمام مسجد النزلة هو أيضاً أستاذ مادة الديانة في كليّتنا، وقد سُمح له بأن يدرّسنا لأنه أعمى. إن الدراسة ستبدأ في أيلول، وبما أنني ألقّب «بزعيمة الزعيمات» في كليّتنا، كلّفتني المديرة بأن أكون دليلة الإمام داخل الكليّة. حبيبي، إن كنت تستطيع أن تقوده إلى الكليّة من بيته وتحمل حقيبته، فيمكننا أن نستخدمه مرسالاً لنقل رسائلنا الغرامية. سيكون الأمر بسيطاً. ستوصله إلى البوابة، وتقرع جرس الإنتركوم، وتقول إنّك مرافق الإمام، عندها سآتي وأنتظر وراء الباب. سأفتح الباب. لكنك لن تراني، لأنني يجب أن أبقى خلف الباب. وعندما يعبر الإمام الباب المفتوح، فإنك تعطيني حقيبته التي تحمل رسالتك. وعندما تأتي لتوصل الإمام ثانية بعد دروسه، ستجد رسالتي لك مخبأة في حقيبته.

لكن في المرة الأولى، إذا تمكنت من ذلك، اكتب رسالة صغيرة تعلمني فيها أنك نجحت في استخدام الإمام مرسالاً لنقل رسائلنا الغرامية.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، اتصلت بهلال لأخبره بأنني أريد أن أترك عملي وطلبت منه أن يخبر رئيسي بذلك لأنني كنت أخشى مواجهة غضبه. كان ذلك يعني أن عليّ أن أنفق مدّخراتي المتبقية لي من عملي في مقهى جاسم. لكنني كنت أريد أن أكرّس نفسي تماماً لهذه الرحلة المثيرة. حاول هلال أن يقنعني بأن أغيّر رأيي. «أتترك العمل؟ كيف ستعيش؟» ظل يسألني، وكان ردي الوحيد هو أنني بحاجة إلى قليل من الوقت للاختلاء بنفسي، وأنه توجد لديّ مدّخرات كافية لتسديد إيجار بضعة أشهر.

«حسناً، إفعل ما تريد»، قال، وأغلق السماعة.

الجزء الخامس

باســـل

اقتنعت بفكرتها. ومع أن خطتها تعني أنني لن أتلقى منها رسائل لفترة من الزمن، فمن المنطقي أن أحافظ على مسافة بيني وبينها ريثما أحاول استمالة الإمام الضرير ليصبح مرسال غرامنا. كانت لدي أشياء كثيرة أريد أن أقولها لفيور.

كنت أعرف ما يجب عليّ أن أفعله وهو أن أحاول أن أتقرب من الإمام في المسجد الكبير. لذلك بدأت التنفيذ في الحال. ومع أنني كنت قد تركت المدرسة منذ فترة طويلة، تذكّرت معظم الأشياء التي كنت بحاجة لمعرفتها لأننا كنا ندرس المسائل الدينية بتعمق.

استيقظت قبل الفجر، وبدأت أهيئ نفسي. بحثت عن الزيّ المدرسي القديم وهو ثوب شرعي كان قد اشتراه لي خالي عندما بلغت الخامسة عشرة من عمري. لكن الثوب أصبح قصيراً الآن وهو المطلوب. فقد كان المطوّعة يرون من الملائم أن يرتدي المرء ثوباً يصل إلى ما فوق الكاحل، لأنه يثبت أن الشخص الذي يرتديه يتتبع سنة النبي محمد عليه السلام.

سمعت أذان الصباح. قبّلت صورة أمّي وهززت رأسي، متذكّراً كيف أنني أقسمت بأن لا تطأ قدماي مسجد الإمام الضرير، وها أنا ذا أوشك على أن أحنث بيميني. ابتسمت لقوّة الحبّ. ثم توجّهت إلى المسجد.

كان الشارع يغصّ بالرجال المتوجهين لأداء الصلاة. وبينما اندمجت في بحر من الثياب البيضاء، بدأت أتطلع حولي غريزياً كي لا يراني أحد من أصدقائي الذين لن يتقبلوا فكرة أن أصبح مطوعاً. لكنني هدّأت من حدة قلقي. فقد كنّا في بداية الشهر، ولم يكن يُتوقع أن يعودوا من إجازاتهم إلا بعد أسبوعين. «سأتعامل معهم بعد أن يعودوا»، قلت لنفسي، وتابعت طريقي إلى المسجد.

كان المسجد قد طلي مؤخراً وأصبح يتلألأ باللون الأبيض. خلعت حذائي ودلفت إلى القاعة الرئيسية التي تتسع لمئات المصلّين. كانت السجادة خضراء غامقة نُسجت في وسطها صورة الكعبة المشرّفة. كما كانت الجدران بيضاء وتخلو من أي كتابات أو إشارات. ولّيت وجهي نحو المحراب شطر مكة المكرمة، حيث يؤم الإمام المصلين كل يوم. كانت قاعة المسجد تعجّ بالمصلين الذين كان كل واحد منهم قد بلغ مرحلة مختلفة في صلاته: فكان بعضهم يركع، وبعضهم الآخر يسجد وجباههم ملتصقة بالأرض.

قاد أحدهم الإمام الضرير إلى مقدمة المصلين. وأسند عصاه إلى جانب درجات المحراب الخشبية.

أغمضت عيني وقلت مطمئناً نفسي، «سيكون كلّ شيء على ما يرام».

بعد انتهاء الصلاة ومغادرة معظم المصلين المسجد، تحلّقت مجموعة صغيرة حول الإمام، وكان دليله يجلس إلى يمينه.

«ما اسم الشخص الذي يقود الإمام؟» سألت الشخص الجالس بمحاذاتي، مع أنني كنت أعرف الجواب.

فقال: «باسل، إنه رجل تقي».

تذكّرت ما حدثني عنه اليماني ويحيى في الليلة التي كنا فيها في قصر السرور: «إنه يبحث دائماً عن فتيان سيئين ليهديهم ويكسب أجراً كبيراً في الجنة». لكنني تذكّرت أيضاً أن ماضيه لم يكن نظيفاً جداً، وأن لديه نقطة ضعف أمام الفتيان الجدد الجميلين. وقلت لنفسي سنرى هل الوقت الذي أمضاه مع الإمام قد جعله يكف عن ذلك، وأنا أراقبه.

في ذلك الصباح، كان من الصعب أن أحظى بانتباهه لأنه كان منهمكاً في حديث طويل مع الإمام، لذلك نهضت وعدت إلى البيت.

عندما وصلت إلى المسجد في صباح اليوم التالي كنت أفضل حظاً.

عندما أنهى الإمام الصلاة وانتقل إلى المكان الذي تحلّقت فيه مجموعة من الرجال في زاوية المسجد، نهضت وبدأت أتهيأ لتلاوة دعاء خاص. حاولت أن أفكّر بأن الله شديد العقاب كما يفعل الإمام، وعندما قلت، الله أكبر، بدأت الدموع تنهمر من عيني. وبعد أن أنهيت دعائي، استدرت لأرمق الدائرة المتحلّقة حول الإمام الضرير، ولاحظت أن باسل قد رآني. ابتسم.

عندما انضممت إلى الحلقة، هنأني بعض الفتيان لأنني تهاويت في حضرة الله، وقالوا، «اللهم قوِّ إيمانه، ما شاء الله».

رأيت باسل ينحني نحو الإمام ويهمس في أذنه شيئاً. «الله أكبر، الله أكبر»، صاح الإمام الضرير بعد عدة ثوان، وقال: «ليجلس هذا الفتى الذي كان يبكي في حضرة الله إلى جانبي». وقادوني إليه.

حتى من دون مكبر صوت، كان صوته جهورياً. كانت كتفاه عريضتين، ولحيته طويلة يتخللها شعر أبيض. أنزل طرف غترته على

كتفه. عندما جلست، وضع يده على رأسي ثم راح يتلمّس وجهي. جمع قطرات من دموعي بيده اليسرى وقال: «هذه الدموع يا أبنائي ليست دموعاً، بل إنها قطرات من المسك. فالشخص الذي يتهاوى في حضرة الله لا بد أن يكون أكثر عباده طاعة له. لقد سمعت بكاء هذا الطفل، وأستطيع أن أحسّ بمدى خضوعه لله، ويا له من شيء مشرّف».

طلب من باسل أن يعطيه حقيبته. وكان أحد الفتيان في المسجد قد قال لي إن حقيبة الإمام مليئة بالكتيبات التي لم يكن يستطيع أن يقرأها، لكنه كان يحبّ أن يحملها ليتمكن من أن يشير إليها أثناء خطبه. فَقَدْ كان فَقَدَ بصره إثر مرض شديد أصابه منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره. وكان آنذاك رجلاً متعلّماً.

أمعنت النظر في الحقيبة عندما مررها له باسل. كانت حقيبة قديمة من الجلد الأسود. أخرج الإمام منها كتابين صغيرين وقدمهما لي. كان أحدهما يتحدث عن الثواب في الجنة، والآخر عن العذاب في نار جهنم.

في فترة لاحقة، عندما كان الإمام يحدّث عدداً من تلاميذه الآخرين، اقتربت من باسل وقلت له: «لقد هداني الله إلى الطريق المستقيم بعد أن كنت مسلماً غير ملتزم لسنوات عديدة. إني بحاجة إلى كلّ مساعدة يمكنك أن تقدمها لي يا أخي لكي أكفّر عن السنوات التي أضعتها في ارتكاب الذنوب والآثام».

أمسكت يده، وكأنني أريد أن أصافحه، لكنني أبقيتها في يده. كانت أصابعه ترتعش قليلاً، ثم قال وابتسامة رقيقة ترتسم على وجهه، «سأساعدك إن شاء الله. بارك الله فينا جميعنا».

لكنني عندما بدأت أذهب إلى المسجد، اكتشفت أن هناك شخصاً يرعاه باسل يدعى عبدو. واكتشفت أن هناك أشخاصاً آخرين يتنافسون على جذب اهتمام باسل أيضاً، لأنه الجسر الذي يوصل إلى الإمام، وهو مصدر الحصول على مزيد من الأجر والثواب. وكان من الواضح أن باسل كان يستمتع بهذا الدور.

فقد قال لنا باسل ذات مرة إن شرف مرافقة الإمام لمرة واحدة فقط تعادل الأجر الذي يكسبه المرء خلال أشهر من الذهاب إلى المسجد والعودة منه.

كان ذلك يبدو وكأنه مهمّة مستحيلة، لكنني أقسمت: «سأبذل كلّ ما بوسعي لتنفيذ الخطة يا فيور».

تبين لي أنني لست بحاجة إلى أن أبذل جهداً كبيراً لإقناع باسل، فقد ارتكب خطأ وتمكنت من استغلاله جيداً.

كان ذلك يوم الجمعة، ٢٥ آب (أغسطس) بعد عشرة أيام من بدء ارتيادي المسجد ـ هدفي الوحيد هو أن أرافق الإمام الضرير لينقل رسائلنا الغرامية. كان روتيني اليومي بسيطاً، فقد كنت أستيقظ قبل الفجر، وأعيد قراءة رسائل فيور، وأرتدي ردائي الشرعي، وأتوجه إلى المسجد. وكنت أنزوي في المسجد، أقرأ وأصلّي لساعات طويلة. ومع كلّ صلاة تمرّ، كان اهتمام باسل بي يزداد. وفي عصر ذات يوم، قال: «أخي ناصر، إنك تسير على الصراط المستقيم معنا. لقد بدأت أحبّك».

كان يوم الجمعة يعني خطبة جمعة أخرى. انتابني الخوف من مشهد الإمام الضرير الذي يقوده باسل إلى المنبر، لكنني عندما رأيت حقيبة

الإمام الجلدية السوداء تتدلى من يد باسل، تذكرت فيور على الفور. أغمضت عينيّ وابتسمت. عندما فتحتهما، كان الإمام واقفاً في أعلى المنبر، يضع عباءة مذهبة الحوافي فوق ثوبه وغترته الحمراء. أطرقت برأسي، وأغمضت عينيّ ثانية، وحاولت أن أفكّر بما سأقوله لفيور في رسالتي الأولى التي سأرسلها إليها.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، كنّا جالسين في حلقة في وسط المسجد الكبير، حيث كان هناك حوالي عشرة أشخاص. كنت أجلس إلى يسار باسل.

كانت لحية باسل السوداء تكاد تلامس الجزء العلوي من بطنه. وكان يبتسم بعد كلّ جملة، وكانت أسنانه البيض المنضدة جيداً، كما قال لي أحد الفتيان، «تعكس نقاوة قلبه».

كان أمامنا كتب وحكايات جمعها المجاهدون العرب في أفغانستان.

وبما أن الإمام لم يكن موجوداً الآن ـ إذ كان يأخذ قسطاً من الراحة في البيت قبل أن يعطي درساً دينياً في مساء ذلك اليوم ـ كان باسل هو الذي يلقي خطبته على المجموعة. وكانت الحلقة تتسع بعد التحاق المزيد من الرجال بها. ثم جاء عبدو وهو يلهث. لم أتبادل معه حديثاً طويلاً، لأنه كان يفضّل أن يركّز كلّ انتباهه على باسل.

وحشر عبدو نفسه في الحلقة وجلس إلى يمين باسل. كان العرق يتصبب منه. هزّ باسل رأسه. وما إن جلس، حتى صاح عبدو، «اغفر لي يا شيخ، لكن الامتحان الصيفي في مدرستنا الصيفية قد بدأ في وقت متأخر أكثر مما كنا نظن، لأن المشرف على الامتحان مرض قبل بدء الامتحان واضطروا لاستبداله».

فأجاب باسل، «مع أنك مستقبل الإسلام في هذا البلد، وأن العالم الإسلامي كله سيتطلع إليك ذات يوم لترشده وتوجهه إلى الصراط المستقيم، فإنك لا تأبه لهذا الاجتماع»، وأضاف، «كيف، أسألكم، هل تستطيعون أنتم عبيده، أن تكونوا مستعدين لحمل راية الإسلام، إذا كان كلّ ما تهتمون به هو الحياة الفانية؟ لم أقل لكم ما قاله الرسول محمد. . .» وما إن ذكر اسم النبي حتى صحنا جميعنا بصوت واحد، «صلى الله عليه وسلم». وتابع وهو يهز رأسه، «لقد بلغ بكم الضعف يا إخوتي أنني لا أستطيع أن أنام أحياناً عندما أفكّر فيكم، أقلق عليكم. يا إخوتي، تذكّروا دائماً أن الله ورسوله يأتيان في المرتبة الأولى قبل أي شيء آخر في هذه الحياة».

«سنفعل ذلك إن شاء الله»، أجبنا جميعنا.

ثم التفت الشيخ باسل وهمس، «يجب على هؤلاء الفتيان أن يتعلموا الشيء الكثير. أترى يا أخي ماذا أحاول أن أعلّم الشبان هنا في حي النزلة؟»

«نعم يا شيخ»، همست له وأنا أنظر في أعماق عينيه، «سيكافئك الله على صبرك إن شاء الله، وعلى ما تبذله من جهد، وعلى بصيرتك. باسم الله، لقد تعلمت الكثير منك خلال هذه الفترة القصيرة. مُرْني وسأفعل أي شيء لكي ترضى عني يا شيخي المبارك».

عندما ابتسم، رأيت وميضاً في عينيه. ثم قال معلناً عن بهجته للصبية الآخرين المتحلّقين حوله: «أترون كيف أن هذا الفتى يجلب معه حكمة طبيعية وهي الطاعة والمعرفة. إنه يمكث في المسجد ليلاً ونهاراً. إنه لا يذهب إلى المدرسة الصيفية، ولا يمضي عطلته خارج

البلد، ولا يلعب كرة القدم. لقد كرّس نفسه لعبادة الله، وسيكافئه الله بعونه تعالى».

همهم معظم الحاضرين في المجموعة مبتهجين، في حين راح الآخرون، ـ ولا سيما عبدو ـ يحدّقون فيّ. ابتسمت عندما نظرت إليه وهو يحدق فيّ، لكنه أشاح بنظره على الفور.

بدأ الناس يدمدمون. لكن باسل أخذ يصفّق وقال: «هدوء، هدوء».

«لدي خطة هامة»، قال وقد ومضت أسنانه قبل أن يسكت لفترة من الوقت، وطاف بعينيه حول الدائرة. بابتسامته، وكأنه يحاول أن يذكّرنا بأن كلّ كلمة ينطقها هي مادة مهنية جاهزة لعرضها على عامة الناس، وتابع باسل كلامه قبل أن يتوقّف ثانية، «إن خطتي عظيمة، لكننا يجب أن نبدأ من الصغار. أي أننا يجب أن نجنّد عدداً أكبر من الصبية بسرعة كبيرة. لأننا من دونهم، لن نتمكن من إنجاز الخطة الكبيرة. لكننا يجب ألا ننسى أن نبدأ بالصغار، لأن الخطة الكبيرة...»

«آسف لمقاطعتك يا شيخ»، قال الفتى المعروف بالمحارب الأفغاني المحنك مع أنه لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من العمر. فقد علمت أن هذا الفتى قد ذهب إلى أفغانستان مع أبيه عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، لكن عندما مات أبوه بعد سنة ونصف السنة، اشتاق إلى أمّه وسُمح له بالعودة إلى وطنه. وتابع المحارب الأفغاني قائلاً: «يا شيخ باسل، أفضّل أن تعلمنا ما هي خطتك بالتحديد بدلاً من اللف والدوران مثل مروحة طائرة هليكوبتر». كان يتحدث هكذا دائماً، وقد ادّعى أنه عندما كان في أفغانستان أسقط طائرة هليكوبتر روسية بقذيفة أر بي جي.

وعندما كان يذكر طائرة الهليوكوبتر، كان يتلقى عبارات التهنئة والتملق من أفراد المجموعة، إلا في هذه المرة. ورأيت أن بعضهم على وشك أن يصرخ الله أكبر، لكنهم عندما لاحظوا أن وجه باسل قد امتقع غضباً، قرّروا ألا يفعلوا ذلك. حدّق باسل في المحارب الأفغاني لبضع ثوان وقال، «صبراً أيها المحارب الأفغاني. لن أكشف عن الخطة كلها إلا في الوقت المناسب إن شاء الله».

في وقت متأخر من ذلك المساء، وبعد انتهاء صلاة العشاء، كنّا متحلقين في الدائرة كالمعتاد، طلب مني باسل أن أنتظره لأنه كان يريد أن يحدّثني على انفراد.

«هل أنتظر أنا أيضاً؟» سأله عبدو، الذي سمعنا.

«لا، بارك الله فيك»، أجابه باسل، «اذهب إلى البيت واذكر الله كثيراً قبل أن تنام».

هزّ عبدو رأسه وغادر من دون أن يقول لي شيئاً.

حزنت على عبدو، لكنني كنت أعرف أنني بدأت أقترب من هدفي.

انتظرت عند المدخل متكئاً إلى الجدار. كان لا يزال هناك عدد من الأشخاص في المسجد، يقرأون. كانت نسائم عليلة تهب خارج المسجد، وخيّل إليّ أنني سأغادر المسجد لأذهب إلى بيت فيور، ونخرج في نزهة طويلة، من دون أن تكون هناك حاجة إلى مرسال للغرام. كنت غارقاً في أحلام يقظتي عندما قال باسل فجأة: «حسناً، هيا بنا نذهب يا ناصر».

لم أكن أعرف إلى أين سنذهب لكنني تردّدت في أن أسأله بما أننا تعلمنا أن لا نسأل الشيخ.

ما إن تجاوزنا ثانوية القادسية ومبنى مديرية الاتصالات السلكية واللاسلكية السعودية، حتى عرفت أننا متجهون إلى الحيّ الذي يسكنه.

عندما مررنا من تحت الجسر، تطلع حوله وتوقّف. مدّ يده وأعطيته يدي. وقال: «توجد حديقة هادئة هنا».

في الحديقة العامة، جلسنا على المقعد بجوار عمود الإنارة الوحيد الذي كان يعمل. كانت الإضاءة خافتة.

جلسنا تفصلنا مسافة قليلة عن بعضنا. لم يفه أحدنا بكلمة، ولم أسأله عن سبب إحضاري إلى هذا المكان. ثمّ اقترب باسل قليلاً وأسند يده على ساقي، وقال: «أه، يا أخ ناصر، منذ أن رأيتك لأول مرة، أحسست بأنك مستمع جيد».

فقلت: «بارك الله فيك».

«أشعر وكأنني أريد أن أحدثك عن أشياء كثيرة».

«شكراً لك».

«تعرف يا أخ ناصر، لقد أصبحت مطوّعاً منذ أربع سنوات، ولله الحمد».

فأجبت، «ما شاء الله، أمضيت أيامك ولياليك خلال هذه السنوات الأربع وأنت تكسب أجراً وثواباً عظيمين».

«نعم، حقاً».

لبث هادئاً.

اقترب مني. في تلك اللحظة، سمعنا صوت تهشم زجاج ناعم: نظر كلانا إلى الأسفل. فقد داس بقدمه اليمنى على حقن مكسورة.

لم يقل شيئاً لبرهة طويلة، ولم يعد صوته إلا عندما سمع هدير الدراجات النارية التي كانت تمرّ بسرعة من أمام الحديقة. نهض وكأنه يريد أن يقفز فوق السياج ويلتحق بهم. لكنه بدأ يدمدم، «أرجو أن تغفر لي يا الله. . اللهم اغفر لي».

واقفاً أمامي مولياً ظهره إليّ، سألني، «كم أبلغ من العمر في رأيك؟»

«لا أعرف»، أجبت. كان ذلك أحد الأشياء التي لم يخبرني به الفتيان في المسجد لعدم معرفتهم.

أجاب، «عمري أربعة وعشرون سنة».

فقلت: «ما شاء الله».

«نعم، مع أنني بلغت الرابعة والعشرين من العمر، فإنني لم أتزوج بعد».

لم أعرف ما أقول، لذلك لبثت صامتاً، وظللت جالساً على المقعد.

زجرني على صمتي، وقال: «يا أخي، قلت إنك مستمع جيد، لكن هذا لا يعني أن تبقى صامتاً. ألا تعرف كيف تواصل الحديث؟»

«ماذا تريد أن أقول؟»

«يمكنك أن تبدأ بسؤالي لماذا لم أتزوج».

«لماذا؟» سألته.

«النساء السعوديات يكلّفن مبالغ طائلة يا أخ ناصر. إذ يطلب بعض الآباء الطمّاعين كما تعرف حوالي مائة ألف ريال مهراً لبناتهم. حتى الآباء الطيبون يطلبون خمسين ألفاً».

«نعم، لقد سمعت ذلك».

هزّ رأسه. «من أين يظن هؤلاء الآباء أنه بوسعنا أن نحصل على هذه المبالغ؟ لا يمكنني أن أدبر مثل هذا المبلغ لأتزوج». أحنى رأسه قليلاً وبصق.

«لماذا لا تتزوّج امرأة مسلمة من بلد آخر؟»

«على أي حال، لنصمت الآن»، قال.

كان لا يزال واقفاً أمامي، لا يزال ينظر إلى بوابة الحديقة. ثمّ انحنى والتقط علبة فارغة ملقاة وبدأ يعبث بها. ثم ألقى بها بعيداً ووضع يديه في جيبيه. رجع خطوة إلى الوراء وجلس ثانية. تلامست فخذانا. وضع يده على حضني، لكنه ابتعد وهو يردد، «أستغفر الله، أستغفر الله».

كان بإمكاني أن أرى أنّه كان يفرك يديه. نهض وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً أمامي، ثمّ سار متجهاً إلى اليسار حيث لم يكن هناك نور واختفى في الظلام.

ساد صمت لبرهة. ثمّ سمعت تنهيدة خفيفة.

«عزيزتي فيور»، دمدمت لنفسي، «ستقرأين رسائلي قريباً».

في وقت لاحق من تلك الليلة، تلقيت مكالمة هاتفية في منتصف الليل. كانت امرأة تتحدث لغة أجنبية. كانت الكلمة الوحيدة التي فهمتها «برلين»، وظلّت تكرّر. «برلين. . . برلين». قلت لها إنني لا أفهم ماذا تقول وعندما هممت بإنهاء المكالمة، سمعت صوت ضحكة في الخلفية. لقد عشت مع تلك الضحكة سنوات عديدة. كانت ذات

نبرة عالية يتخللها صوت زقزقة قصير، «جاسم، هل هذا أنت؟» صرخت عبر الهاتف، «جاسم؟»

«نعم يا عزيزي».

«ماذا يجري؟» سألت.

«هل تغار؟» سألني، «هذه ريبيكا التي التقيت بها هذا المساء». ضحك. توقّف، وأضاف، «لقد اشتقت إليك يا عزيزي. أتمنّى أن أعود الآن، لكن الكفيل يصرّ على أن أبقى معه هنا».

سادت فترة طويلة من الصمت. وفجأة علت صرخة مدوية في الخلفية. «ناصر، يجب أن أذهب. الكفيل سكران. سلام يا عزيزي».

في اليوم التالي، كانت عينا باسل متألقتين.

كدأبه، كان يقود الحلقة في ذلك الوقت المتأخر من المساء. وبعد ساعات من الحديث عن أمور دينية، نهض على قدميه، وقال: «حسناً يا ناصر، تعال معي. سنذهب إلى مكان مهم. أما أنتم فابقوا واتلوا القرآن قبل أن تعودوا إلى بيوتكم».

«شيخ باسل، لقد وعدتني بأن توصلني إلى البيت اليوم»، قال عبدو.

تنهّد باسل وقال: «حسناً، لنذهب، بسرعة».

تبعنا باسل إلى سيارته المازدا. اتجه عبدو إلى المقعد الأمامي. «لا، لا تجلس هنا»، قال باسل لعبدو، «ناصر سيجلس في المقعد الأمامي من الآن وصاعداً».

لم يتحرّك عبدو. لبث واقفاً بجانب باب السيارة الأمامي عندما

اقتربت، يده لا تزال تمسك مقبض باب السيارة. حدّق فيّ برهة، قبل أن يبتعد. دفعني بكتفه عندما انتقل إلى الخلف.

قبل أن أركب السيارة نظرت إلى العمارة العالية ذات الطوابق التسعة التي تعلو البيوت الأخرى في حي النزلة. تذكرت رسائل فيور المجعّدة. لشّد ما اشتقت إلى التقاطها، ولشّد ما كانت يداي ترتعشان وأنا أفتحها، وما أشدّ شوقي إلى رؤيتها وهي تسير في الشارع بحذائها الوردي. تحسست جيب قميصي وتلمست الرسالة التي أحملها.

حبيبي،

يصعب عليّ أن أراك في الشارع وأن أتمالك نفسي ولا أهرع نحوك لألمسك. لم أعد متأكدة من هو المحظوظ فينا: أنت ـ الذي لم ير وجهي ـ أم أنا، التي رأيتك كثيراً إلى حد أنني أرغب في أن أكون معك تمزّقني إرباً إرباً.

ركبت السيارة وأغلقت الباب وانطلقنا.

وضع باسل شريط تسجيل لتلاوة القرآن بصوت إمام مكة المكرمة.

«يا له من صوت جميل»، قال، «إنه أكثر الرجال حظاً على وجه هذه الأرض فقد وهبه الله هذا الصوت ليصبح إمام مكة المكرمة. وأنت تعرف ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أنه إمام جميع مساجد العالم»، ورسم شكل دائرة بسبابته في الهواء عندما قال: «ما شاء الله. ما شاء الله».

«شيخ باسل، يمكنني أن أقول إن صوتك، عندما تقرأ القرآن، أفضل من أيّ صوت آخر سمعته. إنه جدير بأن يُسجّل ويُوزّع في جميع أنحاء العالم»، قال عبدو.

أضاء وجه باسل. نظر في المرآة الخلفية باتجاه عبدو وقال: «بارك الله فيك».

لكي لا أُستبعد، كان يجب أن أقول شيئاً لطيفاً لباسل. بعد لحظة، صحت: «في الحقيقة يا شيخ، لقد ذهبت إلى مكة المكرمة في مناسبات كثيرة، وصلّيت وراء إمامها، ودعوني أقول إنه عندما يتقاعد، لن يكون هناك شخص أفضل منك ليصبح إمام أكثر الأماكن قداسة على الأرض.

انعطف بسيارته إلى جانب الطريق وتوقّف. خشيت أن أكون قد قلت شيئاً غير مناسب. نظرت إليه مصدوماً عندما مدّ ذراعيه نحوي وقبّل جبهتي ويداه تمسكان وجهي بقوة.

أوقف باسل سيارته في شارع عريض بين شارعي النزلة ومكة المكرمة. في المكان الذي يقع فيه قسم شرطة النزلة بمحاذاة ساحة تحتفظ فيها الشرطة بالسيارات المعطوبة التي تعرضت لحوادث بشعة. «لقد وصلنا»، قال باسل لعبدو، وطلب منه أن ينزل من السيارة. التفت إلى المقعد الخلفي، ولوهلة خيّل إليّ أنّني رأيت كتفي عبدو الضخمتين قد غاصتا في صدره.

«هيا، تحرك يا عبدو. إنني مستعجل»، صرخ باسل.

ما إن ترّجل عبدو من السيارة، حتى انطلق باسل بسرعة كبيرة التصق معها كتفاي بظهر المقعد.

كانت الحديقة أكثر عتمة مما كانت عليه عندما ذهبنا إليها أنا وباسل. وكان عمود النور الوحيد الذي يعمل يومض الآن على نحو متقطّع.

رحت أنظر إلى باسل، وجهه يختفي في كلّ مرّة ينطفئ فيها الضوء. عندما عاد الضوء، كان لا يزال هناك يحدّق بي. انتابني أحساس عميق بالغثيان ونظرت بعيداً. أخذ يدي وأمسك بها. هذه المرة لم يستغفر ربه. بل راح يضغط أكثر.

«ناصر؟» كان هناك وميض رقيق في عينيه، شيء كنت قد رأيته من قبل في عيون العديد من الرجال في المقهى.

أجبت «نعم».

غاب الضوء ثانية وأخذ وجهه معه، لكن صوته ظل: «سأخبرك شيئاً».

عاد الضوء. «كما تعرف، لقد أصبحت مطوّعاً منذ أربع سنوات».

«نعم»، قلت ثانية.

«هل تعرف ماذا يعني ذلك بالنسبة لفتى كان سيئاً في الماضي؟»

أجبت، «أربع سنوات من الفضيلة».

أومض الضوء على وجهه. «لقد تركت فتياني منذ أربع سنوات».

تذكّرت ما كان قد قاله اليماني عن باسل. فقد قال: «لقد وجد الإمام الضرير باسل وهو في لحظة ضعف شديدة، بعد أن نجا بأعجوبة من الموت على دراجته النارية. كان من السهل على الإمام أن يهديه. لكن باسل في أعماقه كان لا يزال ابن شوارع، وهكذا سيظل دائماً».

نظرت إلى باسل وقلت: «سيجازيك الله إن شاء الله. لقد سمعت أنك أرسلت عشرة فتيان إلى أفغانستان».

«إن شاء الله»، قال بسرعة. غابت النظرة المألوفة إلى السماء وإطراقة الرأس. وشعرت فجأة بيديه فوق ثوبي. وعندما عاد الضوء، كان وجهه يكاد يلامس وجهي. أمال رأسه قليلاً إلى الجانب، ونظرت عيناه إلى شفتي. دفع رأسه إلى الأمام.

أمسكت برقبته بيدي، وهمست، «إفعل ما تفكّر في فعله وأؤكد لك

باسم الله الرحيم بأنني سأكسر أسنانك البيضاء الجميلة». دهشت من التهديد العنيف الذي خرج من فمي، لكنني اغتنمت الفرصة وقلت: «وغداً، أريدك أن تجعلني دليل الإمام أمام الجميع. أريد أن أحصل على الأجر أنا أيضاً. وإذا لم تفعل ذلك، فإني سأخبر الإمام بارك الله فيه بما حاولت أن تفعله لي هذه الليلة».

دفعته جانباً. انطفأ الضوء ثانية. وجدت طريقي إلى خارج الحديقة العامة من دون أن ألتفت إلى الوراء.

في البيت، عندما استعدت في ذاكرتي ما حدث لي مع باسل مرة ثانية، لم أصدّق ما فعلته. وبدا أن السعي وراء الحبّ قد فتح لي جانباً آخر لم أكن أعرفه. لكن تلك كانت معركة من أجل الحبّ، وفي المعركة تراق الدماء، قلت لنفسي بتردد، شاعراً أن الأسوأ لا يزال ماثلاً أمامي، لأنني كنت على يقين بأن باسل سيسعى إلى الانتقام مني. كان باسل ابن شوارع، وفي جدة، يتمتع أبناء الشوارع بذاكرة طويلة.

في اليوم التالي، وبعد صلاة الفجر من يوم الأحد، عندما كنّا متحلقين في شكل دائرة، وقف باسل ورائي، ووضع يده على كتفي، وأعلن أمام المجموعة، «من الآن وصاعداً سيصبح ناصر دليل الإمام».

نظرت إلى الأرض مذهولاً. لم أصدق ما سمعته. أخيراً، يا عزيزتي فيور، سيكتب أحدنا إلى الآخر.

رفعت عينيّ ونظرت إلى باسل لأشكره، لكنه لم يكن يبتسم.

الجزء السادس

مـرسـال الغـرام

في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم السبت، الثاني من أيلول (سبتمبر)، غادرت بيتي لمرافقة الإمام الضرير إلى كليّة البنات. كانت الرطوبة التي تغلّف جدة طوال الصيف قد بدأت تنحسر أخيراً. وكانت تلك دلالة على اقتراب الخريف، الفصل الأثير لديّ في السعودية ـ عندما يهبّ هواء بارد ينعش روحي.

وكنت ترى عدداً كبيراً من التلاميذ الذين يرتدون زيهم الجديد بعد أن عادوا إلى المدرسة. ما إن غادرت بيتي، حتى صادفت الأحمق. لبث واقفاً وراح يرمقني من الأعلى إلى الأسفل. رحت أحدّق فيه، فاتحاً عينيّ على وسعيهما بأصابعي لمجاراة نظرته. «هل أصبحت مطوّعاً الآن؟» سألني بصوته الحاد.

فأجبته: «أيوه، الحمد لله».

«منذ متى؟»

«أنظر أيها الأحمق...»

ما إن قلت له ذلك حتى صاح: «أترى، لا يمكنك أن تكون مطوّعاً جيداً. إنهم لا يشتمون الآخرين وينعتونهم بأقذع الأسماء».

«إنها زلّة لسان، ليغفر لي الله ذلك».

«إنك لست مطوّعاً حقيقياً»، قال بإصرار.

«ولم لا، هل الله يخصك أنت وحدك؟»

عندها رأيت الحذاء الوردي من بعيد. تركت الأحمق وأدرت له ظهري. كانت تمشي على مسافة بضعة أمتار وراء رجل لا بد أنه أبوها الذي كانت قد ذكرته لي في إحدى رسائلها. وبفارغ الصبر، أدركت أنني أستطيع أن أخمّن كيف يبدو شكله من قسماته. كان يبدو رجلاً جذّاباً. كان متوسط الطول، داكن البشرة، ذا وجه مستدير، وعينين بنيتين غامقتين، وشفتين ممتلئتين، ولحية سوداء مشذّبة تشذيباً جيداً. لقد أدخل وجهه الأنيق الرهبة في نفسي، مثل الممثل المصري المشهور أحمد زكي. إذ تتفاوت بشرة السعوديين كثيراً، فهناك سعوديون ذوو بشرة فاتحة جداً، وآخرون ذوو بشرة سمراء، ومنهم ذوو بشرة داكنة. من الممكن أن تخمّن بسهولة أنه سعودي، قلت لنفسي. وقد يبدو كذلك أنه ينتمي إلى أيّ بلد خليجي، بل ربما كان أصله من أفريقيا.

تساءلت إن كانت قد ورثت أياً من قسماته.

كان يمشي مسنداً يده اليسرى إلى بطنه المكورة، ويمسك طرف غترته بأصابعه. كان رأسه مرفوعاً، ولم يكن ينظر في عينيّ أحد وهو يشق طريقه. لعله كان يرافقها إلى الكليّة.

أسرعت نحوهما. عندما اقتربت، نظرت من فوق كتفه إلى فيور. كنت أعلم أنني سأكتب إليها أخيراً.

وفي الساعة السابعة إلا ربعاً، كنت أقف خارج بيت الإمام. قبل أن أدخل، رحت أدعو: «ربي اغفر لي لأنني أستغل عمى الشيخ، لكنني آمل أن أتمكن من أن أوازن بين خطبه التي تنمّ عن الحقد وبين سعيي إلى الحبّ».

كان باب بيت الإمام مفتوحاً. دخلت بعد أن قرعت الباب ثلاث مرات، كما طلب مني باسل أن أفعل. «أنا قادم يا ناصر»، صاح من داخل قسم النساء. قلت: «حسناً، أطال الله عمرك». خلعت حذائي واتجهت إلى غرفة الجلوس. كانت غرفة صغيرة ذات أثاث متواضع. وكان في غرفة الجلوس مجلس عربي تقليدي، تنتشر فيه وسائد وحصر ممدودة فوق سجادة سميكة زرقاء. وإلى يسار الغرفة، رفّ طويل ملئ بالكتب الإسلامية، وإلى جانب الرفّ، باب يفضي إلى باقي أجزاء البيت: إلى غرفة مكتب الإمام، وغرفة نومه، وقسم النساء. وكانت الحقيبة الجلدية السوداء القديمة ملقاة فوق إحدى الحصر. نظرت نحو الباب لأتأكد من أن الوضع آمن. جلست بجانب الحقيبة وفتحتها. نظرت في داخلها لأرى إن كان بإمكاني أن أدّس فيها بسهولة رسائلي التالية إلى فيور ـ في ذلك الصباح كان لديّ رسالة صغيرة. كان ذلك مجرد اختبار، للتأكد هل ستنجح خطتنا أم لا. كان فيها أربعة كتيبات إسلامية صغيرة، وقنينة عطر المسك، وبعض الأقلام، ودفتر عناوين صغير.

دسست رسالتي إلى فيور بين الكتيبات، وحرصت على أن لا تُرى عندما تُفتح الحقيبة. نهضت وذهبت لأجلس على وسادة قبالة الحقيبة. لففت ساقاً على ساق وثبّتّ عينيّ على الحقيبة متمنياً أن تسير الأمور على ما يرام.

دخل الإمام، يسير ببطء لكن بثبات وكأنه يرى شخصاً. لاحظت أن قدميه تنتعلان صندلاً بنيّ اللون. كانت أظافره مشذّبة بمهارة، لكن بشرته كانت جافة. نهضت وقبّلت جبهته. حملت الحقيبة، وألقيتها على كتفي وأمسكت ذراعه وقدته نحو الباب.

هبطنا من بيته إلى الشارع وانعطفت يميناً إلى شارع السوق الذي يعجّ بالمحلات والبائعين المتجولين. وبعد حوالي عشر دقائق، لاحت لي كليّة البنات: بناء أبيض مرتفع مسوّر بجدران عالية. التفت إلى الإمام وقلت: «أوشكنا أن نصل».

عند البوابة، بينما كنت أساعد الإمام على الدخول، قلت بصوت مرتفع: «إمامي العزيز، سيأتي خادمك ناصر ليعيدك قبل انتهاء الدوام بعشر دقائق، كيلا أرى الفتيات وهن يخرجن من البوابة». صحت لكي تسمعني فيور الواقفة على الجانب الآخر من الباب، ولكي تعرف أنني استطعت أخيراً أن أفتح درباً جديداً من التواصل معها.

«تكلّم بصوت منخفض لعن الله الشيطان»، قال الإمام هامساً، «فأنا أعمى، ولست أصمّ».

بعد ظهر ذلك اليوم، عدت إلى الكليّة لمرافقة الإمام إلى البيت. وصلت إلى العمارة، كما طلب مني، قبل انتهاء الدوام في المدرسة بعشر دقائق، كيلا أرى الفتيات وهن يغادرن المدرسة.

قرعت جرس البوابة الحديدية الثقيلة وقلت على الإنتركوم: «اسمي ناصر، لقد جئت لأرافق الإمام إلى البيت».

انتظرت عند البوابة التي فُتحت بعد بضع دقائق. فيور. كنت أعرف أنها الفتاة التي اختيرت لإحضار الإمام إلى البوابة. لبثت واقفاً لا أتحرك، راجياً أن أسمع صوتها، راجياً أن تأتي لتودع الإمام أو لتطلب منه أن يعتني بنفسه، أو لتتلو دعاء قصيراً. لكن الصوت الوحيد الذي سمعته هو صوت الإمام وهو يسعى لاجتياز باب الخروج الصغير. أعطاني عكازه أولاً، ثم حقيبته السوداء. شبكت ذراعه بذراعي ودسست الحقيبة السوداء تحت ذراعي الأخرى، واضعاً إياها قريباً من صدري.

في طريق العودة إلى بيته، لم يتوقف عن الكلام. كنت أنصت إليه لكنني لم أكن أسمع شيئاً. فقد كان عقلي يجول في مكان آخر: هل وجدت رسالتي؟ هل أتيحت لها الفرصة لقراءتها الآن؟ هل أتيحت لها الفرصة لكتابة ردّ عليها؟ قرّبت الحقيبة من وجهي، وكأنني سأكتشف ذلك من شمّ رائحة الجلد القديم.

عندما ساعدت الإمام على الدخول عبر باب بيته، طلب مني أن أضع حقيبته في غرفة الجلوس. أجبته: «سأنفذ كلّ ما تأمرني به يا شيخ».

عندما دخلنا غرفة الجلوس، فتحت الحقيبة وأخرجت الكتيبات التي كان المغلف الأبيض مدسوساً بينها. كاد غلاف أحد الكتيبات يتمزق عندما سحبت المغلف من مخبئه. حشرتها في جيبي وكنت على وشك أن أجري عندما تذكّرت أنني يجب أن أعيد الكتيبات إلى مكانها وأغلق الحقيبة.

بعد أن دسست الرسالة بأمان في جيبي، صحت قائلاً للإمام، الذي كان قابعاً في غرفة مكتبه: «أراك قريباً إن شاء الله».

فقال: «بارك الله فيك يا بني. امش ببطء واحرص على أن تتلو دعواتك في كلّ خطوة تخطوها».

«إن شاء الله».

ما إن أغلقت الباب، حتى هرعت إلى بيتي.

وصلت إلى البيت بسرعة، خلعت ثوبي، وجلست على سريري عاري الصدر. صفحتان كاملتان من فيور. عندما قرأت الفقرة الأولى، نظرت إلى السقف. تحرّكت يدي فوق فمي الفاغر غير مصدق.

كان يجري في عروقها دم إريتري مثلي. فقد كانت ابنة رجل إريتري من الجيل الثاني، الرجل الذي رأيته معها في ذلك الصباح. يا للغرابة، قلت لنفسي، لم يخطر لي أنه ربما كان من أصل إريتري. لكنني أدركت الآن أن هذا الأمر شديد الاحتمال، لأن الإريتريين اختلطوا مع الشعوب على الطرف الآخر من البحر الأحمر منذ قرون عديدة.

وقد دأب أبوها على القول إنه سعودي مع أن الحكومة لم تكن تعترف بذلك ولم تمنحه الجنسية السعودية على الإطلاق. لكنه كان رجلاً ميسوراً بعض الشيء، لأنه كان يعمل مساعداً شخصياً لرجل أعمال سعودي غني من أصل يمني جنوبي، ذي أملاك كثيرة، وله محلات كبيرة في جدة. وكانت أمّها ابنة رجل مصري، لكن بخلاف أسرة أبيها، فقد مُنحت أسرة أمّها الجنسية السعودية.

ألقيت نظرة سريعة على ما تبقى من الرسالة ورحت أقلّب الصفحات بيدي.

قالت فيور إن هناك مجازفة كبيرة في أن تكتب لي اسمها الحقيقي خشية أن تضيع واحدة من هذه الرسائل وتقع في يد أحدهم، لكنها قالت إنها أحبّت الاسم الجديد الذي أطلقته عليها ـ وإنها تريد أن أدعوها بهذا الاسم: فيور. وقالت إنها في التاسعة عشرة من عمرها، ووضعت خطاً بقلم الرصاص تحت هذا الرقم، ثمّ تابعت لتحكي لي قصّة التقاء أمّها وأبيها وزواجهما.

تم الزواج بعد أن التقى أبي ووالد أمّي في أحد المقاهي. وبدآ يتحدثان وبدا أن كلاً منهما قد أعجب بالآخر من أول كلمة قالاها.

وبعد أيام من لقائهما الأول، دخل الرجلان في أحاديث عميقة. وكان حديثهما يبدأ بالحديث عن الطقس، لكنهما سرعان ما أدركا أن لديهما أشياء مشتركة أخرى كثيرة: فقد كانا يفكّران بذات الطريقة وكانت أفكارهما متطابقة.

وفي أحد الأيام، اتفقا على أنه حان الوقت ليوطدا علاقتهما. «هل عندك ابنة؟» سأل أبي المصري الرجل السعودي؛ «نعم»، أجاب الرجل العجوز. لذلك قال أبي: «أريد أن أطلب يدها لتصبح زوجة لي».

«يشرّفني ذلك»، أجاب والد أمّي.

في أشد الأيام حرارة التي شهدتها جدة منذ عقد، وقف الرجلان أمام شيخ. وقال الشيخ لوالد أمّي، «أعلن هذا الرجل زوجاً لابنتك، في زواج مديد وسعيد إن شاء الله».

لكن ذلك القرار لم يلق استحساناً قوياً من أسرة والد أمّي. فقد قال كبير عائلة والد أمي «فليطّلقها».

فأجاب: «لن أطلّقها، أعطوني سبباً وجيهاً واحداً لأطلّقها».

نهض كبير العائلة، وقال: «حسناً، بما أن مزاجي رائق اليوم، فإني سأعطيك سببين: الأول أنه ليس عربياً، والثاني أنه أسود».

«لكن لا فرق بين عربي وأعجمي»، جاءت الإجابة.

«كان ذلك في الأزمان القديمة. وأريد أن أقول لك الآن ذلك. إذا لم تطلّق ابنتك من هذا الرجل الإريتري، فإن عائلتنا ستُنبذك».

هزّ والد أمّي كتفيه استهجاناً. لم يكترث. كما تبرأت عائلة أبي الإريترية منه لأنه لم يتزوج امرأة إريترية.

وولدت بعد سنة من زواج أمّي وأبي.

إنني حزينة لأنه لا يوجد لديّ أقارب من جانب أبي ولا من جانب أمّي، لكن على الأقل لديّ علاقة قوية مع أمّي. إنها أعزّ صديقة لي وهي تعني لي الكثير.

ثمّ كتبت لي عما حدث بعد زواج أبويها. ويبدو أنها طفلتهما الوحيدة لأن والدها لم يعد باستطاعه زيارة سرير أمّها ليلاً. وعندما سألته أمّها عن السبب، أجاب زوجها هادراً «بسبب هذا»، ولوّح بشهادة طبيب تعلن أنه يعاني من «وضع صحي حادّ».

لكن، حسب ما قالته فيور، فإن أمّها لم تكن تعتقد بوجود عائق صحي يمنع زوجها من جرّ ساقيه السمينتين إلى سريرها، بل إن سبب ذلك هو طريقته في الحياة: فقد كان يتناول طعاماً دسماً، ويدخّن النرجيلة، ويمضي معظم أوقاته مع أصدقائه الأغنياء في مقاهي جدة يحتسون القهوة المحلاة.

في صباح اليوم التالي، وفي غرفة جلوس الإمام، خبأت جوابي إلى فيور بين الكتيبات في حقيبته. خرجنا من البيت وانعطفنا يميناً إلى شارع السوق. لم يتحدث اليوم كثيراً، وهذا أمر جيد لأن عقلي كان في الرسالة المخبأة في الحقيبة، متسائلاً كيف ستجيب عليها.

فيور،

إن البدايات هي الأصعب دائماً. ومن السهولة أن يستسلم عقلي لاستحالة كتابة حتى جملة واحدة إليك. لكنني أضع الشاعر المبتلي القابع في داخلي طوع بنانك، يا عزيزتي فيور، وأعرّفك على نفسي من دون تردد.

اسمي ناصر، لكنك تعرفين ذلك. وأنا من إريتريا ولا أعرف اسم أبي. لكن في وثيقة سفر أمّي التابعة للأمم المتحدة، فإن اسمي الكامل هو ناصر سراج. وسراج هو الاسم الذي اختاره لي خالي عندما جاء وأخذنا أنا وأخي إلى جدة من مخيّم اللاجئين في السودان.

عندما وصلنا إلى المخيم، طلب مني أن أتوجه إلى الرجل الذي يرتدي قميصاً عليه شعار الصليب الأحمر، ليسجل أسماءنا في قائمة القادمين الجدّد إلى المخيم. وكنت قد ودّعت أمّي قبل يومين في إريتريا. داخل خيمة، كنت أقف أمام الرجل الذي كان يسجّلنا، وكنت أحمل أخي الصغير إبراهيم، الذي كان في الثالثة من العمر آنذاك، على ظهري.

حيّاني مبتسماً. أخبرته باسمي الأول وعندما سأل عن اسم أبي، أجبت، «راحيما». حدّق بي من وراء نظارته، وسأل هل راحيما هو اسم امرأة. «نعم، لكنه اسم أبي أيضاً، لأنها أبي أيضاً».

وضع قلمه وأمسك يدي، وقال إني عليّ ألا أخاف لأنه لن تسقط قنابل على المخيم. وطلب مني ثانية أن أخبره اسم أبي. «راحيما. لا يوجد أب في حياتي. لا توجد إلا أمّنا وكأنني قلت إنها أبونا وأمّنا وأعزّ صديقة لنا.» لكنه ألحّ أنه يجب أن يدوّن اسم رجل فقط، وأن أمّي لا تستطيع أن تنجبني من دون رجل. قلت إنني لم أر ذلك الرجل إلا مرّة واحدة عندما جاء لزيارة أمّي، ذات ليلة. كان ذلك الرجل أبي، قلت للموظف في مخيّم اللاجئين، لكنني كنت أعرفه فقط بأنه «العطّار».

عندما وصل خالي أصرّ على أن أحمل اسم أبيه، سراج. ومع أن اسم أمّي لم يكن مسجلاً في الاستمارة، فقد سررت لأن سراج هو اسم أسرتها أيضاً.

بعد لحظة توقف، حبيبتي، أعود إلى الحاضر لأتمنى لك كلّ الأشياء العظيمة التي يمكن أن يجلبها لك الحبّ.

حبيبك ناصر

كنت أعرف أن ذلك سيحدث في وقت ما، لكنني فوجئت بأنها استغرقت فترة طويلة. ففي صباح اليوم التالي صادفت جمال، وأنا في طريقي إلى البيت بعد أن أوصلت الإمام إلى الكليّة.

سألني: «ناصر؟ هل هذا أنت؟»

«نعم جمال، هذا أنا»، أجبته بثقة. كان واحداً من الرجال الذين يتردّدون على مقهى جاسم، وهو يملك مطعم قبالة شارع السوق.

كان يضع مئزراً أبيض، ملطخاً ببقع حمر وصفر. وكان الطبق الشهير الذي يقدمه لزبائنه يتألف من أمعاء وكبد ممزوجة بالزنجبيل، وحامض الليمون، وفيه كمية كبيرة من الزعفران الهندي، ومسحوق الفلفل الحار، والثوم الطازج.

قلت له: «يجب أن تقول السلام عليكم». هبّت عليّ رائحة يديه ومئزره. كان يحمل أربع حبات من الفلفل الحار والليمون الحامض.

اقترب مني وألقى عليّ نظرة فاحصة أخرى.

وسأل: «الثوب الذي ترتديه قصير. هل أصبحت مطوّعاً، لا يمكنني أن أصدّق ما تراه عيناي. ماذا جرى؟»

هززت كتفي غير عابئ.

فقال منهياً الحديث: «إذهب ولا تدعني أر وجهك ثانية».

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، أخرجت رسالة فيور من

حقيبة مرسال الغرام. لكنني لم أتمكن من الذهاب إلى البيت لقراءتها، لأنني بعد أن أوصلت الإمام إلى بيته، طلب مني أن أنتظره لكي أوصله إلى المسجد لاحقاً. وقال: «لديّ خطبة هامة يجب أن ألقيها».

كنت أعرف ما الذي يزعجه. فقد زاره البارحة شيخ يعمل في أكبر محكمة في جدة، وقال له: «أيها الإمام المبارك، لقد أصبحت النساء عاصيات، وبدأن يستخدمن شتى السبل لإغراء أولادنا وإيقاعهم في حبائل شرورهن. إنني قلق للغاية على شبابنا. فمنذ عدة أيام، وليغفر لي الله لأنني أقول ذلك أمامكم يا إخوتي الأكارم، رفعت امرأة من حي النزلة برقعها وأسفرت عن وجهها في منتصف الشارع، وكان وجهها مطلياً بالمساحيق والطلاء، وغمزت حامد بعينها. لكن الله كان معنا، لأن هذه المخلوقة الملعونة لم تكن تعرف أن حامد مطوّع. ومع أن إرخاء اللحية سنّة نبوية، فإن لحيته لا تنمو، لكن ذلك نعمة من عند الله. أرجوك يا إمام أن تذكّر أولادنا الشباب بأن يتجنبوا إغواء النساء لهم، وأن تقول لهم إن المرأة الساقطة هي السبيل إلى نار جهنم».

«ابق معي ولا تقل شيئاً وأنا أكتب الموعظة»، أمرني الإمام، وتربّع على الحصيرة.

نظرت إليه. كان يتأمل بعمق. كنت أعرف أنّه سيلقي موعظة يحذّر فيها الفتيان من إغواء النساء الفاجرات لهم. لكن ماذا لو عرف أن عاشقاً فخوراً يجلس إلى جانبه في غرفة جلوسه الآن؟ جعلتني الفكرة أبتسم.

عندما أوصلت الإمام إلى المسجد، كان يلهث وكأنني أوصل ثوراً هائجاً إلى حلبة المصارعة. نظرت إلى العمارة التي تسكن فيها فيور. كنت لا أزال أجهل في أي طابق تسكن، لكنني كنت آمل أنها تقيم في

الطوابق العليا، لأن خطبة الإمام ستملأ جميع البيوت، وتذكّرت ما قاله لي جاسم عن خطب هذا الإمام، «يمكنك أن تتقي المطر إذا ما هرعت ووقفت تحت شجرة، ويمكنك أن تحصّن نفسك داخل بيتك إذا ما هبّت عاصفة، وتصبح في مأمن منها، لكن صوت هذا الإمام جهوري وقوي إلى درجة أنه لا يستطيع أن يكون الأشخاص آمنين داخل بيوتهم من سماع خطبه ومواعظه».

جلست في الصف الأمامي ونظرت إلى يميني ورأيت باسل يحدّق فيّ. أطبق على فكّيه وأشاح بوجهه.

بدأ الإمام خطبته: «أيها الأخوة المسلمون، إن قلبي يذرف الدمع اليوم. إن روحي تتفطر ألماً، وأذنيّ تطنّان بألم. كيف؟ أسأل نفسي، كيف وصلت أمّة النبي إلى هذه الدرك من الفقر الروحي والعقلي، وأسأل نفسي كيف، هل يمكن لمن هداهم الله إلى الصراط المستقيم، أن يهبطوا إلى هذا الدرك الأسفل من الإثم الذي لا يغتفر؟ إنكم نائمون وبناتكم وزوجاتكم يتجوّلن في الشوارع سافرات عن وجوههن ساعيات إلى نشر آفاتهن ومفاسدهن بين شبابنا، جيلنا القادم، ساعيات إلى إغراء رجالنا وإيقاعهم في حبائل الشيطان والشرّ المستطير. أين أنتم أيها المسلمون، يا من حكمتم ذات يوم بقبضة من حديد العالم من شرقه إلى غربه؟ أين أنتم، أيها المسلمون، يا من كنتم عيون أسركم وآذانها وقلبها وروحها؟»

بينما كنت أستمع إلى خطبة الإمام، أحسست بعيني باسل ترمقانني. وعندما كنت ألتفت لمواجهته، كان يبتسم هازئاً، ويهزّ رأسه في الوقت نفسه.

في عصر يوم الثلاثاء، تلقيت رد فعل فيور على خطبة الإمام البارحة. فقد تمكنت من إلقاء نظرة سريعة على رسالتها في مرحاض بيت الإمام، لكنني لم أتمكن من قراءتها جيداً إلا عندما عدت إلى البيت في المساء.

بدأت أقرأ، وأصبحت أدرك أنه لا يفصلني عن بيتها سوى مئة متر، لا بد أن فيور قابعة الآن في غرفتها، ولعلها تؤدي فروضها المدرسية. تمنيت أن أتمكن من إرسال ساع سحري يستطيع أن يخترق العمارة التي تقيم فيها، ويصعد الدرج زاحفاً، ويتسلل على أطراف أصابعه من قسم الرجال، وينسل من تحت الباب إلى قسم النساء، ثم إلى غرفتها، ويتسلق منضدتها، ويختطف صوتها ويجري به بأقصى ما يمكنه من سرعة، أسرع من جميع الرجال في هذه المدينة، ويحضره لي.

حبيبي،

لقد سمعت خطبة الإمام البارحة. من المضحك أن يقول إن جميع المشاكل في مجتمعنا سببها النساء لأنهن يتمتعن بحرية كبيرة. لو كنت أمتلك أيّ حرية، لهرعت الآن إلى غرفتك وقلت لك هذه الكلمات بنفسي بدلاً من كل هذه الكتابة في الليل، ثم أنتظر يوماً كاملاً حتى تصل إليك.

هل نسي الإمام أن سيدنا محمد كان يعمل عند خديجة بنت خويلد، التاجرة وسيدّة الأعمال، قبل أن يصبح نبياً؟ ألم تأخذه تحت جناحها وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره وتعلّمه أصول التجارة؟ كيف يمكنه أن يقول إن السبب الذي يجعل النساء غير قادرات على العمل هو أنهن غبيات؟ ألا يتذكّر أن السيدة خديجة كانت أنجح

نساء الأعمال في ذلك الزمن، ذلك الزمن عندما كانت قبيلتها تئد الفتيات وهن حيّات؟ ألم تحقق نجاحاً كبيراً في وقت كان فيه قطاع الطرق القساة يملؤون طريق التجارة من مكة المكرمة إلى الشام، وكان التجّار يجتازون مساحات شاسعة من الصحارى، وكانت تضاريس الأرض تصعب على أقوى الرجال؟ كيف يمكنه أن ينسى أن النبي محمد نفسه كان يتحدّث دائماً عن دعم السيدة خديجة له؟ وأنها أول من اعتنق الإسلام، وأنها كانت تمتلك ثروة استخدمتها لنشر الإسلام في ذلك الزمن. فقد ساعدت الأموال التي قدمتها إلى النبي محمد على إعتاق العبيد، وساعدت أصحابه على حلّ ضائقتهم المالية، وساعدت بثروتها أتباع الرسول على الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة. كيف ينسى كلّ هذا؟

وكيف يمكنه أن يقول إن السبب الذي لا يمكن أن تصبح فيه النساء حاكمات هو أنهن ضعيفات عاطفياً ولأنهن يحضن؟ لو كان يستطيع أن يرى، لصعد إلى مئذنة مسجده ونظر عبر البحر الأحمر باتجاه تلك البلدان الأفريقية حيث حكمت الكثير من الملكات بعضاً من أشهر الممالك في التاريخ. ولو قرأ له أحدهم كتب التاريخ من تلك البلدان لعرف شيئاً عن ملكة سبأ وكليوباترا ونفرتيتي، ولسمع بمملكة النوبة القديمة التي حكمتها ملكات لسنوات تفوق سنوات حياته.

حبيبي، أرجو أن تغفر لي هذه النبرة التي تنم عن الغضب، لكن أرجو أن تتفهم سبب إحباطي. حتى السيدة خديجة، رضي الله عنها وبارك الله في روحها، التي عاشت منذ أكثر من ألف سنة، كانت تتمتع بحقوق أكثر بكثير مما نتمتع به نحن الفتيات اللاتي نعيش في القرن العشرين.

في جميع الأحوال، أعود الآن إليك. إذن قلت لي إنك ابن امرأة. من الآن وصاعداً، عندما أفكّر بك، عندما أنادي اسمك في غرفتي، سأقول: ناصر رحيما. ويمكنني أن أقول بفخر: «هذا الشبل من تلك اللبوة».

هل يمكنك أن تخبرني المزيد عن أمّك وعن حياتك معها؟ أيّ نوع من النساء كانت؟ وماذا عن أبيك، العطّار الغامض؟

غداً، عندما تأتي لتأخذ حقيبة الإمام، هل يمكنك أن تضع يدك قليلاً على عكازه؟ ستكون يدي بانتظارك. أريد أن ألمسك، وبذلك، عندما نعود إلى عالمينا المنفصلين، يكون لدى أحدنا شيء من الآخر يستطيع أن يتعلق به.

قبلات من قلب روح غاضبة،

حبيبتك فيور

في عصر يوم الأربعاء، فُتحت البوابة، واقتربت من باب الخروج الصغير. رأيت يداً مكسوة بقفاز تدفع عكاز الإمام نحوي. مددت ذراعي الأيمن لآخذها وتلامست يدانا.

تسمّرت في مكاني.

ضغطت بأصابعها على ظاهر يدي، لثانية واحدة فقط. أغمضت عيني. عصرت يدي، ثم راحت تداعبها بأطراف أصابعها، الواحدة تلو الأخرى. كان القفاز دافئاً ومخملي الملمس، جعل الجلد الذي لمسه يتوهج. أحسست بمسامات جلدي تتفتح وكأنها تريد أن تحتفظ بذلك الدفء. ضغطت شفتي بقوة لأكتم شعوري بالإثارة.

أرخت يدي الأخرى قبضتها على الحقيبة وسقطت. تركت رسغي

واختفى القفاز. خرج الشيخ متعثراً من باب الخروج. كنت منهمكاً في تفحص يدي اليمنى. «ناصر، هل أنت على ما يرام؟» سأل الإمام. كنت أتتبّع بأصابعي ثانية حركات أصابعها وأتذكر لمساتها في ذاكرتي. «ناصر؟ أجبني. أين أنت؟» نظرت إليه، راح يتلمّس بيديه حتى وجد وجهي. «آه، ها أنت ذا».

انحنيت والتقطت الحقيبة وأخذت ذراعه بيدي اليسرى. سألني، «هل أنت على ما يرام؟»

فكّرت لوهلة، ثمّ قلت: «نعم يا شيخ، أنا على ما يرام، لكنني جرحت يدي اليمنى عندما كنت تلقي درسك. أعرف أنه ليس مسموحاً لي أن أمسكك بيدي اليسرى، لكنني أستطيع أن أفعل ذلك هذه المرة فقط؟ إنها تؤلمني حقاً».

«ماذا حدث يا بني؟» سأل.

قرّبت ظاهر يدي من وجهي، وقبّلت بصمت البقعة التي لامستني فيها أصابعها.

«ناصر؟» قال، رافعاً صوته، «إني أسألك».

«نعم يا إمام. أرجوك سامحني»، قلت، وأنا لا أزال أتطلع إلى يدي، كما لو كانت آثار أصابعها لا تزال باقية هناك. «كنت أغلي قدراً من الماء واندلق عرضاً على يدي اليمنى».

«سبحان الله، أعطني إياها لأقرا عليها بعض الآيات القرآنية، وعندها ستشفى بعونه تعالى».

«لا، لا».

«ماذا تقول؟ هل ترفض أن تدعني أقرأ آيات قرآنية على يدك؟»

«لا، ليس كذلك. لكن».

«من دون لكن ومن دون إذا. مدّها لي على الفور. إن القرآن أفضل دواء».

مددت يدي نحو فمه الذي كان مفتوحاً قليلاً مستعداً ليبصق على يدي بعد أن قرأ إحدى السور. سحبتها. «لا، يا شيخ، ليس لأنني لا أريدك أن تقرأ القرآن على يدي. بل لمجرد أنني، في الحقيقة...»

«في الحقيقة ماذا؟» سألني.

فقلت: «ها هي ذي يدي يا إمام» وأغمضت عيني.

أرسلت رسالتي التالية إلى فيور وحدثتها فيها عن أمّي وعما جرى يوم زفافها. كما أخبرتها بأنني أنا وإبراهيم أبناء علاقة حبّ عرضية بين أمّي والعطّار.

تزوجت أمّي رجلاً يدعى هاغووس إدريس، قبل سنتين من لقائها بأبي. لكن الزواج لم يدم أكثر من ساعة واحدة.

أتمّت أمّي وزوجها زواجهما في ليلة زفافهما، حسب التقاليد السائدة في قريتنا الواقعة في المنطقة الشمالية الغربية من أسمرة، عندما كان المدعوون يقفون خارج كوخهما. وعندما اقتربت الساعة من منتصف الليل، دخل اشبين العريس. أضاء مصباح زيت ووضعه بجانب السرير. ووضع على الوسادة قطعة قماش بيضاء مربعة.

عندما خرج، قال أصبح كلّ شيء جاهزاً وحان الوقت لكي تدخل العروس والعريس. توّقف جميع المدعوين عن الرقص والغناء وأشعلوا مصابيح أخرى في الساحة. لبثوا صامتين خارج الكوخ بانتظار أخبار

الليلة الهامة وهي: قطعة القماش المبقّعة بدم أمّي التي تثبت أنها عذراء. سمع المدعوون أولاً صوت أنين، واقترب اشبين العريس من باب الكوخ استعداداً لتناول قطعة القماش المبللة بالدم.

أما داخل الكوخ، فقد أنهى الزوج مضاجعة زوجته لكن لم تكن هناك نقطة دمّ. أمسك الخرقة البيضاء وجلس ساكناً، وسأل أمّي «لماذا لم تخبريني؟» لم يصرخ، كما قالت لي، بل سألها بلطف.

فردّت، «ولماذا عليّ أن أخبرك؟ هل أخبرتني أنت بالذي فعلته قبل زواجنا؟»

أمسكت يده. دفعها جانباً، وقال: «لكنني...»

لم تدعه أمّي ينهي جملته. «لكنك ماذا؟ رجل؟ ولأنك رجل، تستطيع أن تفعل أيّ شيء وكلّ شيء تريد. يا زوجي العزيز، بالطبع كان عندي عشاق آخرون. وأعرف جيداً أنك نمت مع نساء أخريات. والفرق الوحيد هو أن أحداً لم يدنك بسبب ذلك».

رفع بنطلونه. وحدّقت أمّي فيه.

وقالت: «زوجي العزيز اسمعني أرجوك. أعرف نساء كثيرات يعاشرن رجالاً قبل زواجهن، ثم يذهبن إلى أحد الأطباء في أسمرة ويجرين عملية لترقيع بكارتهن. لكنني فضّلت ألا أفعل ذلك، لأن ماضيّ هو لي، ولن أطلب منك أن تمحوه».

«لقد حذّروني منك»، قال لأمّي، وهو يبحث عن ربطة عنقه، «كان يجب أن أستمع إلى ما يقولونه».

أطرقت أمّي برأسها ووضعت يديها على صدرها بيأس، «لكنك كنت مع نساء أيضاً، وهل هذا أمر تقليدي؟»

« كان يجب أن أنصت لما قاله لي الرجال الآخرون. لكن قلبي أعمى أحاسيسي. رفضت أن أصدق ما أخبروني به. ماذا سأقول. . . . »

نظرت إلى الأعلى. «تقول لمن؟ «وأبعدت أغطية الفراش عنها، وقالت: «هذا بيني وبينك. أظن أن قلوبنا تشبه المحيط. فهي عميقة تكفي لدفن أسرار لا تحصى، تخفي الماضي، ولا تزال لها القدرة على العطاء. لننس الماضي وليحبّ أحدنا الآخر».

«لكن ماذا سأقول للمدعوين؟ إنهم ينتظرون في الخارج. كيف يمكنني أن أواجههم؟»

في تلك اللحظة، وثبت أمّي واقفة، وارتدت ثيابها، وانتزعت مصباح الزيت والخرقة البيضاء من يد زوجها، واندفعت إلى الخارج.

صاح، «ماذا تفعلين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟»

دفعت جانباً الاشبين، الذي كان لا يزال ينتظر خارج الباب، وتوجّهت إلى المدعوين، وقالت: «ها هي الخرقة»، وأخذت تلوّح بها، «ونعم، يا ضيوفي الأعزاء، إنها لا تزال بيضاء».

بعد لحظات اندفع زوج أمّي من الكوخ ومن القرية، إلى الأبد. كما خرجت عائلتها من حياتها. لكن سميرة، صديقة طفولة أمّي التي كانت تعيش في حيّ تلّ العشاق، أُعجبت كثيراً بما فعلته أمّي لذلك أقسمت أن تبقى إلى جانبها.

بعد مرور سنة على زفاف أمّي الفاشل، وعندما كانت تعيش مع سميرة ومع فتيات أخريات في حيّ تلّ العشاق، وقعت أمّي في حبّ رجل يدعى «العطّار». لكنه كان رجلاً أثيوبياً أقسم بأن يعيش حياة رحّالة. كان يبيع العطْر الذي كان يستورده من أنحاء العالم عن طريق

البحر، في مختلف مناطق الحبشة. ومع أن كلاً منهما أحبّ الآخر بقوة، تركها بعد بضعة أشهر عندما كانت حاملاً بي. لم تتمكن أمّي من نسيانه تماماً. وعندما عاد إلى قريتنا وكنت وقتها في السادسة من عمري، دامت زيارته ليلة واحدة فقط، وهي الليلة التي حبلت أميّ فيها بإبراهيم.

مر أسبوع على بدء دراستها في الكليّة، من دون أن أعرف ذلك. كان من الصعب تخيّل أنّني أكتب إلى امرأة في جدة جميع أسراري وأحلامي، وأخبرها ما الذي يجعلني سعيداً وحزيناً. كنت في غاية السعادة. كنت أستيقظ عند الفجر، وأغني مثل الطيور خارج غرفتي. وفي الليل، كنت أغطي نفسي في السرير برسائلها وكأنها البوابة إلى عالمها.

كانت فترة من السعادة، لكنها لم تدم طويلاً. كنت أعرف أنها كانت مسألة وقت قبل أن يعود يحيى وهاني وجاسم. ثمّ عاد باسل. وفي كلّ مرّة كنت أرى فيها وجهه وابتسامته، أتذكّر الحديقة وتهديداتي له التي استخدمتها ضدّه.

في يوم الاثنين التالي، كنت قد غططت في النوم لفترة من الوقت عندما سمعت فجأة قرعاً قوياً على باب شقتي. استويت جالساً. من يمكن أن يكون؟

لكنني سمعت صوتاً مألوفاً يناديني. «ناصر؟ ناصر؟» كان يحيى يصرخ بأعلى صوته. كان بإمكاني أن أعرف أنّه في حالة نشوة من تعاطيه المخدّرات. رحت أخبط على وسادتي. خيّل إليّ أنه سيعود هو وهاني لاحقاً. لم أكن أعرف كيف أتعامل معهما. فإذا عرف يحيى أنني

أصبحت مطوّعاً، فلن يتركني بسلام للحظة واحدة. تذكّرت ما كان قد قاله عندما أصبح زب الأرض مطوّعاً، وأقسم بأنّه سيتعقّب كلّ من فعل ذلك لصديقه.

اقتربت من الباب خلسة.

سمعت صوت هاني أيضاً. «يحيى، إنها الواحدة صباحاً. ربما كان نائماً. لنذهب».

«دعني أحاول مرة أخرى»، قال يحيى.

قرع الباب، وهو يصيح، «ناصر؟ ناصر؟»

سادت لحظة من الهدوء، ثمّ سمعت خبطة قوية على الباب مرة أخرى. سمعت هاني يصيح بيحيى، «لماذا أنت عنيف هكذا دائماً؟»

«اخرس يا غاندي»، صاح يحيى.

ابتسمت ابتسامة عريضة. لقد اشتقت إلى أصدقائي. أردت أن أفتح الباب، لكنني لم أستطع. عدت على أطراف أصابعي إلى السرير وحاولت أن أنام مجدداً.

أمضيت ليلة مؤرقة. لم أعرف ماذا أفعل إذا ما رآني أصدقائي في الشارع برفقة الإمام. لم يكن هاني حقاً هو المشكلة، فقد كان يعمل أثناء النهار في شركة الاستيراد والتصدير التي يملكها والده، وكان يأتي إلى حي النزلة من حين إلى آخر. كما كان يتفهمني أكثر ويتركني وشأني إذا طلبت منه ذلك. لكن يحيى لم يكن يحب ذلك على الإطلاق. وكان يعيش من الأموال التي ورثها عن أبيه. وكنّا نمزح ونقول إن عمل يحيى الدائم ينحصر في مطاردة الصبية، كما كان يعمل وقتاً إضافياً. لا بد أني سألتقي به في الشارع قريباً وعليّ أن أختلق عذراً لأوقفه عن مضايقتي.

بزغ صباح يوم الثلاثاء، ولم تكن لديّ فكرة كيف يمكنني أن أتحاشى يحيى.

حلّ العصر. ذهبت لمرافقة الإمام. في طريق العودة، سمعت عدداً من الأشخاص يتجادلون بصوت مرتفع. تطلعت حولي ورأيت يحيى على دراجته النارية.

أشحت بوجهي بسرعة. نظرت من طرف عيني ورأيته يقود دراجته بسرعة كبيرة باتجاه حي النزلة. كان هناك غلام يجلس على المقعد الجلدي الجديد خلفه. يبدو أن إسماعيل الميكانيكي أنهى عمله في الوقت المحدد. أطرقت برأسي ورحت أغذّ خطواتي. قال الشيخ يحثني، «تمهّل يا بني».

«آسف يا فضيلة الشيخ»، قلت، وكنت أرجو أن أتمكن من تفادي يحيى.

لكن اللقاء مع يحيى حدث بعد ذلك مباشرة. فقد صادفني في صباح اليوم التالي. كان اليوم الأخير من الأسبوع الدراسي وكنت أرافق الإمام إلى بيته. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة. عندما سمعت صوت الدراجة النارية ورائي، تمكنت من تمييز الضجيج على الفور. التفت. كان يحيى يسير نحونا، وعيناه مثبّتتان عليّ. أوقف درّاجته وجاء نحوي أنا والإمام. أمسكني من ذراعي الطليقة ليوقفني.

«ناصر؟»

أبعدت يده عني وواصلت طريقي.

«ناصر؟ هذا أنت، يا الله! ما الذي دهاك؟ ما هذه الثياب؟» صاح.

«من هذا؟» سألني الإمام.

لم أجبه.

أمسك يحيى بيدي وشدّني نحوه بعيداً عن الإمام. فقد الإمام توازنه وكاد أن يقع. استدرت بسبب القوة التي سحبني فيها، وكاد وجهي يلتصق بوجهه. «ماذا دهاك؟» قال هامساً.

«الله وحده هو الذي يرشد الناس إلى الصراط المستقيم»، ردّ الإمام، «من أنت، قبحّك الله؟»

فأجاب يحيى، «إنني أتكلّم مع صديقي، لا تتدخل بيننا».

«لعنك الله: هل تعرف من أنا؟»

واجه يحيى الإمام وصاح في وجهه، «نعم، أعرف من أنت. أنت الذي تغيّر أفكار جميع أصدقائي»، والتفت نحوي وصاح، «ألم تقل إنّك لن تتغيّر أبداً؟ ألم تقل إنك لن تذهب إلى مسجد الإمام الضرير؟ لأنه...»

رفعت حقيبة الإمام وضربت يحيى بقوة على وجهه فترنح إلى الخلف على الرصيف واصطدم ببائع متجول يجلس بجانب أربعة أكياس ضخمة من الخيش مليئة بالتمر المجلوب من المدينة المنوّرة.

التفتُّ على الفور إلى الإمام وقلت: «إنه كاذب. إنه يغار مني لأنني أصبحت مرافقاً لك. لكنني ضربته ضربة قوية ووقع على الأرض».

«أعرف يا بني. لقد سمعته. بارك الله فيك».

نظرت إلى الوراء، وكان بائع التمر وأصدقاؤه قد أمسكوا بيحيى. عندما وصلنا إلى نهاية الطريق، كنت لا أزال أسمع يحيى وهو يسبني بعبارات بذيئة.

نشر يحيى الخبر. في عطلة نهاية ذلك الأسبوع، بدأت العصابة كلها تطاردني. وفي مساء يوم الأربعاء، جاء يحيى مع بعض أصدقائه ووقفوا في الشارع قبالة المسجد، مثل متظاهرين متأهبين للتعبير عن احتجاجهم. جاء مع هاني وشابين آخرين لا أعرفهما.

لكن يحيى كان أكثرهم إصراراً. فقد كان يتابعني في كلّ حركة أقوم بها، يتعقّبني على درّاجته، وغلامه يجلس في المقعد الخلفي، يلفّ ذراعيه حول خصر يحيى. وكان يتبعني مثل ظلي وأنا أقود الإمام إلى مساجد الحيّ الأخرى الذي كان يلقي فيها خطبه، وعندما كنت أرافقه لزيارة أصدقائه أو لرؤية طبيبه، أو عندما كان يذهب للالتقاء بموظف في وزارة التعليم العالي.

كنت أعرف أنّه كان يتحيّن اللحظة المناسبة ليحطمني.

في عصر يوم السبت، كنت برفقة الإمام عند الخيّاط. كان قد دخل إلى الغرفة الخلفية لكي يأخذ الخيّاط قياساته. اندفع يحيى إلى المحل. دفعني جانباً، متجاهلاً مساعد المبيعات، وألقى بي فوق كومة من الأقمشة. قرّب وجهه من وجهي وهدّدني قائلاً: «إذا لم تترك الإمام بسرعة، سأكسر كلّ عظمة في جسمك. لا أريد أن يسلبني الإمام المزيد من أصدقائي. هل تسمعني؟»

دفعني من صدري وغادر المحل، ملوّحاً بذراعيه الضخمتين أمام الناس وهو يصيح، «إلامَ تنظرون؟ إن كنتم تريدون بعضاً من هذا، فأخبروني».

في اليوم التالي، جاء يحيى وهاني إلى شقّتي في ساعة متأخرة من الليل، وحاولا إقناعي بأن أتوقف عن كوني مطوّعاً، لكنني تشبثت

بموقفي إزاء تهديدات يحيى، وقلت إنّني اخترت الصراط المستقيم ولن أتراجع. وقلت له: «تستطيع أن تفعل ما تشاء».

وفجأة قفز يحيى فوقي وأخذ يكيل الضربات على صدري، عند مدخل شقّتي. كنت أتلقى لكماته دون أن أقاومه.

لم أر من قبل عينيه وهما تقدحان كلّ هذا الشرّ والغضب. وكان كلما ضربني أكثر، ازداد إدراكي بأنّه يفعل ذلك لأنه يعتقد أنه فقد صديقاً آخر لصالح الإمام كما فقد فيصل وزب الأرض. وكنت أشعر بحزنه أكثر مما كنت أشعر بقوّة ضرباته. وحزنت لأنني لم أكن قادراً على تفسير السبب الذي جعلني أرافق الإمام، ولأنني لم أكن أستطيع أن أوضّح له ولهاني مدى سعادتي لأنني وجدت فيور. كنت أريد أن أجعل يحيى يتوقف عن ضربي وأقول له الحقيقة. كنت أريد أن أقول له: «لن أذهب إلى أيّ مكان. لن أموت في أفغانستان. إنني حيّ أرزق. وفي الحقيقة، لم أشعر في حياتي بأنني حيّ كما أشعر الآن. إنني أحبّ امرأة». لكنني لم أقل شيئاً، بل كنت أتلقى ضرباته بصمت. لم يكن بإمكاني أن أخبره عن فيور. كنت أعيش حلماً وكنت أعرف أنني لو أخبرت يحيى وهاني، فلن يتمكنا من الاحتفاظ بسرّ قصّة حبّ بين فتى وفتاة في حي النزلة.

تمدّدت على الأرض أشدّ على بطني. كان يحيى منحنياً فوقي. خيّل إليّ أنّه سيوّجه لكمة إلى وجهي انتقاماً مني على خيانتي له. لكنه قال بدلاً من ذلك: «لقد انتهت صداقتنا. إياك أن تتصل بي أو تتكلم معي إذا ما صادفتني في الشارع، أتسمعني؟»

ووّجه لكمة إلى بطني بقبضته.

«يكفي»، صاح هاني في وجه يحيى، «لقد فضّل الإمام علينا. ليذهب إلى الجحيم. هيا بنا نذهب».

مرت أيام واستمر التواصل مع فيور بواسطة مرسال الغرام. لقد كلّفني الارتباط به آخر صديقين لي في جدة، لكنه لا يقدّر بثمن عندي. فلولاه، لما كتبت إلى فيور ولما قرأت رسائلها الحسّية الجميلة. كنت أعيش أجمل أيام حياتي. كنت متيماً بها.

عصر يوم الجمعة. كانت الكليّة قد أُغلقت، ولم تعد هناك أي رسائل من فيور. وبعد الصلاة، قدت الإمام إلى بيته وطلب مني أن أبقى معه لتناول طعام الغداء، وقال: «سيأتي ضيف مهم لزيارتي، وأريدك أن تبقى هنا».

كان عليّ أن أقبل مع أنني كنت أرغب في المكوث وحدي في غرفتي برفقة رسائل فيور. وعندما عدنا من المسجد، كانت رائحة رزّ «الكبسة» تفوح من بيت الإمام.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى قرع الجرس. كان باسل يرافقه رجل لم أره من قبل.

صافحني باسل بحماسة، وقال: «كيف حالك يا ناصر؟»

تساءلت لماذا يبدو سعيداً إلى هذه الدرجة وماذا ينوي أن يفعل عندما ترك يدي وراح يعرّفني على الرجل الواقف بجانبه. قال: «هذا هو الشيخ خليل بن طلال. إنه مسؤول في قسم الشرطة الدينية في جدة، بارك الله فيه».

شعرت بقطرات من العرق البارد تزحف على ظهري.

بدأ رئيس الشرطة ينظر إليّ بثبات. مددت يدي ورفع يده ببطء.

تصافحنا، وعندما قبّلت جبهته لأظهر احترامي له، قلت بصوت هادئ: «يسعدني لقاؤك».

كان رجلاً ذا لحية، فاتح البشرة، طويلاً ونحيفاً، ويمشي بانحناءة طفيفة. كان بعمر الإمام تقريباً. وكان يضع غترة مزركشة بمربعات حمراء وبيضاء اللون، ويكاد ثوبه يصل إلى كاحليه.

جلسنا في غرفة الجلوس في شكل نصف دائرة. جلس مسؤول الشرطة الدينية بين الإمام وباسل، وجلست إلى يسار الإمام، قبالة باسل تقريباً.

حاولت أن أفهم ما يجري. ومع أنني كنت أعرف أن الإمام على علاقة طيبة مع قسم الشرطة الدينية في جدة، فقد كانت هذه الزيارة إلى بيت الإمام أمراً غير عادي. هل لهذه الزيارة علاقة بي؟

وكلما رفعت رأسي ونظرت إلى الأعلى، أشاح باسل بعينيه عن الإمام ومسؤول الشرطة الدينية ليحدّق بي وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

وفجأة سمعنا صوت تصفيق. كانت زوجة الإمام تعلن أن الغداء قد أصبح جاهزاً.

لم يكن الإمام يريد أن يسمع أحد صوت المرأة، وكان يقول في مواعظه إنه يحظر على المرأة أن تتكلم في حضور رجل غريب؛ لذلك عندما أصبح طعام الغداء جاهزاً، وقفت زوجة الإمام وراء الباب المغلق المفضي إلى باقي أجزاء البيت، وصفّقت بيدها.

«ناصر، أحضر الطعام من فضلك»، أمرني الإمام.

قبل أن يُفتح الباب المفضي من غرفة الجلوس إلى الممر ثم إلى قسم النساء، صفّقت وقلت: «أنا هنا لآخذ الطعام». سمعت خطواتها

السريعة تبتعد، وهكذا عرفت أن الممر أصبح خاوياً. فتحت الباب وتناولت الصحن الكبير المليء باللحم المحمّر الذي يغطي الرزّ مع الزبيب والقرنفل والهال، وكان هناك أيضاً أربع كؤوس من عصير المانغا الطازج.

عدت إلى غرفة الجلوس، ووضعت الصينية فوق قطعة قماش على الأرض، وجلسنا حولها جميعنا لنأكل.

بسملنا جميعنا، وغاصت أيدينا كلها في وقت واحد تقريباً.

رحنا نتناول الطعام بهدوء، مستخدمين أصابعنا في تشكيل كرات من الرزّ مختلطة باللحم، ثم نلقيها في أفواهنا.

تساءلت هل اكتشف باسل حقيقتي وهل أصبح الآن مستعداً لأن يجعلني مطوّعاً؟ رحت أتناول طعامي بسرعة لأبعد عني مشاعر القلق، وكدت أختنق بسبب قطعة لحم محشوة في كرة من الرزّ. رحت أسعل بقوة لأزيل قطعة اللحم من حنجرتي. مددت يدي لأتناول كأسي من عصير المانغا، وأفرغته في ثلاث جرعات كبيرة متتالية.

«هل هذا أنت يا ناصر؟» سأل الإمام.

رحت ألهث طلباً للهواء. أجبت، «نعم».

«كل ببطء»، أمرني الإمام، «ألا تعرف أن تناول الطعام ببطء دليل على حسن إسلامك؟ ألا تعرف أن الله يأتمننا على أجسامنا؟»

«نعم يا إمامي المبارك»، قلت، وأنا أرمق بطنه الكبيرة التي كانت تنتفخ مع كلّ كرة كبيرة من الرزّ يلقيها في فمه. «بارك الله فيك وفي نصائحك».

واصلنا تناول طعامنا بصمت.

بعد قليل، قال المسؤول: «نريد أن نشكرك يا إمام على توصيتك بأن يصبح باسل أحد أفراد فريقنا في حي النزلة».

وضعت كرة الرزّ التي كنت قد شكلّتها وتوقّفت عن الأكل. فمنذ أن التقيت باسل، لم يكن يتوقّف عن التحدّث عن أحلامه بأن يصبح أحد كبار الأئمّة في السعودية. ولم يكن التحاقه بالمطوّعة جزءاً من خطته الرئيسية للوصول إلى الجنة.

قال الإمام: «في الواقع كنت أرغب في أن يظل يساعدني في المسجد لإرشاد الصبية الصغار إلى طريق الهداية، لكن بما أنه تطوّع بنفسه، بارك الله فيه».

لا بد أن هذا هو الأمر، قلت لنفسي. لا بد أن باسل قد اكتشف شيئاً. أردت أن أنظر إليه لأرى هل كان لا يزال يبتسم ابتسامته العريضة لي. لكنني أخفضت رأسي وواصلت الاستماع.

وأضاف المسؤول، «ستكون لدى باسل يا فضيلة الإمام مهمّة صعبة لكنها هامة ومباركة. فقد أصبح حي النزلة موبوءاً بالفساد الأخلاقي. وفي الحقيقة، عُرضت عليّ في الأسبوع الماضي قضية. فقد أمسكنا امرأة وفتى، غفر الله لي قولي هذا أمام إخوتي الأفاضل، وهما يرتكبان الفاحشة. كانت امرأة متزوجة، وعندما وجهت إليها المحكمة تهمة ارتكاب الزنى، قالت، بدلاً من أن تبدي ندمها، «بما أن زوجي لا يمنحني الحبّ، فإنني يجب أن أبحث عنه في مكان آخر»؛ وسُترجم هذه المرأة المتزوجة حتى الموت إن شاء الله. لكن هل تصدق ذلك يا إمام، إننا عندما قلنا للفتى أن عقابه سيكون الجلد فقط لأنه أعزب،

توسل إلينا بأن نرجمه هو أيضاً. إنه رجل غبي. ووبّخه أحد زملائي وقال له: إذا أردت أن تكون شهيداً فلماذا لا تذهب إلى أفغانستان وتحارب الكفّار بدلاً من أن تضحي بنفسك من أجل امرأة ملعونة. لكننا سنجلده ثلاثة أضعاف ما يستحقه كي ينساها وتعود خشية الله لتسكن قلبه الأسود».

«لعنة الله عليهما»، قال باسل بصوت مرتفع.

نظرت إلى الأعلى. بدأ الإمام يمتدح باسل. تذكّرت ما حدث في الحديقة. أردت أن أخبرهما بأن باسل هو ابن شوارع، وأردت أن أواجهه وأن أبلغ الآخرين بما حدث. لكنه بعد أن أصبح مطوّعاً، فإن اتهاماً كهذا ضد رجل مكلّف بإشاعة المبادئ الأخلاقية في الشوارع لا ينفع. ألقيت نحوه نظرة. كان يبتسم ابتسامة عريضة وهو يثبّت غترته.

ماذا أفعل الآن؟ سألت نفسي. كيف يمكنني أن أضع وجهاً طبيعياً فوق خوفي وأمنع العرق من أن يتصبب مني؟ ما أشدّ ما كنت أتمنى أن أركض بأقصى سرعتي وأخبر فيور بالخطر الذي بدأت أستشعر أنه بدأ يطبق علينا. لكن الشيء التالي الذي سمعته كان صوت باسل. «ناصر؟ ألن تهنئني وتسأل الله أن يبارك عملي الجديد؟»

أخفض رأسه منتظراً مني أن أقبّله مهنئاً. وقفت بصعوبة شديدة، ممسكاً وجهه بيدي، وقبّلت جبهته، وقلت بصوت ضعيف: «ليبارك الله عملك ويجعلك تنجح في إلقاء القبض على الأشخاص المنحطين أخلاقياً في شوارع مدينتنا».

وترددت كلمة آمين التي انبعثت منهم في أرجاء الغرفة.

عندما عدت إلى بيتي من بيت الإمام في يوم الجمعة ذاك، أحسست

بأنني أخطر المطلوبين في السعودية، الرجل الذي سيمنح مكاناً فسيحاً في الجنة لمن يقبض عليه متلبساً بجريمة الإعراب عن حبّه. بدا وكأن الإمام يعرف كلّ شيء عن نشاطاتي ويتظاهر بأنه لا يعرف، لكنه سيكتشفني إن عاجلاً أم آجلاً، وسيقف ليتفرج عليّ وهم ينزلون بي أشد العقاب.

وعندما كنت أمشي، كنت أنظر من فوق كتفي، لأرى هل باسل يتبعني، أو هل أحد المطوعين مختبئاً وراء شجرة، أو آخر يثب أمامي فجأة من إحدى الزاويا. حتى البنايات البيضاء، المصطفة كالجنود، بدت وكأنها متنكرة، مجهّزة بكاميرات صامتة تدور ونحن نمر من جانبها، تلتقط كلّ حركة، وتسمع هل قلبي يخفق ليعرفوا هل أنا عاشق أم لا.

وفجأة أصبحت أكره الحياة. فكلّ ما كنت أريده هو أن أكون مع هذه المرأة، لكنني أصبحت أعود إلى شقّتي وأنا أتطلع خلفي لأرى هل باسل يتبعني.

ومن دون أن أدرك، بدأت أكلّم نفسي مثل مجنون، أشارك الشارع في كلّ شيء يدور في داخلي، وأمشي بسرعة. كانت الأفكار الغاضبة تدهمني، وتحوّل العالم إلى ظلام، لا لون له، مليء بالرجال والنساء الذين يسيرون بجانب بعضهم بعضاً دون أن ينظر أحدهم إلى الآخر، دون أن يلمس أحدهم الآخر، ودون أن يهمسوا، وحتى دون أن يتنفّسوا. كان عالماً كئيباً يخاف فيه الجميع من شيء ما، عالماً يغدو فيه الضحك إثماً، عالماً يعتبر فيه تقبيل امرأة سرقة، والنظر إلى وجه امرأة والإعجاب بها جريمة خطيرة يستحق عليها المرء أشد العقاب في نار جهنم.

أردت أن أغادر حي النزلة وأن أترك الألم الذي تراكم في نفسي طوال تلك السنوات. تذكّرت مدى اشتياقي لأمّي، وتذكرت كيف أن أخي وخالي تركاني حتى من دون أن يودعاني؛ تذكّرت ما فعل لي الكفيل، وما كان يحدث في الغرفة الخلفية في مقهى جاسم. لم أعد أستطيع أن أعود إلى البيت. بدأت أشعر بوحدة قاتلة، فاستقللت الحافلة متجهاً إلى الكورنيش.

عندما وصلت إلى الكورنيش، رأيت المغني السعودي يحمل عوده، لكنه لم يكن يغنّي. مشيت وراءه وهبطت إلى صخرتي السرية. كان مطرق الرأس، منكسراً، وكأن ثقل ذكرى حبيبته أصبح لا يطاق، وكأن الخطب والمواعظ التي تلقى في ملايين مساجد جدة قد أقنعته أخيراً بأنّه سيكون آثماً في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن مصير الرجال من أمثاله الذين أضاعوا وقتهم في ذكريات امرأة هو نار جهنم، مصير أعتى المجرمين. وأنه لا توجد جنة للعشاق، كما كان يغنّي، وأنّه لن يلتقي بمحبوبته أبداً.

في ذات الليلة، عدت في وقت متأخر من الكورنيش. جلست على سريري ولم أكفّ عن التفكير بباسل. لماذا يريد أن يصبح مطوعاً فجأة؟ لم يكن لديّ جواب. عندما غادر باسل مع مسؤول الشرطة الدينية، سألت الأمام عن السبب الذي جعل باسل يتخذ قراره بأن يصبح مطوّعاً، فكان كلّ ما قاله لي هو أن باسل رجل فاضل وأنه يعتقد أنه يستطيع أن يساهم في إعادة نشر المبادئ الأخلاقية والطاعة إلى شوارعنا.

حاولت أن أقتنع بتفسير الإمام. وتذكرت ما قاله لي اليماني ويحيى

عن رغبة باسل الشديدة في اكتساب المزيد من الأجر والثواب للتكفير عن ذنوبه التي جمعها خلال السنوات التي كان فيها ابن شوارع يفعل أيّ شيء وكلّ شيء يمكن تخيّله. لكنني لم أقتنع بهذا التفسير. «لو كان يسعى حقاً لاكتساب مزيد من الأجر والثواب، فلم لا ينفذ ما يعظ به ويذهب إلى أفغانستان ويطلب الشهادة هناك؟»

تذكرت الفترة التي كنت أذهب فيها إلى المسجد، وبدأت أتذكّر كلّ دقيقة أمضيتها هناك، متسائلاً هل تركت أي أثر يمكن منه لباسل أن يكشفني أو هل ارتكبت أيّ خطأ يجعله يعرف سبب منافستي له على يد الإمام. لكنني لم أكن متأكّداً من أنني قد أثرت شكوكه بأي طريقة.

لم يكن أي شيء واضحاً بالنسبة لي.

وفجأة ومضت فكرة غريبة في رأسي. ماذا لو كانت فيور قد أخبرته عنا؟

ألمّ بي صداع شديد. ربما كانت تعبث بي؟ ربما كانت تعمل لصالح المطوّعين وتخرج لاصطياد الرجال المنحطين الذين يمكن أن يقعوا بسهولة فريسة لإغراء النساء؟ كيف يمكنني أن أعرف؟

مع أنني لم أستطع أن أستبعد هذه الإمكانية، كنت مقتنعاً في سريرتي بأنه لا توجد لفيور أي علاقة بذلك، وأنها مثلي ضحيّة السعي إلى الحبّ في مدينة جدة. ومن دون أي سبب كانت تتملكني ثقة كبيرة فيها.

وتساءلت ماذا سيحدث لو أمسك بنا باسل ونحن نتبادل الرسائل بواسطة الإمام.

ولما كنا عازبين، قلت في نفسي، فإننا سنُجلد حسب الشريعة

الإسلامية في ساحة القصاص. وهذا ما جعلني أتذكّر آثار الخطوط العميقة التي خلفتها ضربات المطوّع التي كانت تنهال على كتفي في اليوم الذي وقفت فيه خارج عمارة فيور حاملاً رسالتها بيدي. فقد ضربني عدداً أكبر مما كنت أستطيع أن أعدّ، في كلّ مرة في البقعة نفسها التي كانت تهوي فيها الضربة السابقة. خشيت أن ينتهي بي الأمر أن أنقسم إلى نصفين.

وعندما تذكرت أنني أجنبي تسارعت دقات قلبي. فإذا اكتشفوا أنني كنت أستخدم الإمام مرسالاً لغرامنا، فإن عقابي سيكون أشد. هل سيرحلونني؟ ماذا يمكنهم أن يفعلوا بي؟

وماذا عن فيور؟ تذكّرت ما قاله لي السيد هادئ عندما مر بجانبنا مطوّعان في مركز التسوّق يبحثان عن حبّ محرّم. إذ قال لي «إذا قُبض على عاشقين أعزبين فإن الرجل يُجلد لكنه سيعيش حياته كاملاً، وسيطلب من الله المغفرة، وهذه هي تذكرته إلى حياة سعيدة وطبيعية. أما المرأة، فإنها ستكتشف بعد أن يتلاشى ألم الجلدات، أنها ستعاني ألماً أمض بكثير. إذ إنها ستجلب العار إلى عائلتها إلى الأبد. ولن يلمسها رجل آخر، ولن يرغب أي رجل في الاقتران بها، وستعيش مثل كلبة مصابة بداء الكلب، وإذا لم تقتلها رصاصة، فإن ألم الوحدة والنبذ سيقضي عليها».

الجزء السابع

سيارة الجيب السوداء

تساءلت هل علي أن أكتب إلى فيور آخر رسالة أقول لها فيها إن هذا الأمر محفوف بالخطر علينا كلينا، وأحدّثها عن الشكوك التي تنتابني في باسل. لكن كان الأوان قد فات. إذ استحوذت الفتاة على كياني، وأضحيت مهووساً بها، ولم أعد أستطيع أن أتخيّل حياة من دون ما منحتني إياه، لأنه حتى لو لم يكن ذلك في سبيل حبّ جسدي، فإن مجرد الفكرة بأنني غارق في الحبّ تكفيني. وقلت إن من الأفضل لي أن أتشبث بالفكرة، حتّى لو كانت خطيرة، بأمل أن يزداد حبي لها، بدلاً من أن أعيش حياة في عالم يخلو من الحبّ.

«أليست الحياة مؤقتة؟» قلت لنفسي، لأقوّي من عزيمتي.

في صباح يوم السبت، غادرت شقّتي متوجهاً إلى بيت الإمام واضعاً في جيبي رسالة جديدة إلى فيور.

رأيتها من بعيد بحذائها الوردي، تسير خلف أبيها. كانا يسيران باتجاهي. بدأت أسير ببطء لأبقى معها في الشارع نفسه أطول فترة ممكنة. رأيت شعاع ضوء وردي ينعكس من قطعة زجاج مكسورة دفعتها جانباً بقدمها اليمنى. تخيّلت سماء جدة تشتعل بالألعاب النارية، وكأن حذاءها هو المدفع الذي ينطلق منه هذا اللون الوردي ليضيء سماء عادة ما تكون حزينة فيملؤها بالسعادة.

أحسست بأنّها تهمس لي بحذائها قائلة: «صباح الخير يا حبيبي.

أرجو أن تكون قد نمت جيداً». أحسست وكأنني أراها سافرة، وابتسامة كبيرة ترتسم على وجهها الصبوح.

تذكّرت الصورة التي رسمتها عن وجهي والتي ترقد بين نهديها، وهما يداعبنها في كلّ خطوة أثناء ذهابها إلى الكليّة. كنت أتمنى أن تزحف صورتي إلى عنقها وتقبّلها بحرارة على شفتيها، ثم تهمس، «وصباح الخير لك أيضاً يا حبيبتي».

غمرتني البهجة، وأحسست بالسعادة لأنّني لم أفقد أعصابي.

قررت أن أتنشق هواء الصباح بنهم شديد عندما مررت بجانبها، راجياً أن تهبّ عليّ نفحة من رائحة الشامبو ورائحة الصابون الذي غسلت به جسدها.

نظرت إلى أبيها، ولاحظت أنّه كان يمشي وكأنه ملك في حيّ النزلة. تمعنت في وجهه، محاولاً أن أعثر على بعض سمات ابنته في وجهه.

كنت مستغرقاً في أفكاري عندما رأيت سيارة الجيب المعروفة تتوقف وراء فيور. وكانت من الضخامة بحيث ملأت عرض الشارع كله.

راحت تسير إلى جانب فيور، عجلاتها السميكة الوسخة تكاد تلمس الرصيف الذي يطؤه حذاؤها الوردي. التفتت فيور نحو سيارة الجيب، لكنها عندما فعلت ذلك، ارتعش كاحلها بقوة، ولامس طرف حذائها التراب. حدثّني حذاؤها عن خوفها. «أرجوك يا فيور، تمالكي أعصابك» توسلت. تابعت سيري، وعيناي تتنقلان بينها وبين سيارة الجيب، لكن سيارة الجيب تجاوزت فيور وراحت تطلق زمورها. نظر

والد فيور إلى السيارة الجيب وأطرق برأسه، لامساً صدره بيده اليمنى احتراماً. امتدت يد من سيارة الجيب ملوّحة رداً على التحية: عندما اجتزت فيور وأباها، سمعت اسمي:

«ناصر؟»

تظاهرت بأنّني لم أسمع، ونظرت أمامي بعيداً عن سيارة الجيب، وتابعت سيري.

«ناصر؟»

كان صوت باسل مرتفعاً لا يمكن تجاهله، وأدرت رأسي لأواجه المطوّع الجديد في حيّ النزلة.

«تعال»، قال.

فعلت ما طلبه مني. من بعيد، كنت أرى الحذاء الوردي يختفي. كان ذلك هو الصواب. كان علينا أن نكون حذرين بقدر ما بوسعنا. لا مجال لارتكاب أي خطأ، إذ إن أي نظرات خاطفة، والنظرات المتبادلة المتكرّرة تعتبر دليلاً هاماً بالنسبة للمطوّعين.

مدّ باسل رأسه من نافذة سيارة الجيب، وابتسم لي.

عندما اتجهت نحوه، تساءلت ثانية ما الذي دفعه إلى أن يصبح مطوّعاً. أهو انتقام أم رغبة أصيلة؟ كان جزء منّي يقول لي بأن ما يفعله لم يكن سوى تشاوف، ومحاولة منه لإثارة إعجابي، كما يفعل في التنافس على قلوب الصبية الجميلين. من الممكن، قلت لنفسي وأنا أتفحص وجهه المخفي وراء لحيته الكثيفة. إن كونه مطوّعاً يمنحه السلطة لإجباري على القيام بأي شيء، حتى ذلك الشيء الذي رفضت أن أمنحه إياه عندما كنا في الحديقة.

في عمق أعماقي، كنت أرجو أن يكون الأمر كذلك، أن تكون الشهوة قد تغلبت على باسل، لا شيء آخر. يمكنني أن أتحمل ذلك، قلت لنفسي وأنا أقترب من سيارته الجيب.

لكن كلماته لم تبعث فيّ أملاً كثيراً. قال: «سلّم لي على الإمام، وقل له إن باسل لن يخذله. وبأنه، بعون الله، سيقف في وجه كل من يجرؤ على تلويث أسلوب حياتنا المبارك وينحرف عن الصراط المستقيم».

لم أذكر شيئاً عن باسل أو أنه أصبح مطوّعاً في رسالتي إلى فيور في ذلك الصباح. ربما كانت خشيتي من فقدانها في أيّ لحظة هي ما جعلني أرغب في إخبارها الآن برغباتي الدفينة. وقد كتبتها بعد أن اخترت أجمل الكلمات وأرقّها، وكنت أزن كلّ جملة عشر مرات قبل أن أدوّنها على الورقة.

للمرة الأولى، أدركت أنني بدأت أفكّر فيها بطريقة جنسية. فهي شخص لا يمكنني أن أراه، أو أسمعه، أو ألمسه، ومع ذلك كنت أعرف أنها امرأة حقيقية من طرف كاحلها الذي أرتني إياه في محل اليمني، ورسائلها، وحذائها الوردي. والشوق الذي بثّه فيّ وجودها المفاجئ في حياتي جعلني أعشقها بذات الإخلاص والحماسة اللذين يشعر فيهما رجل تقي تجاه إلهه غير المرئي.

فيور،

أرجوكِ أن تعتادي شيئاً فشيئاً على أساليبي الحمقاء، لكنني قررت أن لا أحدّثك اليوم عن الأمور الدنيوية بل أن أركّز على طاقتي على الاعتراف لك برغبتي. قد لا تكون اللحظة مناسبة لهذا الأمر الآن وقد

تجعلك وقاحة ما سأقوله تندمين على معرفتك بي، بل تمنحك سبباً لرفضي كرجل ذي أساليب مريضة. رجل بدأ يحوّل حباً نقياً إلى شيء مليء بالرغبة. لكنني قلت إنني إذا قررت أن أصبح مخلصاً لك كما يجب أن يكون العشاق أحدهما تجاه الآخر، فيتعين عليّ أن أنقل إليك كلّ ما يختلج فيّ من مشاعر تجاهك.

كان هذا هو الحال في أغلب الأحيان حيثما كنت، سواء أكنت أمشي في الشارع، أم أنتظر الإمام في بيته أو في المسجد، أو خارج الكليّة، فكلّ ما أفعله هو التفكير فيك.

في بعض الأحيان، ينتقل فكري بعيداً، إلى مكان تنتظرينني فيه في وسط الصحراء، فأهرع إليك. في البداية تظهرين محجبة. لكن ما إن أقترب منك، حتى يتبين لي أن الغطاء الأسود لم يكن سوى بشرتك السمراء تحت أشعة الشمس الحارقة في الصحراء. وحدك، مثل نبتة في الصحراء، تحافظين على بقائك. قدماك تقفان بثبات فوق الرمل الأصفر مثل جذور ضاربة في الأرض منذ ألف سنة، وصدرك وعنقك ينظران إلى السماء بزهو ملكة حبشية.

وعندما أصل إليك، أكون منقطع الأنفاس، مثل رجل يجوب أرجاء هذه الأرض لا هدف له إلا العثور على المرأة الأسطورة، العاشقة التي تحدّث عنها الرجال، والتي تخشاها النساء، منذ آلاف السنين. الأسطورة التي يتناقلها الرجال جيلاً بعد جيل، بالشبق نفسه الذي يهزّون به أجسامهم كما فعلوا عندما سمعوا ذلك لأول مرة من آبائهم.

عندما وجدتك، ملأ سحرك السماء بعدد لا يحصى من النجوم، وحوّل الصحراء إلى مسكبة من الأزهار نستلقي فوقها عاريين، يتلامس

جسدانا لأول مرة. وعندما راح أحدنا يقبّل الآخر، اعترفت لي بالحقيقة. قلت «قد يرد ذكري في أسطورة، لكنني جديد على أرض العشاق لأنني كنت وحيداً طوال حياتي منتظراً قدومك».

«إذاً كلانا مبتدئ»، أجيب، «فتى وفتاة بكران يحبّ أحدهما الآخر. لكن أمامنا العمر كله ليعلّم أحدنا الآخر كيف يمارس العشاق الحبّ، بدءاً من الآن يا حبيبتي».

بعد ظهر يوم الاثنين التالي، أخذت الإمام من الكليّة كالمعتاد، وأنا أعرف أنه ستكون رسالة جديدة من فيور داخل حقيبته. اقتربت سيارة الشرطة الجيب وتوقفت أمامنا مباشرة. توقّفت على الفور وسألت الإمام، «ما المشكلة؟» تركت يده ورفعت الحقيبة السوداء وأمسكتها بإحكام تحت ذراعي. سألني، «ناصر، لماذا توقّفنا؟»

ترجّل مطوّعان من السيارة وتوجّها نحونا. كان باسل أحدهما. صاح، «يا إمام، يا حبيب الله. السلام عليكم». عانقا كلاهما الإمام ثم التفت باسل نحوي، لكنه لم يبتسم هذه المرة كما كان يبتسم عادة.

«ما شاء الله، مرحباً بعيون وآذان الله على هذه الأرض الزائلة»، قال الإمام نائحاً، ومبتسماً. كان نادراً ما يبتسم، ولم أسمعه يضحك قط، «لأن الضحك يُضعف القلب»، كما قال في إحدى خطبه، «القلب الذي يجب أن يكون قوياً دائماً بمحبّة الله بكلّ قدرته».

«كيف حالكما يا عبيد الله؟» سألهما الإمام، «أسمع نبرة ارتياح في صوتيكما».

كان المطوّع الآخر أطول من باسل، يداه كبيرتان وكتفاه عريضتان. كان شاباً وسيماً. ولم تكن له لحية، مما يعني أنه الشرطي السريّ الذي سمعت عنه في بيت الإمام. وكان باسل يخاطبه باسم حامد.

«الحمد لله»، أجاب باسل، «نريد أن نتحدث إليك».

أخذ يد الإمام، وسار به إلى سيارة الجيب، وأمرني الإمام أن أنتظره في مكاني.

«ألست بحاجة إلى حقيبتك؟» سأل باسل الإمام.

خطوت خطوة إلى الوراء. نظرت بطرف عيني لرؤية الطريق الذي يمكنني أن أهرب منه، والذي لا بدّ أن يكون زقاقاً ضيقاً يصعب أن تخترقه سيارة الجيب. لاحظت زقاقاً عند ناصية الشارع بالقرب من المخبز. كان نصف مسفلت. خبأت الحقيبة السوداء وراء ظهري وأحكمت قبضتي عليها.

ثم أضاف باسل، «في الواقع يمكننا أن نوصلك إلى البيت بعد أن نتحدث قليلاً في المكتب».

صمت الإمام قليلاً، مسّد ذقنه، ثم أمال رأسه إلى كلا الجانبين، وهزّ رأسه وقال لباسل: «هل يمكنك أن تأخذ الحقيبة من ناصر؟»

مدّ باسل يده إليّ. حدّقت فيها، ثم نظرت إليه، لكنني لم أفعل شيئاً. كانت يداي لا تزالان وراء ظهري متشبثتين بالحقيبة.

«هل الحقيبة معه يا إمام؟» سأل باسل، ومن دون أن يرمش لي جفن، سحبت يدي اليمنى من وراء ظهري وصافحته بقوة.

ابتسم باسل.

«يللا»، قال الإمام لباسل، «لنذهب».

اضطررت إلى أن أعطي باسل الحقيبة. صعد إلى سيارة الجيب وأخذ معه رسالة فيور.

في ذلك اليوم، وقف الله إلى جانبي، ومنح بركاته لقصة حبنا أنا وفيور. فما إن انطلقت سيارة الجيب قليلاً، وحتى قبل أن تتاح لي الفرصة لركل الجدار نتيجة إحساسي بالإحباط، حتى توقفت ورجعت إلى الخلف إلى المكان الذي أقف فيه.

ترجّل الإمام من السيارة وقال إنه نسي أنه ينتظر زائراً من وزارة التعليم العالي، وطلب مني أن أعيده إلى البيت.

قبّلت جبهته بحرارة لم أقبّله بها من قبل، وأحسست بعينيّ تغرورقان بالدموع.

حبيبي،

أقول إن أبي «مطوّع» يجلس في المقاهي. لعلك تظن أن أي شخص يجرؤ على أن يدعو نفسه «مطوّعاً» فإنه يرتاد الجامع ولا يتوقف عن الصلاة ليل نهار. إلا أن أبي ليس شخصاً متعبداً ورعاً. فعندما يصلّي المطوّع الحقيقي وينهمك فمه في ذكر الله، تكون شفتا أبي مزمومتين حول مبسم النرجيلة.

منذ بضعة أيام، قرعت باب غرفة قسم الرجال في البيت.

«ماذا تريدين؟» صاح، «إني مشغول».

«ماذا تفعل؟» سألته. خرج هادراً. بهذه الطريقة يمكنني أن أجعله يخرج من تلك الغرفة وأُبعده عن نرجيلته.

كيف تجرؤين على التحدث معي بهذه الطريقة؟ أي نوع من النساء أنت؟» ثمّ نادى أمّي وقال لها، «أترين، كلّ هذا خطؤك. لقد أصبحت فتاة متمردة».

لكنه سرعان ما هدأ. «ماذا تريدين؟» سألني وجلس على سريري.

«على الأقل أريد أن أحرّر عينيّ عندما أكون في الشارع. فليس حراماً أن تظهر المرأة عينيها. أنظر، يمكنني أن أقرأها لك في هذا الكتاب».

«لا، لقد سألتني ذلك من قبل. لقد قلت لك إنني ذهبت إلى الإمام الضرير وقال إنني إذا تركتك تفعلين ذلك فإنني...»

«ستذهب إلى الجحيم؟» قلت هازئة.

«لا تكوني وقحة واظهري احتراماً لي وللإمام، يا كلبة».

«آسفة يا أبي»، قلت، «أقسم بالله إنه مسموح لي بأن أكشف عن عيني، بل حتى أن أكشف عن وجهي. انظر، حتى إنني لست سعودية».

قرصتني أمّي لأنني قلت ذلك. جلس أبي على سريري وخفض رأسه. نهض وغادر الغرفة. ثم تبعته أمّي. وبعد قليل، عاد وجلس إلى جانبي.

كنت أتعمد استخدام هذا الأسلوب لتذكيره بأننا لسنا سعوديين. وعندها أصبح ألطف، أمسك يدي وقال «إنني إرتيري من الجيل الثاني ولا يزالون يعتبرونني غير سعودي. انظري، إنني لست بحاجة إلى وثيقة جنسية لأشعر بأنني سعودي، إنني سعودي. ولا تستمعي إلى البنات في كليّتك، عندما يقولون إنك أجنبية. إنك سعودية».

وسألته السؤال عينه ثانية، «هل أستطيع أن أظهر عينيّ، أرجوك يا أبي؟»

فأجاب بسرعة قائلاً: «لا، قد تظنين أنك لست سعودية، لكن جهنم لا تميّز».

وعاد إلى غرفته وإلى نرجيلته.

البارحة، بعد أن تجادلت مع أبي، حاولت أمّي أن تهدئ من روعي، وقالت من الأفضل للفتيات ذوات العيون الجميلة مثل عينيّ أن يتحجبن. دخلت إلى غرفتي وأقفلت الباب.

فكّرت فيك.

أخذت قطعة ورق فارغة وعلبة أقلام تلوين رصاص ووضعتها على السرير. أخرجت رسمك من داخل حمالة صدري ووضعته على السرير أيضاً.

ثمّ خلعت ثيابي ووقفت عارية أمام مرآة الجدار الطويلة. تفحصت جسدي، من إصبع قدمي إلى رأسي، لأرسم صورة لي بأمانة شديدة، وقرّرت أن أسجّل قراءة دقيقة عن جسمي، بكلّ وحماته، وبقعه، وجروحه غير الملتئمة، خدوش بالإصبع، الشامات، المنحنيات، وطول وعرض كلّ جزء مني. حتى إنني أردت أن أتفحص مؤخرتي بعناية شديدة. لكنني كلما استدرت، حال شعري دون رؤيتها، لذلك رفعته وعقدته.

لكن عندما انتهيت، قرّرت ألا أرسلها إليك، لأنني تذكّرت وعدي بأنني سأجلب لك نفسي. سأحتفظ بالرسم ولن أرسله إلا إذا فشلت في تنفيذ وعدي.

أخبرني ما هو الأفضل بالنسبة لك.

حبيبتك فيور

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى بيت الإمام وأنا أحمل رسالة أخبر فيها فيور برغبتي العارمة في رؤيتها وفي أن أكون قريباً منها، وعن أملي في رؤيتها ذات يوم وهي تستحم، لأتمكن من رؤية قطرات الماء وهي تتساقط من جسدها مثل شلالات نياغارا. سألتها هل بإمكاننا أن نجد وسيلة لنلتقي أو على الأقل وسيلة لنتكلم. كنت مستعداً لفعل أيّ شيء لأسمع صوتها.

في بيت الإمام وجدت باسل في غرفة الجلوس يتصفّح بعض الكتب على الرف. كان يحمل عصا. أردت أن أواجهه وأسأله عمَّ يضمره لي، لكن كانت هناك كتلة في حنجرتي، ولم أجرؤ على قول شيء.

جلست على الحصيرة، ورحت أراقبه صامتاً.

اختار كتاباً وبدأ يقرأه، وكأنني غير موجود.

أردت أن أغادر، أن أهرب قبل فوات الأوان، لكنني حاولت أن أركّز عليه لأتمكن من معرفة الأفكار التي تدور في رأسه، لكنه لم يقل شيئاً آخر: لم يفعل شيئاً إلا أنه أغلق الكتاب وصاح منادياً الإمام الذي كان في الغرفة الأخرى معلناً أنه سيغادر وأنه سيراه في وقت لاحق من هذا المساء.

كان باسل يقتلني ببطء. عندما كان يبتسم، كانت كلّ سنّ من أسنانه تشبه رصاصة يطلقها عليّ. وكنا كلما التقينا، أحدث ثقوباً جديدة في جسمي. كان يستنزف كلّ طاقة في جسدي، وكان باسل يراقبني وأنا أختفي، وتلك الابتسامة الهازئة على وجهه.

عندما كنت على وشك مغادرة بيت الإمام في عصر ذلك اليوم، طلب مني أن أنتظر لأنه يريدني أن أرافقه لزيارة صديقه، الشيخ الذي يقيم في الشارع المفضي إلى جدة القديمة، بعد أن يأخذ قيلولة. كنت قد أخرجت رسالة فيور من حقيبته، وكنت لا أزال أفكّر بلقائي بباسل صباح ذلك اليوم، وأردت أن أخلو بنفسي في غرفتي بصحبة رسائل فيور. لم يكن لديّ خيار سوى أن أطيع أوامره.

عندما استلقى الإمام على الحصيرة وعلا شخيره الناعم، تأكد لي أنه غطّ في النوم. رحت أقرأ رسالتها.

حبيبي،

يعتريني حزن شديد. حزن يقرع بابي منذ فترة طويلة، حتى انفجر أخيراً في داخلي وسكنني ليلة البارحة. لقد اعتدت على السهر معظم الليل لأقرأ رسائلك ثانية، أما هذه اللّيلة فإنني سأرقد في سريري مغمضة العينين، وأستسلم لداء الحزن والوحدة. وما أشّد ما أتمنّى أن تكون هنا بجانبي. على أية حال، آسفة لأن رسالتي هذه قصيرة، لكن ليس لدي القدرة على كتابة المزيد، يا عزيزي.

سلام من القلب.

قرّبت رسالتها من شفتيّ وقبّلتها، لا أعرف ماذا أفعل بكلّ حزن فيور الذي أحمله بين يدي. إنتابني دافع إلى الانتقام لحبيبتي، لأن أحرق كلّ شيء، وأن أدمر كلّ شخص يحول بيني وبينها. لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. أحسست أنني شخص عديم الفائدة وغضبت من نفسي. كانت حبيبتي تتألم، ومع ذلك فأنا عاجز عن القيام بأي شيء.

ما فائدة استخدام كلمات مكتوبة في نصف صفحة تقدم دعماً صادقاً إذا كان كلّ ما تحتاجه هو شخص يقف إلى جانبها ويحضنها.

في صباح يوم الثلاثاء، كان عقلي مشغولاً بحزن فيور.

ذهبت إلى بيت الإمام وأنا أحمل رسالة محاولاً فيها مواساتها. دسست رسالتي خلسة داخل الحقيبة الجلدية السوداء، وبدأنا رحلتنا إلى الكليّة كالمعتاد.

ما إن ساعدت الإمام في الدخول من باب الكليّة حتى رأيت يد فيور المكسوة بالقفاز تمتد لتأخذ العصا. رغبت في أن ألمسها مرة أخرى، لكنها سحبت يدها بسرعة. وضعت الحقيبة السوداء تحت ذراع الإمام، لكنه ارتطم عرضاً بالباب، ووقعت الحقيبة إلى الأرض. «أرجوك يا ناصر، اجلب لي الحقيبة»، قال. جثوت، متوقّعاً أن تستغلّ هي الفرصة وأن تنحني أيضاً، لكنها لم تفعل، وظلت مختبئة.

وددت أن أعبر الباب لأمسك يدها وأهرب معها. ثمة صوت داخل رأسي ظلّ يشجعني: «الباب مفتوح. إنه ليس باباً كهربائياً. إنه ليس موصولاً بأسلاك وليس مفخخاً، ولا يوجد أمامه جنود مسلّحون مستعدّون لإفراغ رصاصاتهم في صدرك. مم أنت خائف؟ إنه مجرد باب تقف وراءه حبيبتك فيور الحزينة. أمسك يدها واجر معها».

لكنني نظرت إلى الإمام. كانت عيناه تحدّقان في نقطة مجهولة في البعيد، ومع أنني كنت أعرف أنه لا فائدة منهما بالنسبة له، كنت أخشى أن يعرف إذا ما كسرت القواعد المتبعة، إذ إن ذلك يعني أنني أستطيع أن أمسك يد فيور مرة، لكنني قد لا أستطيع أن أفعل ذلك مرة أخرى

مطلقاً. لذلك كان كلّ ما فعلته هو أنني وضعت الحقيبة في الجانب الآخر من الباب، وهرعت إلى البيت.

انقضى أسبوعان على رسالتها الأخيرة، ولم ترسل إليّ فيور رسالة أخرى. ففي رسالتي الأخيرة، كنت قد بثثت رغباتي الدفينة، وطلبت منها أن تكتب إليّ سريعاً. ومع أنني لم أكن متأكّداً، كنت أرجو أن تكون هي التي كانت تقف وراء الباب الأسود عندما استقبلت الإمام. وعندما فتحت الحقيبة السوداء، لم أجد شيئاً منها، ولم تكن رسالتي فيها أيضاً.

لم أعرف شيئاً عما يحدث. وبدا أن بوابة كليّتها تزداد ارتفاعاً وعرضاً كلما أوصلت الإمام، ويزداد الرجال الواقفون في الشارع حجماً وعدوانية. لقد اختفى الحذاء الوردي من حي النزلة.

بدأت أستيقظ في الصباح وأشعر بقلبي مثقلاً. بدأت أشعر بالغضب منها. قلت في نفسي إنها لا تعبأ بذلك، فلو أنها تكترث لي لكتبت تخبرني أنها بخير، ولو كانت تحبني لعرفت أنني قلق عليها.

تبين لي أن يوم الثلاثاء السابع من تشرين الأول (أكتوبر)، بعد انقضاء شهر على كتابة فيور إليّ رسالتها الحزينة، هو اليوم الأخير لي في المسجد.

هبّت نسائم باردة في ذلك المساء، وكانت أوراق الأشجار والأوساخ تتطاير من جانب الرصيف إلى الجانب الآخر.

عندما وصلت، وجدت الإمام يتربع في جلسته ويتحدث إلى الجماعة. كانت هناك وجوه جديدة عديدة، وكان المحارب الأفغاني

القديم قد عاد إلى الرياض، وترك عبدو المسجد وعاد إلى أصدقائه في الشارع. قال إنه سئم الإمام، وأنه اشتاق إلى لعب كرة القدم، والاستماع إلى الموسيقى، ومشاهدة التلفزيون، التي قال الإمام وباسل إنها جميعها محرمة.

ألقيت التحية على الجماعة، وقبّلت الإمام على جبهته، وجلست إلى يمينه.

بعد لحظات من جلوسي، دخل أحد الرجال مسرعاً. كنت قد رأيته مع الإمام من قبل. كان أحد تلاميذ الشيخ، ويعمل في وحدة الطوارئ في مستشفى الملك فهد. ألقى التحية علينا جميعنا، وجثا وراء الإمام، وهمس في أذنه. نهض الإمام، ووضع يده على كتف الرجل وسار كلاهما إلى ركن بعيد في المسجد. كان الرجل يومئ ويحرك يديه وهو يتحدث إلى الإمام، وكان يبدو شديد الانفعال.

وبعد لحظات، عاد الإمام الضرير. استأذن عامل المستشفى واختفى بنفس السرعة التي وصل فيها. تربّع الإمام، وسعل. سكت الجميع. قال لنا إن حياة أخرى قد انتهت للتو على نحو مأساوي. وكان يميل رأسه من جانب إلى آخر، وهو يقول: «لأنه، مرة أخرى، اختار أحد أولادنا الأعزاء الطريق إلى الجحيم بدلاً من السبيل إلى الجنة. لقد تعرض هذا الفتى لحادث سيارة. لقد اصطدمت سيارته بأسفل الجسر وتحطّمت إلى قطع متناثرة، لكن رجال الإطفاء، بارك الله فيهم وفي عملهم، تمكنوا من إخراجه. وعندما سمعوا أغنية تنبعث من شريط في جهاز التسجيل في السيارة، حطّموه إلى قطع صغيرة، وقدموا الرعاية

للفتى الذي كانت روحه على وشك أن تغادر هذه الدنيا. وأمسك أحد المسعفين يد الفتى وطلب منه أن يتلو «الشهادة». «يا بني، إنك تلفظ أنفاسك الأخيرة، قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». لكن لا، ظل الفتى صامتاً. حثّه المسعف مرة أخرى، وقال له إنه جواز سفرك إلى السماء. لكن فمه رفض أن يلفظ هذه الكلمات المباركة، وبدلاً من ذلك راح يدندن الأغنية التي كان يستمع إليها».

توقّف الإمام وخفض رأسه، ثم تابع قائلاً: «أتعرفون لماذا لم يستطع أن يتلو الشهادة؟ لأن الاستماع إلى الموسيقى بدلاً من تلاوة القرآن حرام. لكن الله عاقب هذا الفتى لأنه رفض أن يستجيب لدعوته. لذلك فإن سبيل هذا الفتى هو نار جهنم». وأرعد بهذه الكلمة ثلاث مرات: «نار جهنم، نار جهنم، نار جهنم».

بينما كنت أنصت إلى الإمام، أحسست بصداع خفيف في مؤخرة رأسي، كالذي ألمّ بي عندما غادرت مسجده في المرة الأولى، عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. وكلما تابع قصته، ازداد الألم شدّة، وبدأت كلمات الإمام تطرق بين عيني، وتدقّ في رأسي، بلا هوادة. تمنّيت أن أتمكن من أن أضع يدي على أذني لأمنع دخول كلمات الخوف والانتقام ونار جهنم والشيطان.

أغمضت عيني، وسألت نفسي، «لماذا عليّ أن أعاني من ذلك كله؟»

وللمرة الأولى منذ أن توقّفت عن الكتابة إليّ، واجهت نفسي بالحقيقة التي لم أكن أرغب في مواجهتها؛ وقلت لنفسي، لعلها وجدت

فتى آخر، وهي تتبادل معه الرسائل الآن؛ وإذا لم يكن ذلك هو السبب، فربما اهتدت إلى الطريق القويم وبدأت تندم لأنها أقامت علاقة مع مسلم فاسق مثلي، أو لعلها رأت ألاّ فائدة ترجى من الاستمرار في هذا الأمر، وأن كتابة الرسائل الغرامية وإرسالها بواسطة الإمام هو أقصى ما يمكننا بلوغه، وإلى متى سنستمر في الكتابة على هذا الشكل؟» سألت نفسي، «فهذه الرسائل تجعلنا نتوق إلى رؤية أحدنا الآخر، وما من فرصة لحدوث ذلك».

عدت إلى الشكوك والأسئلة والأعذار والتحفظات التي كادت تفقدني صوابي في بداية قصّة حبّنا. لم أكن أرغب في أن أعاني ثانية. تساءلت، «كان لا بد أن أعرف ذلك. ما جدوى كلّ ذلك على أي حال؟» محاولاً أن أرغم نفسي على تقبل الواقع بأنّني قد أكون فقدتها إلى الأبد. «هكذا هو الأمر يا ناصر. لقد انتهى كل شيء».

نهضت بتثاقل، والعرق يبللني، وانسللت من دائرة الفتيان، وأقسمت بأن لا تطأ قدماي هذا المسجد ثانية.

ما الذي جعل فيور تهجرني؟ لم أفهم. كنت قد أصبحت مطوّعاً من أجلها، وجازف كلانا لكي نلتقي معاً. ها قد ذهبت الآن بالسرعة التي جاءت فيها. لقد عادت وتوارت في عالمها الخفي. كان عمر صديق جاسم محقاً، فلم أكن سوى لعبة في يد فتاة غنية، وها قد وجدت الآن شخصاً آخر لتعذبّه.

سأبذل كل ما بوسعي لكي أنساها.

مكثت في البيت حوالي أسبوعين منذ مغادرتي المسجد. وفي عزلة

غرفتي، حاولت أن أحزن من أجل فيور. لكن لم يكن لديّ الكثير لكي أتذكرها به. إذ إنني لم أر وجهها، أو حتى عينيها. حتى إنني لم ألمس بشرتها، أو أمسّد شعرها، وبقي جسدها بالنسبة لي لغزاً مخفياً وراء حجابها.

كان كلّ ما رأيته منها هو تلك البقعة الصغيرة من بشرتها، تلك الندبة على كاحلها الداكن السمرة. لكن الأهم من ذلك كله هو حذاؤها الوردي الذي ظلّ يومض في رأسي، لأنه الشيء الوحيد الذي كنت أراه طوال مدة مغامرتنا.

تذكّرت حذاءها الوردي الغامق اللون كما يتذكّر عاشق منبوذ وجه معشوقته. تذكّرت الشكل المرسوم باللآلئ اللامعة على طرفي حذائها، كما لو كانا قرطين في أذنيها، وقلادة حول عنقها، أو حزاماً براقاً يحيط بردفيها الأسمرين. وتذكّرت اللون الوردي وكأنه لون أحمر شفاهها المفضّل، وحمالة صدرها وسروالها الداخلي. تذكّرت كيف كسر حذاؤها الوردي اللونين الأبيض والأسود السائدين في حي النزلة، وكان أشبه بطائر الفلامينغو الوردي اللون. وخلال الأيام التالية، كان كلّ ما أردت أن أفعله هو أن أصرخ في وجه الرجال في الشارع بأن المرأة التي تنتعل حذاء وردياً هي فتاتي. ومع كلّ خطوة تخطوها، تربط قلبي أكثر بحذائها. ولولاه لما بقي قلبي ينبض بالحياة.

ربما كنت أنا السبب الذي دفعها إلى هجري. ربما لأنني لم أكن أكثر صراحة في رسائلي. لكنني لا أذكر أنني أخبرتها بمدى ولعي بحذائها الوردي، ومن المؤكد أنني لم اقترح عليها أن نهرب معاً.

ولعلها كانت تنتظر مني أن أمسك بذراعها ونجري معاً لنخرج من هذا الفيلم بالأبيض والأسود.

كنت أريد أن أطلب منها أن تمنحني فرصة ثانية. اعترتني رغبة في أن أقف خارج بنايتها لأريها شدة اهتمامي بها. لكن وجود باسل الذي كان يجوب الشارع باستمرار مع المطوّعين الآخرين وضع حدّاً لهذا الحلم.

لا بد أنه كُتب عليّ أن أعيش وحيداً، وأن تكون صحبتي الوحيدة هي الذكريات التي أحملها عن الفتاة التي أحببتها. إن كلّ شيء جميل يقبع في ماضيّ: أمّي، وأخي، والآن فيور. حتى إنني حزنت على فقد صداقة يحيى وهاني.

الجزء الثامن

مشهد من مصر

خرجت أخيراً من غرفتي ذات ليلة في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر). ذهبت إلى الكورنيش. كنت لا أزال أرتدي الرداء الشرعي الذي كنت أرتديه عند الذهاب إلى المسجد، ذات الثوب القصير ذي الجيوب الجانبية العميقة التي كنت أخبئ فيها رسائل فيور.

كان الكورنيش يعجّ بالشباب، وكأن البحر الأحمر قبلة العشاق التائهين الذين اتخذوه محجة لهم في هذه الليلة.

كان الجميع يحدّقون في البحر الذي كان ينصت بهدوء لجميع الساعين إلى الترويح عن أنفسهم ونسيان وحدتهم.

عندما هبطت إلى صخرتي السرية، رأيت العاشق السعودي يعزف على العود. أعجبت به لأنه بدا في أحسن أحواله مع أن كلّ شيء يستخدمه لإبداء حبّه كان يفسد ويتعفن: فقد كان ينبعث من العود صوت صدئ مثل أوتاره التي صدأت، وكان صوته العميق مبحوحاً، وكلماته مفكّكة، وكان يسعى جاهداً إلى ربط الكلمات التي يغنيها معاً. ولم يكن صوته يخفي قلبه المحطم. لقد جعلت كلماته عينيّ تغرورقان بالدموع:

حبيبتي، لقد أضحت أيامي معدودة الآن، وبدأ صوتي يخذلني، ولن أحدّق في البحر بصمت ما حييت.

إذا لم أستطع أن أغني لك كل ما يختلج في قلبي، فلن تعود للحياة جدوى بالنسبة لي.

آه يا حبيبتي، لقد اقتربت النهاية.

بعد بضعة أيام، خلعت الثوب والغترة وعدت إلى قميصي وسروالي المعتادين. كنت أريد أن أعود إلى حياتي الطبيعية. سألت هلال هل بإمكاني أن أعود إلى عملي القديم في مغسلة السيارات، لكن هلال قال: «لم يعد ذلك العمل متاحاً. لقد أخطأت عندما تركته أساساً. هناك عدد كبير من الأجانب يأتون إلى هذا البلد وهم مستعدون للعمل لقاء أجر زهيد».

لكنه وعد بأن يساعدني في البحث عن عمل جديد. وخلال ساعة، اتّصل بي ثانية وسألني هل أستطيع أن أحلّ محل أحد الفتيان الهنود في مغسلة أخرى للسيارات لا تبعد سوى خمس عشرة دقيقة مشياً من عملي القديم. وقال هلال: «لقد مرض أحد العمال فيها وقد لا يكون ذلك لمدة طويلة».

عاد جاسم أخيراً من رحلته الطويلة برفقة كفيله.

في مساء ذلك اليوم، ذهبت للقائه في مقهاه. كانت طاولات المقهى، المصطفة على الرصيف المطل على دوّار صغير، ومحلات الأحذية قبالته، مغطّاة بقماش بلاستيكي أصفر جديد. كان رصيف المقهى مزدحماً، وكان الرجلان الجالسان إلى الطاولة على يساري مباشرة يلعبان الدومينو.

ابتسم لي النادل وأومأ بعينيه إلى فوّاز الجالس في الجانب الآخر من الرصيف الصغير. فهمت أن فوّاز لا يزال غير متزوّج وأنهما لا يزالان

عشيقين. وكان جاسم يجلس إلى طاولة في الخارج، مدفوناً تحت دخان النرجيلة المنبعث من فمه ومن الأفواه الأخرى القريبة منه.

عانق أحدنا الآخر. سمعته يهمس: «يا الله يا ناصر، لم تعانقني هكذا من قبل. أبداً. هل هذا يعني أنك أخيراً. . .»

انسحبت، وقلت، «إنني سعيد للغاية برؤيتك».

«هل يمكنني أن أدعوك إلى العشاء؟ أريد أن أحدثك عن الإجازة التي أمضيتها. عندي أخبار كثيرة».

«نعم، أريد ذلك»، أجبت.

«لنذهب إذن»، قال.

«حسناً».

أمسك يدي وعصرها، لكنني سحبتها بعيداً.

اتصلت بهاني ويحيى لأخبرهما أنني تركت المسجد. لكنهما رفضا أن يكلماني بل وحذراني من أن أتصل بهما ثانية.

لذلك فوجئت عندما سمعت ذات مساء قرعاً على الباب، وفتحته لأجد صديقيّ واقفين هناك. قلت: «إنني سعيد جداً بحضوركما».

قال يحيى: «هيا بنا نذهب إلى قصر السرور. يجب أن تقدم لنا تفسيرات كثيرة».

عندما وصلنا إلى قصر السرور، أمطراني بمئات الأسئلة ليعرفا السبب الذي جعلني أرافق الإمام المتعصب. لكنني ظللت أعيد وأكرّر بأنني لست الوحيد، وبالتأكيد لن أكون الأخير الذي يرافق الإمام ثم يتركه.

«ألا يوجد سبب معين؟» سأل يحيى.

فأجبت، «نعم، انظر ما حدث لعبدو».

«ومن هو عبدو؟» سأل يحيى.

أوضحت لهما كيف أنه كان يريد أن يصبح مرافقاً للإمام، لكنه غيّر رأيه، وانضم إلى أحد أندية كرة القدم. هزّ هاني رأسه موافقاً. «في الحقيقة لايني اليماني ينضم إلى المطوّعين في شارع مكة المكرمة ثم يتركهم».

فقال يحيى: «على أي حال، إني سعيد بأنك عدت إلى طبيعتك ثانية. لكن لا تدع ذلك الإمام يغيّر رأيك ثانية. أتسمعني؟»

وقلت في نفسي، ليتكما تعرفان السبب الذي جعلني أفعل ذلك.

تنشقنا الغراء وبدأ هاني ويحيى يتحدثان عن صديقينا فيصل وزب الأرض اللذين ذهبا للقتال في أفغانستان. وبما أنه لم ترد أخبار عن مقتلهما فقد افترضنا أنهما لا يزالان على قيد الحياة.

«لقد اشتقت إليهما»، قال يحيى.

وقال هاني: «لشَّد ما أتمنّى أن لا تكون هناك حرب، وأن يكون صديقانا معنا اليوم».

لشَّد ما تمنيت أن يعيش بلدي في سلام وأن لا تكون فيه حرب وأن لا أغادر أمّي وسميرة. واغرورقت عيناي بالدموع عندما تذكرت مدى اشتياقي إليهما.

كانت فيور هناك دائماً. فقد كانت رائحتها تتسرب من رسائلها وتملأ جدران غرفتي. كانت تهيمن على ذاكرتي. لم يغمض لي جفن.

لم أستطع أن أتناول شيئاً. خشيت أن أهيم بها. يجب أن أكلّم أحداً لأنقذ عقلي، لذلك فكّرت بهلال. لا أظن أنه سيخونني. إنه الشخص الوحيد الذي أعرفه والذي يعيش حياته من أجل شخص واحد فقط - زوجته.

عندما حدثته عن فيور أخيراً، حدّق فيّ لوهلة وفغر فاه. ثمّ ضمني إليه وقبّلني على خديّ بحرارة، وقال: «لقد أصبحت أؤمن بالمعجزات الآن. إن الحبّ قوة خارقة، مثل القمر أو الشمس أو الجاذبية، ولا يستطيع أي إنسان أن يوقفه، مهما كان قوياً أو متوحشاً».

وبينما أخذت أستجمع أطراف حياتي، استمر باسل يزحف نحوي.

بعد مضي ثلاثة أسابيع على هجري المسجد، عندما كنت خارج الكراج أغسل سيارة أحد البقالين في الحيّ، سمعت صوتاً مألوفاً لسيارة تقترب. توقّفت عن غسيل السيارة ونظرت خلفي. توقفت سيارة الجيب على بعد أمتار قليلة وكان محرّكها ما يزال يدور هادراً.

تظاهرت بأنني أتابع تنظيف مقدمة السيارة، ويداي ترتعشان بقوة. نظرت إلى الوراء ورأيت أضواء سيارة الجيب الأمامية تضاء وتطفأ. قرّرت تجاهله ومواصلة عملي.

لم أكفّ عن النظر إلى السيارة الجيب، لكن لم يحدث شيء سوى أن دوران المحرّك أخذ يتباطأ. رحت أمسح البقعة نفسها مرات ومرات عندما سمعت صوت سيارة الجيب يزداد اقتراباً ثم توقفت أخيراً خلفي. مرت بضع ثوان من الصمت المطبق. لم أعرف ماذا أفعل. وقفت أنظر إلى السيارة الكبيرة، لا أعرف ماذا يدور وراء الزجاج الأمامي المظلّل.

ثمّ فتح باسل باب السيارة وأمرني أن أمسح زجاجها الأمامي. «هيا

إننا في عجلة من أمرنا»، قال وصفق الباب بقوة ثانية. ومن دون أن أنظر إلى السيارة الجيب، بللت قطعة القماش في الماء والصابون وبدأت أمسح الزجاج الأمامي المظلّل.

كنت أتهيأ لغسل قطعة القماش عندما رأيت نافذة سيارة الجيب الداكنة تهبط ببطء، ثم انحنى باسل خارجها وراح يرمقني بصمت. كان يتعقبني بعينيه في كل حركة أقوم بها. وعندما انتهيت، سألني: «لماذا تركت المسجد والإمام بارك الله فيه أيها المرتد؟»

لم أردَّ عليه.

«لا أحد يعصي الإمام ويفلت من ذلك»، قال، وقاد سيارته مبتعداً من دون أن يدفع شيئاً.

عدت إلى عالمي القديم دون أن تراني. أين يمكن أن تكون: في الشارع، تقف عند نافذتها، تستقل الحافلة، أم في سيارة أبيها. يجب أن أقبل الواقع بأنّها لم تعد تبحث عني. لو كانت ما تزال تحبّني، لاستطاعت أن تتبعني، إن أرادت، وأنا أواصل أعمالي اليومية، وأنا أسير في حي النزلة، وأنا أدخل أي دكان من عشرات الدكاكين الموجودة في الحيّ، وأنا أحتسي الشاي في المقهى الأزرق، بعد الدوّار مباشرة ووراء السوبر ماركت الكبير. كان بإمكانها أن تراني وأنا ألعب كرة القدم مع أصدقائي في تلك البقعة الفارغة الكبيرة أمام المصنع، أو عندما أكون جالساً تحت شجرتي حيث ألقت رسالتها الأولى لي. كان بإمكانها أن تراني وأنا أسير في الشوارع مطرق الرأس، أتطلع إلى أقدام النساء جميعهن، بحثاً عن حذائها الوردي، لعلي أجده.

انتهت فترة عملي في غسيل السيارات التي استمرت مدة قصيرة

عندما تماثل العامل الهندي للشفاء، ورجوت هلال أن يجد لي عملاً آخر. كنت أريد أن أنسى الصيف بالعمل، وقال إنه سيبقي أذنيه مفتوحتين.

ذات مساء، استقللت أنا وهلال الحافلة إلى الكورنيش. عندما جلسنا لنشرب عصيراً طازجاً في مقهى يطل على البحر الأحمر، قال إنه يفكّر بي وبفيور، وإنه يتمنى لو حدثته عنها قبل أن تختفي. وقال: «ناصر، لو كنت أعرف شيئاً عن ذلك، لأخذتكما إلى مكان خاص تستطيعان فيه أن تختليا وحدكما، وتتحدثا من دون أن تخشى أباها أو المطوّعين». وبعد أن توقف قليلاً، أضاف بغموض، «إنها بقعة سرية في الجانب الآخر من الكورنيش. على أي حال، دعنا نمشِ الآن. أريد أن أحدثك عن هذا المكان دون أن يسمع أحد حديثنا».

وفي مساء أحد الأيام، كنت أقف مع هاني في الشارع قبالة بيتي. كنت أحمل علبة البيبسي ليصبّ فيها هاني مزيداً من الغراء. وكالعادة كان يرتدي سروال رياضة وقميصاً قصير الكمين؛ ومع أنه كان سعودياً، فقد كان يكره ارتداء الثوب.

رحت أتنشق الغراء ثم نظرت ثانية إلى الفتى الجالس فوق غطاء مقدمة سيارته، ابن عم هاني. كان اسمه فهد وقد جاء من الرياض للزيارة. كنت أتفحص ثيابه: قميص أخضر، سروال أسود مخطّط بالأصفر، حذاء رياضي أبيض، ونظارات شمسية سود.

«ماذا؟ لماذا تبتسم؟» سألني هاني. رآني أنظر إلى الفتى. «ملابسه، صحيح؟» سألني، مشيراً إلى ابن عمه.

هززت رأسي.

«قلت لك ألاّ تكون متمرداً وألاّ ترتدي ثياباً على الموضة!» صاح هاني في فهد، «على الأقل انزع النظارات. إننا في الليل، بحق الله».

«لن أسمح لفتى من جدة أن يعلمني ماذا أرتدي»، ردّ فهد، «أنا من العاصمة يا صديقي».

استغرق هاني في الضحك، وأضاف، «هل تريد أن تقول لي إنكم معشر البدو ترتدون ثياباً أفضل مما نلبس في جدة؟ ناصر، هل تسمع ذلك؟»

كنت أستمع، لكن لأسباب مختلفة. سألت فهد هل صادف في الرياض فتى يدعى إبراهيم يعيش مع خال له يدعى عبد النور.

لكن هاني قاطعني قائلاً، «آسف يا ناصر. لقد سألته من قبل، وهو لا يعرف. إن العالم أحياناً ليس صغيراً كما يقولون».

فقلت: «لا يهم. على أي حال، لماذا لا نذهب إلى قصر السرور؟ هل ننتظر أحداً؟»

«يحيى»، أجاب هاني.

«أين هو؟» سألت.

« «انظروا يا شباب»، انبعثت الكلمات من هاني وكأنها نوع من العويل.

على مسافة بضع بنايات، رأينا امرأة تدخل بيتاً. ثم خرجت وتوجهت إلى سيارة فان قريبة لتجلب بضع حقائب سفر وصناديق صغيرة. تطاير شعرها مع هبوب النسيم. نظر أحدنا إلى الآخر غير

مصدقين. فقد كان الشعر الذي يتماوج والذي اعتدنا على رؤيته في حي النزلة هو شعر لحى الرجال الطويلة فقط.

كانت ترتدي بنطال جينز ضيّقاً، وكان كعب حذائها العالي يطعن أرض الشارع كالسكاكين.

اقتربنا منها، يلتصق أحدنا بالآخر.

«إنها تذبحني»، همس لي هاني.

«أترون يا شباب، ألا تشعران بالندم لأنكما لم تتأنقا في ملبسكما؟» نزع فهد نظارته الشمسية السوداء ليستبدل بها نظارة أخرى، هذه المرة مطرزة بحافة ذهبية، وأضاف، «من الأفضل أن تكون جاهزاً على أن تتأسف. حتى لو سنحت لك الفرصة مرة في العمر. الآن من هو الأحمق فينا؟»

كان هاني يحلم، «ليتني كنت شارعاً طويلاً لكي تسير هذه المرأة فوقي جيئة وذهاباً طوال النهار».

لاحظتنا المرأة. خرج رجل من البناية وأخذ الحقائب من يديها وهرع إلى الداخل ثانية. سارت نحونا.

نظرت إلى فهد الذي بدأ العرق يتصبب من وجهه. أمسك يدي وعصرها بقوة.

«ماذا تفعل؟» سألت فهد.

«إنها قادمة نحونا. ببطء. إنها ستسير إلى الأبد كي تصل إلينا».

«ألا يمكنك أن تتكلم بأسلوب أرق؟ في جميع الأحوال، هكذا تسير بعض النساء. خطوة، خطوة».

«كيف تعرف؟» قال.

«لقد نشأت بين النساء».

«مساء الخير، يا سادة»، قالت لنا المرأة، ثم أضافت، «اسمي ناهد. وقد انتقلنا أنا وزوجي إلى هنا»، وأشارت إلى البناية خلفها.

من لهجتها عرفت أنها مصرية.

امرأة تتحدث إلينا؟ يا إلهي!» صاح هاني، واستدار نحوها وجثا على ركبتيه، «أرجوك، لا ترتدي العباءة أبداً»

هزّ فهد رأسه وصاح نابحاً على هاني، «انظر إلى نفسك. لم أرك تصلّي قط. ألا تعرف أننا يجب ألا نركع لغير لله تعالى؟ هيا انهض».

ضحكت وقالت، وابتسامة ترفرف على وجهها، «ربما أراكم قريباً». نظر فهد وهاني أحدهما إلى الآخر وقال هاني، «ربما ترينا لكننا لن نراك. في المرة القادمة، سترتدين الحجاب». هزّا رأسيهما.

سارت مبتعدة. تابعت عيوننا ردفيها وهي تعود إلى مدخل بيتها الجديد. أُغلق الباب بقوة، وهكذا حُرمنا من الحصول على لحظة أخرى لرؤية شعرها، وبنطالها الجينز، وردفيها المتأرجحين، وعنقها الطويل. وعدنا إلى عالم الرجال الضرير.

صعدت إلى المقعد الأمامي في سيارة هاني، وجلس فهد في المقعد الخلفي. «أمسك هذه»، قال هاني، وأعطاني علبة البيبسي، ووضع شريط كاسيت لمطربة مصرية، وقال: «لنستمع جميعنا. أريد أن أهدي هذه الأغنية إلى المرأة المصرية»، ثم أضاف، «لا أزال أراها تسير بكعبها العالي، وهي تلقي بردفيها إلى رحمة الريح».

ضحك فهد وقال: «قد السيارة ولا تتكلم. إنك ستموت من الحسرة. لقد توقف زمن المعجزات هنا».

كان على وشك أن يقف، عندما لمحت من المرآة الجانبية حذاء. ارتعشت يداي ووقعت علبة البيبسي من يدي.

فتحت الباب ونظرت إلى الحذاء ثانية. إنه الحذاء الوردي. كدت أفقد توازني عندما نزلت من السيارة.

«ناصر، ماذا في الأمر؟» سألني هاني.

تلعثمت وقلت: «إنني على ما يرام. انتظراني عند قصر السرور، سألحق بكما إلى هناك».

«هيا. إلى أين أنت ذاهب الآن؟» سألني هاني.

فقلت «سأراكما بعد قليل».

انطلقا. كانت عيناي لا تزالان مركزتين على الحذاء. هل هذه هي فيور حقاً؟ المرأة التي هجرتني؟ أم أن هذه مجرد خدعة؟ رفعت عيني ورأيت يدها المكسوة بالقفاز تومئ لي. أسرعت نحوها. استدارت وسارت في شارع جانبي. سرنا طويلاً في شارع الحلم. اجتزنا دكان البقالية، والمطعم، والمخبز الأفغاني، ومحل الباكستاني لتصليح الأدوات الكهربائية. اجتازت الشارع مبتعدة عن مقهى صغير يتجمع بعض الرجال خارجه. انعطفت يميناً إلى شارع ضيّق، وبينما كنت أتبعها أصدرت صوتاً لكي تعرف أنني أتبعها. عدنا إلى شارع النزلة البعدا. سلكت طريقاً مختلفاً عن الطريق الذي كنت أسلكه عندما كنت ألتقط رسائلها بالقرب من حاوية القمامة. من المؤكد أنها فيور.

كان بضعة صبية يلعبون كرة القدم. في هذا المكان يضيق الشارع. اقتربنا من الشارع المسدود. دلفت إلى مدخل قديم في ركن الشارع. لحقت بها.

لم يكن هناك أحد. كان يجب أن أقول شيئاً.

«حبيبتي؟ هذه أنتِ، صحيح؟ كيف حالك؟ أين كنتِ؟ لماذا لم تفسري لي؟ رسالة واحدة فقط كانت تكفيني».

لبثت واقفة بلا حراك.

«فيور، لقد اشتقت إليك كثيراً»، قلت هامساً، «كلّ ما أريده منك لمسة صغيرة، كلّ ما عليك فعله هو أن تخرجي من هذا المكان وتصطدمي بي خطأ. إننا بشر، جميعنا نخطئ. أريد أن أشمّك وألمسك. أريد أن أسمع صوتك. أريد أن أعرف أنك امرأة حقيقية».

خرجت من باب المدخل. لامست عباءتها الحريرية يدي، فسرى تيار كهربائي في أعصاب جسدي كله.

أدارت ظهرها وابتعدت مسرعة، واختفت في ظلام الشارع. وقفت أراقبها وهي تبتعد. لم أقو على إبداء أي حركة. كانت هناك ورقة مجعّدة عند قدمي.

انحنيت والتقطتها. فتحت الرسالة.

ثمّ دفنت وجهي بين يدي ورحت أبكي.

حبيبي،

ذات يوم في السنة الماضية، طلبت منا أستاذة الأدب العربي أن

نكتب قصّة حياتنا. وقالت يجب أن تكون في حدود خمس صفحات. كتبت: «إنني ابنة رجل إريتري من الجيل الثاني وامرأة مصرية من الجيل الخامس».

نادتني المعلمة وانتحت بي جانباً وقالت، يا عزيزتي، إنك أفضل طالبة في هذه الكليّة. وكنت أتوقّع منك أكثر من هذا. لقد قلت خمس صفحات، لا عشر كلمات. هل أنت على ما يرام؟»

فأجبتها أنني لا أعاني من أي مشاكل، لكن هذه هي قصّة حياتي. وهذا كلّ ما يمكنني أن أقوله».

سألتني: «ما خطبك؟»

فأجبت: «لن أكتب قصّة حياتي إلا عندما تكون لدي حياة أصنعها بنفسي»،

وفي اليوم الذي تملكتني فيه الشجاعة أخيراً لأقترب منك، أحسست وكأنني قد بدأت أبني حياتي. لكن كان ذلك أيضاً اليوم الذي بدأ فيه كلّ شيء يتحطم. فقد أحضر أبي إلى البيت صديقاً وقدّمني له على أني سأكون زوجته. ما حدث بعد ذلك قصّة طويلة. فمنذ أن كتبت إليك رسالتي الأخيرة، وأنا أحارب أبي وأحارب هذا الزواج. لم أتناول الطعام خلال هذه الأسابيع القليلة، وأصبحت مصدر إزعاج له، وقلت أشياء لا يتوقّع أن تقولها امرأة مهذبة، لكي يخاف مني الرجل الذي تقدم للزواج مني هو وأسرته. قلت لهم إن لديّ طموحات كثيرة، وإنني أريد أن ألتحق بالجامعة وأن أعمل وأكسب نقوداً بنفسي. لقد غضب أبي لكنني أظن أنني انتصرت في المعركة. أقسم لك إنه لن يضع رجل

يديه عليّ سواك. لقد أقسمت على ذلك منذ زمن بعيد وأنا لست من ذلك النوع من النساء اللاتي يحنثن بقسمهن. أريد أن أكون قريبة منك. لقد وصلت الآن إلى نقطة اللا عودة وأريدك أن تتخذ معي الخطوة التالية. إنني مستعدّة لمواجهة عواقب الحبّ.

فهل أنت مستعد أيضاً؟

الجزء التاسع

عواقب الحب

حبيبي، ارتدِ ملابس سعودية، سنلتقي في مركز التسوّق الرئيسي الواقع بالقرب من النافورة في الطابق الأرضي، وسنغادر من هناك كزوج وزوجة لنذهب إلى المكان السري الذي حددته. أظن أنك تعرف كيف يتصرف الزوج مع زوجته، أرجو ذلك. يجب ألا نرتكب أي خطأ. مجرد زلّة صغيرة وينتهي أمرنا. أقول ذلك لأذكّرك فقط. امش دائماً أمامي على مسافة ياردة أو حوالي ذلك، وإياك أن تلمسني، كن هادئاً، واثقاً، واحمل مسبحة. وسأنتعل أنا حذائي الوردي. آسفة على خط يدي المرتعش.

نزلت من الحافلة في آخر موقف، على مسافة خمس دقائق من مركز التسوّق.

كان المساء في أوله، وكانت تهب نسائم عليلة. بدأ مبنى مركز التسوّق يلوح لي من بعيد، مهيباً، مزيناً بأسلاك طويلة من الأضواء المتلألئة. كانت السيارات تتقدم في أرتال طويلة على جانبي الطريق. انسللت بين سيارتي مرسيدس بيضاوتين. بدأت السيارات تتحرك في الطرف الآخر من الشارع، ثم أسرعت سيارة جيب نحوي. غريزياً، خطوت إلى الوراء وارتطمت بأحد المارة على الرصيف. «لا بأس يا بني»، قال الرجل، وهو يعيد ترتيب عقاله على رأسه.

وفي محاولة ثانية، تمكنت من عبور الطريق.

اجتزت ساحة القصاص. ومع أنّني حاولت أن لا أنظر باتجاهها، طافت عيناي فوق البلاطات البيض المصقولة حيث تنفذ أحكام الإعدام. تذكّرت القصّة التي حكاها لي ماجد، زميلي السعودي في المدرسة. وقبل أن يبدأ درسنا الأول، همس لنا الصبي بأنّه يريد أن يحكي لنا قصّة عن أبي فيصل والرجل البريء. أثناء فترة الغداء، تحلقنا حوله جميعنا، بالإضافة إلى فيصل نفسه. وحذّر الصبي فيصل من أن القصّة التي سيرويها ليست في صالح أبيه. قال فيصل إنه لا يأبه بذلك، لذلك روى لنا الفتى قصّته: في يوم الجمعة الماضي، شاهد أخوه ورفاقه عملية قطع رأس جارهم الباكستاني عقاباً على جريمة قتل لم يقترفها. وعندما قطع أبو فيصل رأس الرجل، وأخذ الحرّاس السيف من يده، قال لنا صديقنا إن الدم الذي كان يقطر من حدّ السيف شكل كلمة «أنا بريء» فوق بلاط الأرضية البيضاء. وهنا راح زميلنا وجميع أصدقائه يصرخون: «انظروا. إنه بريء!» بينما راح الآخرون يصيحون، «الله أكبر، الله أكبر». وغيّر أخو ماجد وأصدقاؤه اسم شارعهم ليصبح «شارع أنا بريء» بسبب ما رأوه.

بعد أن حكى ماجد القصّة، رأيت فيصل يبكي عند الزاوية. كان يبكي لأن والده قتل رجلاً بريئاً. بكى طوال فترة الاستراحة، ولم يتوقّف حتّى عندما بدأ درس الأدب العربي. كان فيصل محظوظاً لأن معلّم الأدب العربي الذي رآه يبكي، كان ألطف المعلّمين وأكثرهم دماثة في المدرسة. وعندما حدثناه عن السبب الذي جعل الدموع تنهمر على وجه فيصل، أمسك يده وامتدحه بأنه يختلف عن أبيه.

تابعت طريقي متجهاً إلى مركز التسوّق. كان كلّ شيء يتلألأ،

وأصبح انعكاس الأضواء على الذهب في واجهات محل بيع المجوهرات شديد الصفرة في الممر. كما كانت الأصوات تتعالى، بالرغم من أن عدد الأشخاص أقل بكثير مما هو خارج مركز التسوّق.

توجهت إلى وسط مركز التسوّق، وجلست بالقرب من النافورة، وبدأت أنتظر.

سارت باتجاهي امرأة. نهضت في الحال. لكنني جلست عندما أدركت أنها كانت تمشي وراء رجل يرتدي ثوباً من دون غترة. ومرّ من أمامي فتيان تتشابك أيديهم، يضحكون بصوت عال، وهم يمضغون علكة، ويبدون شديدي الثقة من أنفسهم.

كان الرجال والنساء يغدون ويروحون، وكانت هناك امرأة تقف إلى يساري وأخرى إلى يميني. «أيهما فيور؟» سألت نفسي.

كان مركز التسوّق مليئاً بالمرايا، وكان عدد العباءات السود يتضاعف مع ازدياد عدد القادمات إلى مركز التسوّق، وكانت أشكالهن تنعكس عليّ.

بعد قليل، جاءت امرأة وجلست إلى جانبي. كان العرق يتصبب من جبهتي. لم أكد أستطيع أن أتحرّك. التصقت يداي بحبات مسبحتي. أردت أن التفت نحوها لكنني تردّدت. هل من المفترض أن تقدم هي على الخطوة الأولى؟ أم أنا؟ لم أتذكّر. عندها فقط خرج رجل من المحل قبالة المكان الذي أجلس فيه، وتقدم نحوي وانهال عليّ بأقذع الإهانات: «أيّ نوع من الرجال أنت لكي تجلس إلى جانب زوجتي؟ ألا تخجل من نفسك؟ ألم يعلّموك أن تنهض عندما تجلس امرأة بجانبك؟ هيا تحرّك، أصلحك الله وهداك إلى صراطه المستقيم».

نهضت وتوجهت لأتسلى بالنظر إلى واجهة أحد محلات المجوهرات. نظرت إلى الوراء بحثاً عن مكان فارغ عند النافورة. لم أجد مكاناً فارغاً. عندما استدرت لأتفرج على القلائد الذهبية المعلقة على تماثيل نصفية، وإلى جانبها أقراط ماسيّة، لمحت صورة اثنين من المطوّعين تنعكس على زجاج واجهة المحل. كانا يسيران وأيديهما وراء ظهريهما، يتأبطان عصيهما، ورأساهما يتلفتان يمنة ويسرة وكأنهما آلتان.

عندما نظرت إلى الوراء رأيت مكاناً فارغاً عند المقاعد القريبة من النافورة. أسرعت وجلست قبالة مدخل مركز التسوّق. رأيت الحذاء الوردي. كانت فيور تسير باسترخاء، وبطء شديد إلى حد أنه بدأ يخيّل إليّ أن المسافة بيننا تزداد اتساعاً مع كلّ خطوة. رمقتها بعينيّ، من حذائها حتى قمة رأسها. وللمرة الأولى، أحسست بأنّها فتاتي وبأنني فتاها «يا إلهي»، همست عندما جلست إلى يميني.

لم أستطع أن ألتفت إليها. حدّقت عيناي الواسعتان بعناد في الفضاء أمامي.

«ناصر؟»

لا، هل ظنت أنني لم أسمعها؟

«ناصر؟»

إني أعيش في هذا البلد منذ عشر سنوات ولا أتذكّر أن امرأة نطقت باسمي طوال هذه الفترة. كان صوتها ناعماً خفيضاً، وكلّ نبرة فيه شفافة رخيمة.

«حبيبي، أرجوك حافظ على هدوئك. ركّز جيداً».

صمت.

«ناصر حبيبي، لا ترتعش. أنا هنا الآن. حيث أريد أن أكون، وحيث تريدني أن أكون. بجانبك».

أخذت نَفَساً عميقاً. سمعته. ثمّ أطلقت زفرة. شعرت بأنفاسها تلفح وجهي. أخذت نفساً عميقاً.

«ناصر، جفف وجهك وإلا لفتّ الانتباه إلينا وسينتهي أمرنا حتى قبل أن يبدأ أي شيء».

سقط منديل ورقي على حضني.

«حبيبي، أرجوك، أتوسل إليك، أسرع، أريد أن أكون معك إلى الأبد، لا لبضع ثوان. جفف عرقك. يا الله».

رفعت المنديل، ولأول مرة أصبح بإمكاني أن أشمّ رائحتها. «حبيبي».

مرة أخرى، «حبيبي».

ومرة ثالثة، وبنفاد صبر، «حبيبي».

طويت المنديل ووضعته في جيبي. جففت وجهي بكمّ ثوبي.

«استمع إليّ يا ناصر، إذا هدأت أعصابك، سنكون على ما يرام. لنذهب يا حبيبي. لكن تذكّر أننا يجب أن نقوم بدور الزوج والزوجة».

لم أستجب. قرصت فخذي بسرعة. «انظر، إني حقيقية، انهض الآن ودعنا نذهب. إلى أين نذهب لكي نستقل الحافلة؟»

نهضت. ظلت جالسة بالقرب من النافورة. عدتُ وجلستُ. ثم همستْ، «ماذا تفعل؟»

«أنتظرك».

«حبيبي، يجب أن تعرف أن المطوّعين منتشرون هنا، لذلك يجب أن أمشي وراءك. أتظن أنني أحبّ ذلك؟ عندما نصل إلى الكورنيش، يمكننا أن نسير بجانب بعضنا. هيا امض الآن، وسأتبعك».

عندما فتحت باب الخروج، دخل مطوّعان آخران. تنحّيت جانباً لأفسح لهما الطريق.

سرت بضع ياردات أمامها. نظرت إلى الوراء مرّتين، لكنها في كلّ مرة، كانت تلوّح بيدها بغضب، لتقول إني يجب ألا أفعل ذلك.

عبرنا ساحة القصاص، ثم سرنا بين محلات الألعاب الرياضية. كانت مجموعة من الشبان يسيرون نحونا. وكان يتبعهم عدد كبير مماثل من النساء المتشحات بالسواد. أضعت فيور لفترة قصيرة. رحت أنظر إلى الأسفل بحثاً عن الحذاء الوردي. رأيته أخيراً.

وصلنا إلى موقف الحافلات. ذهبت ووقفت في مقدمة الرتل، وظلت هي واقفة في الخلف. وصلت الحافلة بعد دقائق. صعدت إلى قسم الرجال، واتجهت هي إلى قسم النساء.

جلست في مؤخرة قسم الرجال في أقرب مكان إلى قسم النساء. لم يكن شيء يفصلنا سوى اللوح الفاصل الطويل. نظرت عبر النافذة الصغيرة ورأيت أربع نساء واقفات. تمنيت أن يكون بوسعي أن أرى أحذيتهن. انحنيت قليلاً، وأخرجت المنديل الذي أعطتني إياه، وغطّيت وجهي به.

هل يمكن أن تصبح الحياة بهذا الجمال بغتة؟ فها هي ذي فيور أمامي الآن، تاركة آثار خطواتها الوردية على طول كورنيش جدة. وقد

قال الشاعر الإريتري في المخيم ذات مرة «عندما تمشي امرأة، تمشي معها الأرض». الآن فقط فهمت ماذا كان يعني. وكأنها أخذت الأرض معها، وتركتني أعوم من دون جاذبية. رحت أراقبها أين تضع قدميها وتدوس فوق الأحجار ذاتها التي يطؤها حذاؤها.

كان الكورنيش يضج بالحياة. رحنا نتمشى فوق الرصيف أمام مدينة الملاهي التي تنقسم إلى قسمين منفصلين أيضاً، واحد للرجال وآخر للنساء. كان هناك أناس يتنزهون، وأطفال يتراكضون، وعند حافة الرصيف بالقرب من مقعد كبير، كان عدد من الرجال الجالسين في دائرة يلعبون الورق. هبطت الدرجات من الرصيف إلى الرمل. كان فتى صغير يمتطي مهراً يسرع نحوي. تنحّيت جانباً. كانت فيور قد بدأت تهبط الدرجات الآن. مرت ثلاثة جمال يمتطيها أطفال.

عندما وصلنا إلى صخرتي، كان الضوء قد بدأ يخفت. لكننا لم نستطع أن نجلس هناك، لأن ذلك سيثير شكوكاً كثيرة. لبثت فيور واقفة بلا حركة، وتطلعت حولها بسرعة قبل أن تعود وتصعد الدرجات عائدة إلى الرصيف.

تلكأت قليلاً. نظرت إلى الماء، وألقيت لأمّي قبلة قبل أن أتابع طريقي وأصعد الدرجات.

نظرت في الاتجاهين، ووجدت الحذاء الوردي. سرت نحو فيور التي كانت جالسة وحدها. توقّفت فجأة.

كان المكان الذي يجلس فيه عازف العود عادة خاوياً. جثوت بالقرب من المقعد الذي تجلس عليه ولمسته لأرى هل بإمكاني أن أشعر بدفئه. نظرت نحو البحر وهمست، وأنا أبكي بصمت، «عزيزي

المغني، إنني هنا الآن مع حبيبتي. سأشتاق إليك وأرجو ألا يكون قلبك قد توقّف عن الخفقان، حتى لو كنت الآن تحت البحر، في قعره الملوّن».

كانت هي البادئة في الحديث.

«حبيبي، أتمنّى أن أضمك إليّ»، وسكتت. جلسنا لبرهة صامتين، ثمّ مضت تقول: «قل لي يا حبيبي، لماذا أحببتني؟ بالنسبة لي، على الأقل، كان حبّاً من النظرة الأولى، لكن الغريب أنك أحببتني».

لم أجب. لقد بهرتني الحقيقة، كما لو كنت حتى تلك اللحظة أحلم. فها أنا جالس بالقرب من امرأة. وحتى عندما سألتني سؤالها وصمتت، كان صدى صوتها الناعم لا يزال يتردّد حولي، مالئاً أذني بأصوات جميلة.

رحت أنظر بعيداً إلى البحر. كنت أسمع صوت أمواج البحر تتكسر على الشاطئ، وكأنها تغني، ثمّ صوت هدير عال، بينما كانت الأمواج تعلو بعضها بعضاً. ثم حطّ شحرور فوق عمود النور أمامنا. جثم بجناحيه المفتوحين، مثل طائرة تتأهب للتحليق في السماء واختراق الغيوم.

لامست فردة حذاء فيور الوردي قدمي. نزعت خفيّ، وأغمضت عيني، ورحت أداعب حذاءها الوردي بقدمي. أصابع قدمي تقبّل جلد حذائها.

«ناصر؟»

لم أرد.

مرة أخرى، نادتني، «حبيبي؟»

هذه المرة أجبت، «نعم، يا حبيبتي».

«أرجوك قل لي لماذا أحببتني مع أنك لم ترني؟»

نظرت إلى البحر أمامي وتخيّلت نفسي أقول: «فيور، لقد قرأت عن أناس أحبّوا. الحبّ من النظرة الأولى الذي تتحدّثين عنه. أظن أن الناس يشعرون بذلك عندما يرون وجوه أحبائهم، ينظرون في عيونهم، يرون أشكال أجسامهم، ويسمعون كلماتهم الرقيقة: عندها تقرر قلوبهم وينقضي الأمر. هذا هو الحبّ. لكن مشاعري نحوك كانت حبّاً قبل النظرة الأولى. كنت أتساءل أحياناً، لماذا حدث ذلك. كيف أحبّ فتاة لم أر وجهها، ولم أسمع كلماتها، ولم أمش بجانبها؟ كيف حدث ذلك، سألت نفسي. رسالة مكتوبة بخط يدها سلبت عقلي؟ لا أعرف هل تمتلكين، فيور، الجمال الذي قرأت عنه في الروايات الرومانسية التي تهرّب إلى البلد، ذلك النوع من الجمال الرائع الذي يجعل قلبك ينزف قبل أن تتمكن من إيجاد الكلمات المناسبة لتعرب عن رغبتك فيه. لا أستطيع أن أعرف هل جسدك المخفي تحت عباءتك، من ذلك النوع الذي يجعل حتى أعظم الرسامين يمضون دهراً وهم يحاولون رسم منحنياته. كما أنني لم أسمع صوتك في البدء، ولم تكن ثمة أصوات تغوص في أعماقي. صحيح، كان يخيّل إليّ أحياناً أنّكِ مجرد وهم. قلب نهم جعلني أقع في حبّ فتاة متخيّلة. لكن عندما كانت تنتابني هذه الشكوك، كنت أنظر إلى رسائلك. كانت رسائلك الجميلة تمنحني الشجاعة».

لكنني لم أقل ذلك. لم أكن متأكّداً إن كان من اللائق أن أبدأ بالتحدّث عما يقبع تحت عباءتها الآن. لذلك قلت لها: «فيور، إن حبّي

لك هو حبّ مبني على الإيمان، ذلك النوع من الإيمان الذي يظهره المؤمن لخالقه، ذلك النوع من الإيمان الذي يطالبنا الأنبياء بأن نظهره لربنا. فعندما نزل القرآن على النبي محمد، لم يكن لدينا شيء سوى الكلمات التي نزل بها لنصدقه، وقد فعلنا ذلك. فقد كنت تلقين لي رسالة بعد أخرى، وكنت أقرأ كل كلمة فيها، هكذا حدث. إن الكلمات، يا عزيزتي، قوية. لقد لبّيت نداءك واخترت أن أصبح حبيبك».

التفت لأنظر إليها. كان كلّ ما تمكنت من رؤيته بجانبي هو معالم امرأة، ظلّ داكن يجلس بجانبي على المقعد. وعندما أنصتُّ جيداً، كنت أسمع صوت تنفّسها.

صمتنا لوهلة.

«فيور؟»

«نعم حبيبي».

كرّرت الكلمة ثانية: «نعم حبيبي».

«طوال هذه الفترة، كنت أفعل ما تطلبينه مني. كنت أتبعك مثل تابع وفيّ. لقد قدمت لك أغلى شيء أملكه. لقد أصبحت وحيداً الآن في هذا العالم. لقد ائتمنتك على قلبي».

فقالت: «حبيبي، أقسم بأنني سأفعل كل ما تطلبه مني، بلا شروط».

«أريد أن أرى وجهك».

«هنا؟»

«لا. المكان يعجّ بالناس هنا. لقد سمعت عن مكان يستطيع أحدنا أن ينظر فيه إلى الآخر كما نريد من دون أن يزعجنا أحد».

«أين هو؟ لا بد أنه في الطرف الآخر من البحر»، قالت هازئة.

كنت أريد أن أخذها إلى المكان الذي حدثني عنه هلال. أحد تلك الأماكن الخفية السرية التي تمتلئ بها جدة مثل قصر السرور، وهو بعيد عن متناول ومرأى الشرطة الدينية، تجري فيها جميع الأشياء «المحرّمة» من دون خطر العقاب. إنه في أبعد بقعة من كورنيش جدة الطويل، خارج المدينة تقريباً. وهو مكان لا يذهب إليه أهالي جدة.

«لا، إنه في هذه المدينة»، قلت لفيور، «هل تستطيعين أن تغيبي عن البيت فترة بعد الظهر؟»

في وقت متأخر من تلك الليلة، ذهبت لزيارة هلال. قلت له إنني أريد أن آخذ فيور إلى ذلك المكان السري على الكورنيش. وافق على مساعدتي، لكنه طلب مني أن أقسم بأن لا أخبر أحداً من أصدقائي، لأنه متأكّد من أنهم سيغلقون المكان إذا ما بدأ السكان المحليون يرتادونه فجأة.

لم يكن بإمكان هلال قيادة السيارة لأن ساقه تؤلمه، لكنه قال إنه سيتّصل بصديق يثق فيه ـ بائع متجول يعمل بالقرب من الكورنيش. «وهو يوصلني إلى هناك دائماً»، قال هلال، «كان بإمكاني أن أجد له عملاً أفضل، لكنه أصرّ على أن يظل بائعاً متجولاً لأنه لا يريد أن يعمل تحت إمرة أحد، ولأنه يريد أن يعمل بالقرب من البحر الأحمر».

في اليوم التالي كان البائع ينتظرنا بعربته الصغيرة.

حييته. ركن عربته جانباً وطلب مني أن نتبعه إلى سيارته التاكسي.

كانت طبقة من الغبار تعلو السيارة. استخدم غترته لمسح النافذة، وطلب منا أن نصعد إلى السيارة. جلست في المقعد الأمامي، وجلست فيور في المقعد الخلفي.

قاد السيارة طويلاً في طريق وعر قديم مليء بالحفر بمحاذاة الشريط الساحلي. كان يصعب أن نصدق أننا لا نزال في جدة. كان البحر الأحمر إلى يسارنا، وإلى يميننا، خلا الطيور التي تحلق بين الحين والآخر في سماء الصحراء، لم يكن شيء سوى شجيرات جافة. وامتلأت الحفر بكثبان صغيرة من الرمل جرفتها الريح.

ثمّ انعطف السائق إلى طريق أشد وعورة، وبدأت السيارة تعلو وتهبط، مخلّفة وراءها غباراً كثيفاً. ارتطمنا بحفرة وانبعث صوت قوي من الجزء السفلي من السيارة. توقّف السائق وترجّل من السيارة، وراح يدندن ببعض الأدعية. أغمضت عيني، وأخذت نفساً عميقاً، ثم فتحتهما ثانية. تراكم الغبار حول السيارة. نظرت في المرآة الخلفية وعرفت أن فيور تحدّق بي، لكن كلّ ما كنت أستطيع أن أراه منها شكل أنف طويل يلتصق ببرقعها.

ظللنا على هذه الحال فترة طويلة. عاد السائق أخيراً وتابع السير، محاولاً تفادي الحفر التي كانت كثيرة وكبيرة كالحفر الموجودة على سطح القمر. ربما كنّا الآن على سطح القمر، لأنه قلما يذهب سكان جدة إلى المكان المتوجهين إليه الآن.

بذل السائق جهداً كبيراً في تعشيق جهاز نقل السرعة القاسي. تباطأت السيارة، لكن للحظة واحدة فقط، ثم عادت وأسرعت ثانية. اجتزنا فيللا ذات طابقين. كانت تقف هناك سيارة لاند روفر، وظهرت

امرأة أجنبية بيضاء على الشرفة. كانت ترتدي مايوه بكيني، وتلف منشفة حول خصرها. ظهر أمامنا فتاتان وصبي صغار ذوو بشرة بيضاء يلعبون كرة القدم. أطلق السائق زموره، وأنزل زجاج نافذته، ومدّ يده شاكراً، وعيناه تحدّقان إلى الأمام. التفتُّ ونظرت إلى فيور. كانت لا تزال تنظر إلى الأمام.

نظرت إلى يساري ورأيت شابّة تستلقي على منشفة، يساعدها رجل أسود اللون يرتدي سروال سباحة ضيقاً. انحنت إلى الأمام لتنفض الرمل عن فخذيها وعن ربلتي ساقيها، ثمّ ركضا إلى البحر.

أبطأت السيارة، وأطلق السائق زموره مرة أخرى. كانت ثلاث فتيات يضعن نظارات شمسية ويرتدين مايوهات سباحة يتمشّين. أوقف السيارة ونظر إليّ وابتسم ابتسامة عريضة، وقال: لقد وصلنا.

كان يمتد أمامنا سياج خشبي مكسور طويل، يصل بين حافة البحر ومبنى خشبي صغير على مسافة. قال: «سأعود في المساء».

أومأت برأسي والتفتُّ إلى فيور. كانت قد نزلت من السيارة للتو وراحت تجري نحو السياج المكسور، خلف اللافتة التي كتب عليها «للغربيين فقط». جريت خلفها.

وقفت وأمسكت طرف عباءتها الطويلة، ورفعتها فوق ركبتيها، ثم انطلقت نحو حافة الماء حيث تلامس الأمواج حبات الرمل البيضاء. تعثّرت، ثمّ سقطت، وجلست جاثية في الماء.

وقفت أراقبها.

كانت لا تزال جاثية، تنظر إلى البحر. نهضت، خلعت حذاءها، ووضعته خلفها، بعيداً عن الموجات الزاحفة إلى الشاطئ.

على الشاطئ، رأيت رجلاً أبيض يرتدي شورت سباحة يغوص في الماء. وراحت رفيقته، وهي امرأة ترتدي بكيني أصفر، تصفّق ثم قفزت وراءه، إلى بطن البحر.

كانت فيور توليني ظهرها عندما نزعت غطاء رأسها. حبست أنفاسي. كان شعرها معقوداً بدبّوس فضّي نزعته وراحت تهزّ رأسها يميناً ويساراً، فانساب شعرها الأسود المجعّد السميك فوق ظهرها. بدأت أسير نحوها مترنحاً.

نهضَت، وتركَت عباءتها تنزلق من فوق كتفيها لتسقط عند قدميها في الرمل.

توقّفت عن السير. أخذ قلبي يخفق بسرعة.

«يا الله، أيها الخالق الجبار»، همهمت لنفسي. كانت ترتدي رداء وردياً من الكتّان ذا أكمام قصيرة يصل إلى تحت ركبتيها. كان الرداء يعانق طرف جسدها العلوي النحيف بإحكام، ومع أنّه كان يتدلى بشكل فضفاض على ظهرها، كان يظهر معالم انحناءات ردفيها. كان أجمل وأحلى رداء رأيته في حياتي، وتخيّلت أجمل وأروع جسد يقبع تحته.

التفتت لنصبح وجهاً لوجه.

يا الله، أيها الخالق العظيم. يا الله أيها الخالق العظيم».

كانت لا تزال تفصلنا بضعة أمتار. كانت فيور تغوص في الماء، أما أنا فقد امتصني الرمل. كان شعرها الطويل يتطاير مع الريح في خصلات سود طويلة متشابكة.

«فيور»، همست.

لمست وجهي برقة وتحسست شفتي الجافتين. وبسبابتها جففت دموعي واستعملتها لتبلل فمي.

«حبيبي، أنا هنا، أخيراً، من أجلك. لا تدع دموعك تحجبني عن عينيك. لا تبك. جاء دورك لتنظر إليّ الآن».

في البداية، كان عليّ أن أبعد كلّ شيء يمكن أن يحول بيني وبينها: ضوء الشمس الذي يعمي البصر، والرمل الرطب، والريح التي تثير شعرها وتخفي وجهها.

مددت عباءتها فوق الرمل وجلسنا فوقها معاً. استدرت ليقيها ظلّي من الشمس. ثمّ، بحذر، أبعدت شعرها عن وجهها، خصلة إثر خصلة، حتى تمكنت من رؤيتها جيداً أخيراً.

كنت أفتح عيني على جمال امرأة لأول مرة.

لم تكن تضع مكياجاً لأنها قالت إنها تريدني أن أرى وجهها الطبيعي من دون طبقات إضافية. «من دون حجاب ومن دون مكياج»، قالت، وانطلقت منها ضحكة قلقة. كانت بشرتها سمراء داكنة لكنها أفتح من بشرتي. فقدت نفسي في عينيها البنيتين. كانت إحدى عينيها أصغر بقليل من العين الأخرى، مما جعل نظرتها تبدو أنثوية وقاسية في الوقت نفسه. كان أنفها مقوساً على نحو رائع على وجهها. وكان فمها فاغراً قليلاً، تثقله إلى الأسفل شفتها السفلى المكتنزة، لكنها لم تنبس بكلمة.

أردت أن أجلب ابتسامة إلى وجهها. تظاهرت بأنني ثملت من جمالها وتصرفت وكأنني أبله ورحت أحرك رأسي إلى الجانبين قبل أن

أسنده برفق فوق حضنها. نظرت إلى الأعلى. وتلك كانت: ابتسامة جميلة سخية عريضة.

كانت مقدمة ثوبها مزررة بسلسلة طويلة من الأزرار، مصنوعة من نفس القماش الوردي المصنوع من ثوبها. كانت الأزرار الثلاثة العليا مفتوحة، كاشفة عن البشرة الناعمة الممتدة حتى ترقوتها. حرّكت يدّي فوق الأزرار، وفتحت ثلاثة أخرى، كاشفاً عن حمالة صدرها القطنية البيضاء. كانت يدي تلامس بشرتها مع كلّ زر أفكّه. عددت مائة خطوة بإصبعي من سرتها حتى طرف ذقنها. أسندت رأسي على صدرها، وبيدي أمسكت الثوب كي لا يسقط إلى أحد الجانبين. كان شعرها ينسدل على كتفيها قريباً من وجهي، وذراعها تحيط بي. ثم عقدت ساقيها حول فخذي.

«فيور؟»

«نعم، حبيبي».

«تعرفين ذلك الرسم الذي قلت لي إنك تخبئينه داخل حمالة صدرك؟»

«نعم»

«أظن أن الوقت حان لاستبداله».

عندما أخذت نَفَساً عميقاً، ارتفع صدرها نحو السماء، وداعب نهداها، مثل موجتين هائجتين في البحر، وجهي بنعومة، قبل أن تنحسرا. أخذت نفساً أعمق، ومرة أخرى، ارتفع نهداها ولامساني، وأخذ رأسي، مثل مركب صغير، يعلو ويهبط فوق مدّ صدرها. حلّ

رأسي مكان الرسم المهلهل، وقبع رأسي الآن بين منحنيات صدرها العميقة.

مكثنا هكذا لساعات طويلة.

قبل أن تميل الشمس نحو الغروب، وقبل أن يتغيّر لون البحر، وقبل أن يغادر الغربيون في سياراتهم اللاند روفر، وقبل أن يعود البائع ليعيدنا إلى حي النزلة، وقفت وطلبت مني أن آتي معها.

خدّرني عطر الياسمين الذي تضوع منها. كانت تنثر الرمل بقدميها. وصلنا إلى كثيب رملي شديد الانحدار مطل على البحر. بدأت تصعد. صعدت وراءها. وصلت إلى قمة كثيب الرمل المطل على البحر.

كانت الريح تهب. والتفّت كلّ ضفيرة من شعرها الأسود الكث صاعدة إلى السماء مثل ألف راقصة شرقية في أخدود ممل.

ثمّ التفتت. وبينما أخذنا نغوص أكثر وأكثر، رحنا نغرق في الرمل المتهالك، وعندما تلامست أيدينا، تألّقت ابتسامتها. وعندما رفعت الريح الرمل وذرته على رؤوسنا مثل حبات المطر، رفعنا ذراعينا في الهواء، وتردد صدى كلماتنا في فم أحدنا الآخر: «أحبّك، أحبّك، أحبّك».

حان وقت وصول السائق ليعيدنا إلى حي النزلة. كانت فيور تهم بارتداء عباءتها، لكنني رجوتها أن تنتظر. «أرجوكِ انتظري قليلاً. فلم يصل السائق بعد».

كنا لا نزال واقفين عند حافة البحر. ينظر أحدنا في عيني الآخر. قلت لها إنني أتمنى ألا يمرّ يوم من دون أن يلتقي رأسي بنهديها. مزّقنا الرسم الصغير، وهنا قالت: «ناصر، عندي خطة».

«حبيبي، عندما رأيتك للمرة الثانية تمشي في شارع النزلة، كنت في طريقي لزيارة صديقة لي في حي النزلة الشرقية. كنت ترتدي بنطال جينز أزرق وقميصاً أبيض قصير الكمين. أعترف أنني التفتُّ ورحت أتتبعك بعيني، لكن لم يكن كتفاك هما اللذان جلبا الابتسامة إلى شفتي، بل قسماتك. إذ فتنتني سماتك الرقيقة على الفور». توقّفت. كان أحدنا يمسك يد الآخر، ننظر إلى البحر.

«حدثيني عن خطتك، يا فيور؟»

«أريد أن آخذك معي إلى البيت، أريد أن أصطحبك إلى غرفتي، وأريد أن نكون وحدنا كما هو حال جميع العشاق. ها هي ذي خطتي. أريدكَ أن ترتدي ثوب امرأة وأن تأتي إلى البناية ذات الطوابق التسعة على أنك إحدى أعزّ صديقاتي في المدرسة تأتي لندرس معاً. إنك بحاجة إلى عباءة طويلة وقفازين وبرقع، واترك الباقي علي».

«يا إلهي، إنك مجنونة. وماذا عن أبيك؟»

«سنلتقي في قسم النساء. على كل حال، هو الذي طلب أن نقيم جداراً بين قسمنا وقسمه، أما بالنسبة لأمي فلا تقلق. إنها ستفهم، فهي لم تفقد ثقتها بالحب بعد».

عندما ارتدت حجابها، نظرت بعيداً إلى البحر مولياً إياها ظهري. طوقتني بذراعيها وأسندت رأسها على ظهري، وقالت «ناصر، لا تحزن، ستراني قريباً مرة أخرى».

استدرت، ومع أن تقبيل امرأة متلحفة بعباءة يبدو أمراً غريباً، فقد قبّلت شفتيها من وراء حجابها. «حسناً. سيصل السائق في أيّ لحظة».

في ذلك المساء، توجهت إلى السوق القريب من دوّار حي النزلة،

واشتريت عباءة سوداء، ووشاحاً طويلاً، ونقاباً للوجه، وقفازات سوداء، وجوارب تصل إلى الركبة، وحذاء أسود واطئاً.

كنت خارجاً من محل بيع الأحذية عندما صادفت باسل. وقف ساكناً في مكانه، ومن دون أن ينبس شفة، حدّق فيّ وبمجموعة الأكياس الكبيرة.

خطوت إلى الوراء حتى كادت الأكياس أن تسقط من يدي، لكنّني سرعان ما استجمعت شجاعتي. كان عليّ أن أتصرف بصورة طبيعية: فقد كان آخر شيء ينقصني هو أن أمنح باسل سبباً يقودني به إلى ساحة القصاص وهو يبتسم، وفيور قابعة في المقعد الخلفي من سيارته الجيب.

نظر أحدنا إلى الآخر بصمت.

كان علي أن أمرَّ من جانبه لأذهب إلى بيتي. عندما أصبحت بجانبه، أمسك بذراعي. ومن دون أن ينظر إليّ، قال: «ماذا تنوي أن تفعل يا عزيزي ناصر؟»

كنت أرجو ألا أجيبه، لكنني فعلت، وقلت: «لا تتعب نفسك وتفكر بأساليب توقعني فيها. انس الأمر واتركني في شأني. لن أعود إلى إمام مسجدك».

ترك يدي، واستدار ببطء، وقال هازئاً، «سنرى».

في طريقي إلى البيت، لم أكفّ عن التفكير بلقائي بباسل: «ماذا سيفعل؟ هل رأى ما كان داخل الأكياس؟ لا. إني واثق من أنه لم ير شيئاً».

ذكّرت نفسي بما جعلني أهزم خوفي وأقبل اقتراح فيور للحبّ،

وهو أن الحياة مؤقتة. وقلت لنفسي إذا حدث أيّ مكروه لي الآن، فسأكون سعيداً لأنني أصبحت على الأقل أعرف طعم الحبّ.

استلقيت على السرير، غير قادر على انتظار قدوم اليوم التالي وموعدي مع أجمل زهرة في العالم.

كان صباح يوم الخميس، في منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد مضي حوالي أربعة شهور على أول رسالة ألقتها إليّ فيور. كنت أجلس على سريري، والحجاب الذي سأرتديه ملقى إلى جانبي.

البارحة، عندما كنّا في الكورنيش، أرتني فيور كيف أرتديه. لكني عندما وقفت أمام المرآة في ذلك الصباح، بدا الأمر أصعب بكثير من دون مساعدتها. وضعت العباءة السوداء، وهو ما لم يكن صعباً لأن ذلك يشبه وضع العباءة ذات الحواف المذهبة التي يرتديها الرجال فوق أثوابهم. أما الأصعب فهو وضع حجاب الرأس. فقد بذلت مجهوداً كبيراً لكي أثبت طبقات القماش المتعددة بالدبابيس فوق أذني مباشرة. كنت أحتاج إلى مزيد من الممارسة والتدريب. تساءلت ماذا يمكن أن يحدث لو انفكّ وأنا أسير في الشارع. سحبته من الطرف الآخر لأتأكد من بقائه مثبتاً في مكانه. بدا كل شيء على ما يرام، حتى الآن.

رفعت الجورب إلى أعلى ساقي، وربطت الحذاء الرقيق ذا النعل المسطح، ووضعت القفاز. وثبّت أخيراً قطعة الحجاب التي تغطّي ما تبقى من وجهي. في البداية، رحت ألهث طلباً للهواء. وعندما أخذت نفساً عميقاً، التصق الحجاب بأنفي، فأوقف تدفق الهواء. عندها أدركت أنه عليّ أن أتنفّس بهدوء وبشكل أبطأ لكيلا أختنق. وكان ذلك أفضل.

نظرت إلى المرآة. لم يعد يبدو من ناصر شيء، حتى إن الجزء

السفلي من بنطالي قد اختفى. وقبل أن نغادر الكورنيش، قالت لي فيور: «ناصر، لقد تربيت مع النساء، ورأيت كيف يتكلّمن. وأعرف أنك لم تنس كيف يتحرّكن عندما يمشين، وكيف يلبسن ثيابهن. حبيبي، إن الناس يظنون بسهولة أنك فتاة إذا ارتديت ثياباً مثلهن». لكن هذا، قلت لنفسي وأنا أحدّق في المرآة، لا يشبه نساء تلّ العشاق.

نظرت عبر ثقب الباب الأمامي لأتأكد من عدم وجود أحد في المدخل. وكما اتفقنا، غادرت شقّتي وأنا أرتدي البرقع بكامله في الساعة الثانية بعد الظهر متوجهاً إلى بيت فيور. كان الشارع مقفراً. كنت قد جلست كثيراً تحت شجرة النخيل أراقب الفيلم بالأبيض والأسود أمام عيني، لكني لم أكن أتخيّل أنني سأشارك ذات يوم في أحد تلك المشاهد الداكنة الغامضة، وقلت لنفسي «إنه أمر غريب للغاية»، وأنا أسير في حي النزلة، «بأنني أصبحت الآن في عالم النساء، بينما كنت منذ ساعة فقط في عالم الرجال». يمكنني أن أتنقل بين هذين العالمين، وأؤدي دور الأبيض والأسود معاً.

بدأت أغذّ الخطى عندما رأيت المرأة ذات الحذاء الوردي. قلت في نفسي يجب ألا أركض. اعترتني رغبة جامحة في أن أسرع لألحق بها وأضمها بين ذراعي.

«إنه أنا ناصر»، قلت عندما اقتربت منها.

«اشتقت إليك يا ناصر»، قالت بهدوء عندما استدارت وشبكت ذراعها بذراعي.

«ألا يمكنني أن أقبّلك على خديك؟» قلت مازحاً، «ألا أبدو مثل امرأة بالنسبة لك؟»

ضحكت عندما دغدغتها. وقالت: «ناصر. توقّف عن ذلك. هذا يكفي. ناصر!»

«حسناً»، تركتها.

«لنذهب»، قالت.

فتحت باب البناية الأمامي.

كان مدخل البناية مكيّفاً، واسعاً، مزيّناً، ومنيراً. وفي الصدر ثلاثة مصاعد. وكانت الجدران والأرضيات مرصوفة ببلاط مغربي جميل. ضغطت على يدي. «هل أنت على ما يرام؟» همست، بينما وقفنا ننتظر الصعود.

«لا أشعر بسعادة أكثر من هذه»، همست.

وصل المصعد وخرج منه طفلان وأمّهما. «السلام عليكم»، حيّت فيور المرأة.

فأجابت، «وعليكم السلام».

ضغطت فيور على زر الطابق الثالث. هززت رأسي، وقلت: «إذن كنت ترين كل ما يحدث من الطابق الثالث؟»

ضحكت ووقفت أمامي. وضعتُ يدي المكسوتين بالقفازين حول خصرها وسحبتها نحوي.

قالت: «هذا هو مدخل النساء إلى بيتنا، وذاك»، قالت وأشارت إلى المدخل في الطرف الآخر من الممر، «مدخل الرجال. لقد رتّب أبي ذلك عندما رمى جهاز التلفزيون».

فتحت الباب. هجمت رائحة البخور على أنفي. كان هناك مدخل طويل. قالت: «اتبعني».

كاد البهو أن يكون فارغاً باستثناء مزهرية سورية تنتصب فوق طاولة من الرخام الأسود وأحذية مصفوفة على طول أحد الجدران.

وفي نهاية القاعة ثلاث درجات صغيرة تنزلق إلى مقصورة مقوّسة. قالت «هذه هي غرفتي»، وفتحت الباب الأبيض، وأضافت، «ابق هنا حبيبي. يجب أن أكلّم أمّي وسأعود بسرعة».

كانت رائحة الغرفة مثل غرف النساء في تلّ العشاق: رائحة المناشف الرطبة المعلقة بجانب الخزانة، وحمالة الصدر والثياب التي تفوح منها رائحة الياسمين على الكرسي. أردت أن أخلع حجابي لكنني خشيت أن يأتي أحد أبويها.

كانت غرفة كبيرة، وكانت طاولة تنتصب في وسط الجدار قبالة الباب. وعلى يسار الطاولة في الزاوية مزهرية أخرى فوق منضدة سوداء أخرى، وبجانبها على الأرض، جهاز تسجيل ومذياع. كان سريرها ينتصب في الزاوية اليسرى.

بدءاً من يمين طاولة المكتب، وعلى امتداد الجدار الملاصق في شكل حرف L، توجد رفوف عالية تكاد تلامس سقف الغرفة. وكانت الرفوف مليئة بالكتب. ألقيت نظرة سريعة عليها وبدا أن جميعها في الأدب الإسلامي. اقتربت ورحت أنظر في كتب أحد الرفوف العليا. اخترت كتاباً لأحد المشايخ المتشددين في الرياض. «لماذا يوجد لدى فيور هذا الكتاب؟» تساءلت. كان عنوانه «دور المرأة المسلمة في مجتمع اليوم». لكنني عندما رحت أتصفحه، ضحكت. فلم يكن داخل الكتاب ما يدلّ عليه عنوانه. فقد كان يحتوي على رسوم فنية إيروتيكية

فيها شروح رمزية بالرسوم. قلت لنفسي لهذا السبب قالت إنها تجيد الرسم. أعدت الكتاب، وأنا لا أزال أبتسم. يا لها من فتاة ذكية!

واصلت تصفّح الكتب، ووجدت مزيداً من الكتب عن مواضيع أخرى كالفنّ والثقافة الأفريقية وتاريخ الشرق الأوسط. وجدت كتباً للكاتبة نوال السعداوي، وفي الصفّ السفلي من الرفوف، عثرت على رواية كنت قد سمعت عنها من جاسم لكنني لم أتمكن من قراءتها. «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ. وحسب ما قاله جاسم، اعتبرت الرواية كفراً لأنها تصور العلاقة بين الله وأنبيائه، وهي رواية ممنوعة.

وتذكّرت أن فيور أوضحت في إحدى رسائلها أن أستاذتها في الأدب العربي هي التي أعطتها هذه الكتب التي هرّبتها إلى السعودية. «من السهل أن تفعل ذلك، لأنها تسافر مع صديقة لها، زوجة أحد الأمراء، ولا يقوم موظفو الجمارك بتفتيش أفراد العائلة المالكة».

عادت فيور وهي ترتدي عباءتها، لكن من دون برقع على وجهها. وكان غطاء رأسها لا يزال ملتفاً بإحكام حول رأسها.

بعد أن أغلقت الباب وراءها، رفعت عينيها إلي. قلت في نفسي يا إلهي، ها قد أصبحنا وحدنا أخيراً.

«حبيبي، لماذا لا تزال تضع البرقع؟ دعني أساعدك». أحسست بيديها ترتعشان. «أشعر بالتوتر»، قالت بصوت منخفض.

«وأنا كذلك»، قلت هامساً.

أمضيت ما بدا لي دهراً وأنا أفكّر فيها. وفي عقلي، فكّرت في ألف طريقة وطريقة للمسها. ففي الليالي التي كنت فيها وحدي في غرفتي، كنت أتخيّلها مستلقية عارية بين ذراعي وهي تجعل العالم يدور من

حولي. أما الآن، بعد أن أصبح الحلم حقيقة، فقد كنا مأخوذين بهذه اللحظة.

لكن مخاوفنا، التي كانت أشبه بكتل من الجليد تجثم فوق جسدينا، سرعان ما ذابت بسبب سعير رغبتنا.

مددت يديّ نحو خصرها، وأسندتهما فوق وركيها. هصرتهما برفق وشددتها إليّ. لم يتح لها الوقت لنزع غطاء رأسها، لأنها ما إن ألقت ببرقعي على الأرض، حتى تركّز انتباهها على شفتي. أُخذت بوجهها. رحت أمعن النظر فيها بصمت عاشق، متأملاً عينيها البنيتين الداكنتين، وشفتيها الجميلتين، وبشرتها المتألقة.

وقفنا وجهاً لوجه طويلاً.

وبدا أننا استغرقنا دهراً قبل أن تلتحم شفتانا. وعندما التحمت، أغمضنا عيوننا وقاومنا الرغبة في أن يلمس أحدنا الآخر بأيدينا، تلك الحرية التي منحناها للساننا.

«حبيبي، دعني أنزع ما تبقى من حجابي»، همست، ثم استدارت.

تراجعت خطوة إلى الوراء لأتأملها وأقدّر كل ثانية تمر. نزعت غطاء رأسها. وضعت يدي على صدري عندما نزعت دبوس شعرها ورأيته ينسدل على كتفيها فيما انزلقت عباءتها السوداء إلى الأرض. لم تتحرّك. كانت وضعية جسدها تشبه وضعية النساء في تلّ العشاق: مستقيماً، طويلاً، ذا منحنيات، أنيقاً. لم يكن حلماً، أن أعود إلى قريتي في الماضي لأتخيّل امرأة، لأستحضر في ذاكرتي سميرة الجميلة. كان ذلك حقيقة. فأنا في غرفة امرأة في جدة، وهي تقف أمامي وتبدو رائعة وواثقة.

تذكّرت الرداء الوردي الذي ارتدته آخر مرة، وكيف كان يغطي منحنيات جسدها. أما اليوم، فقد كانت ترتدي تنورة قطنية سوداء تصل إلى الركبة تضم ردفيها بإحكام، وقميصاً أسود من نوع القماش نفسه.

«إن الجو حار جداً في الخارج»، قالت، مولية أيايَ ظهرها، ثم أضافت، «ناصر، هل يمكنك أن تغمض عينيك؟»

كنت أعرف لماذا تريدني أن أصبح أعمى خلال اللحظات القليلة التالية، لذلك قلت: «حسناً، أعدك بذلك».

ولكن يجدر بي أن أنقض هذا الوعد.

أمسكت المنشفة وجثت على ركبتيها لتجفف حبات العرق التي تشكلت على وجهها وقفا رقبتها. وضعت المنشفة جانباً، وانحنت قليلاً، وانسلت يداها تحت تنورتها. أزلقت أظافرها الوردية رداء أحمر لامعاً إلى أسفل فخذيها الأسمرين وساقيها الطويلتين؛ وعندما اعتدلت في وقفتها، انزلق سروالها الداخلي حتى كاحليها. والتف سروالها الداخلي الأحمر الموشى برسوم من الأزهار حول حذائها الوردي. أزهار جنة عدن تقبع عند قدميها.

ما إن استدارت، حتى أغمضت عيني بسرعة.

سمعت ضحكتها. شممت رائحة أنفاسها. أحسست بيدها الطرية الناعمة على وجهي. اعترتني رعشة من الإثارة عندما دغدغ طرف شفتيها الرطبتين صوان أذني بكلماتها: «إذن حافظت على وعدك؟ يمكنك أن تفتح عينيك الآن».

فتحتهما على الفور، مطوقاً خصرها بذراعي. قبّلتها. وعندما عثرت

يدي على سحّاب تنورتها توقّفت. جثوت أمامها، وأنا أسحب تنورتها إلى الأسفل، الحاجز الأخير بيننا.

أغمضت عيني. أردت أن أتشممها قبل أن أراها. قرّبت رأسي بين فخذيها. أخذت نفساً عميقاً، وبعد بضع ثوان، وأنا لا أزال حابساً أنفاسي لأتأكد من هذه الرائحة التي لا نظير لها تتسلل إلى أعماق رئتي. لقد شربت وشممت ما كان يطلق عليه جاسم أغلى وأفضل ما استنبطه الفرنسيون من أنواع العطور. لكن هذا العطر مختلف. كان هذا العطر غريباً، وغامضاً للغاية.

«حبيبي؟»

أخذت تمسّد رأسي. زحفت أصابعها إلى قفا رقبتي، وراحت تداعب خلف أذني، ثم خطوط فكّي.

«حبيبي؟» مدت يدها، وأعطيتها يدي، وتشابكت أصابعي بأصابعها.

ممسكة بيدي، قادتني إلى سريرها.

بغتة، بدا كلّ شيء مرعباً. لم يكن الأمر كما كان عليه عندما كنا على شاطئ الغربيين. فقد بدا الأمر مختلفاً هنا. وكأن سريرها أرض أجنبية، غريبة ومخيفة. ربما كان ذلك نتيجة الشعور بالإثارة. ربما كان ذلك نتيجة إحساس المبتدئين بالتوتر، لأنهم لا يعرفون متى وكيف يلامس أحدهما الآخر. لكن جسدي لم يرتعش كما ارتعش في ذلك اليوم عندما استلقيت إلى جانبها على سريرها لأول مرة؛ ولم أر قط أحداً متوتراً كما هي الآن.

ذاب جسدي أخيراً، وأمسكت يداي وأصابعي نهديها، لكنني

تركتهما عندما ندت عنها صيحة رقيقة. هل كانت تجد متعة في ذلك؟ هل آلمتها؟ هل يجب أن أتوقّف؟

جربت بفمي هذه المرة، لكن برقة، عندما أحطت حلمتها اليسرى المنتصبة بشفتي. ومرة أخرى، سمعتها تئن برقة. هذه المرة، توقّفت.

تمددت بكامل طولي، مستلقياً على جانبي مواجهاً فيور.

جعلني الإحساس بأن بشرتها تلامس بشرتي أشعر بمزيد من العجز. لم أكن أتوقّع أن نكون متشنجين، وأحدنا يلتصق بالآخر، ولم يكد أحدنا ينبس بكلمة.

وفجأة تركز تفكيري على المرحلة التالية، ماذا يمكن أن يحدث بعد القبلات، وبعد اللمسات. تذكّرت عمر وهو يحدّث جاسم ويحدثني في المقهى، «عندما يتمكن حبيبان، فتى وفتاة، من أن يفعلا المستحيل بطريقة ما ويلتقيان في مكان ما ويريدان ممارسة الحب، توجد لديهما عبارة محددة لهذا الأمر وهي أنهما «يمارسان الحب كما يفعل الرجال مع بعضهم بعضاً». يجب على الفتاة أن تحافظ على عذريتها. هل تتخيّلان ماذا يمكن أن يحدث إذا لم تفعل ذلك؟»

نظرت إليها. همست فيور وهي تمسك يدي، «آسفة. إن هذا أصعب مما كنت أظن».

سكتت. حبات صغيرة من العرق تلمع على وجهها ورقبتها وصدرها في الغرفة المضاءة إضاءة خافتة بضوء الشموع. نظر أحدنا إلى الآخر دون أن نتفوّه بكلمة.

سحبت ساقيّ ودفعتهما بين ساقيها. كانتا دافئتين ورطبتين على

فخذي. ظللنا هكذا ـ التصقت ساقاي بين ساقيها والتصقت يداي بجسدها ـ إلى أن ودّع أحدنا الآخر بعد ظهر ذلك اليوم.

انقضت ثلاثة أيام أخرى قبل أن نتحدّث عن لقائنا الأول في غرفتها في عصر ذلك اليوم. قبّل أحدنا الآخر لكننا لم نفعل أكثر من ذلك. وعندما كنا نتكلّم، كان حديثنا يدور حول أشياء آمنة، مثل الكتاب الذي كانت تقرأه، أو عن أصدقائي في حي النزلة الذين كنت أرجو أن أعرّفهم عليها ذات يوم.

وفي اليوم الثالث، عصر يوم الجمعة، أدركنا أنّنا يجب ألا ندع الخوف من الحبّ الجسدي يحول بيننا. وأنه لم يكن أمامنا وقت نضيعه.

في عصر ذلك اليوم، ما إن دلفنا إلى غرفتها، حتى طلبت مني أن أبقى مرتدياً حجابي وأن أغمض عيني. وهمست، «عندي مفاجأة لك».

كانت رائحة الطعام تملأ الغرفة. قادتني إلى السرير. جلست على حافة السرير، منتظراً. كان يتناهى إلي صوت خطواتها وهي تخرج من الغرفة ثم تعود، جيئة وذهاباً. «لا تنظر بعد»، كانت تقول كلما عادت إلى الغرفة.

بعد قليل، شعرت بأنفاسها الدافئة عبر القماش الرقيق على وجهي عندما قالت بصوت منخفض، «يمكنك أن تخلع حجابك الآن».

فتحت عيني ورأيتها تقف أمامي، منحنية فوق السرير. نظرت إلى الحذاء الأسود ذي الكعب العالي الذي تنتعله. كان شعرها المجعّد مسحوباً إلى الوراء. وكانت ترتدي بنطال جينز ضيّقاً وقميصاً أسود وقد

شمرت عن أكمامه. كانت الأزرار العليا مفكوكة. وتدلّت من عنقها قلادة فضّية طويلة استقرت بين نهديها.

«كفّ عن النظر إليّ»، قالت، وهي تضحك برفق، «انظر إلى هذا».

كانت طاولتها، التي تكون عادة مليئة بأكداس الكتب، نظيفة وعليها طبقان، وزجاجة عصير الفاكهة، وكأسان، وملاعق وشوك وسكاكين، وشموع.

نزعت عباءتي. أطفأت الضوء. ومع أننا كنا في النهار، أسدلت فيور الستائر السميكة على النوافذ بأكملها حرصاً على سلامتنا. كانت غرفتها مظلمة كالليل. رحت أراقبها وهي تتحرّك بسهولة في أرجاء الغرفة المضاءة بالشموع. وسرعان ما بدأت هالات الضوء الأصفر تنسكب حولها من جميع الجهات، وهي تطوف حولي.

مدّت يدها وقادتني إلى الطاولة. شددتها إليّ حتى التصق جسدانا.

داعبت عظم ترقوتها وكأنني ألمس الوردة الوحيدة النابتة في الصحراء. قبّلت عنقها بنهم مسلم تقي ضحّى باحتساء المشروبات الكحولية على الأرض من أجل أنهار النبيذ الأحمر والأبيض التي تجري في الجنة. ثمّ، وظهرها لا يزال مستنداً على صدري، أدارت رأسها نحوي وقبّلتني قبلة سريعة. دفعتني بردفيها، وتحرّكت نحو الطاولة.

عندما نظرت إلى الأسفل، رأيت الطعام الشهي في صحني: رزّ ودجاج مقليّ، مزين بمهارة بقليل من أوراق الخسّ. لكن عيني كانتا أشد جوعاً من معدتي. شكرتها على الطعام لكنني لم أستطع أن أتوقّف عن النظر إليها. أردت أن أخبرها عن روعة جمالها. وكيف أن عنقها

يستطيع أن يحمل جميع قلائد نفرتيتي الذهبية، ومع ذلك يتبقى فيه مكان لقبلاتي. وما أشّد ما كنت أحبّ الطريقة التي تجمع فيها بين الرشاقة والعمق، حبّ يتمتع بالقوّة، الدم المصري الممتزج بالدم الإريتري.

لكنني لم أستطع أن أقول شيئاً. كان ذلك مثل تعلّم لغة جديدة، لغتها هي. والتلعثم في الكلمات لا يعتبر من حسنات العاشق المتيَّم.

كانت تضع أحمر شفاه وردي اللون، وقد برز بوضوح على بشرتها السمراء الداكنة التي بدت داكنة أكثر في الضوء الخافت. أردت أن أرى أجزاء أخرى من وجهها، لذلك قربت الشموع جميعها على الطاولة إلى أن بدت مثل إلهة في معبد.

وفجأة انطلق الآذان معلناً صلاة الجمعة، وتحطم السحر.

تحدثت فيور أولاً وقالت: «بعد نصف ساعة سيصل الإمام. لنأمل أن لا تفسد خطبته لقاءنا».

«سنعرف ذلك قريباً»، قلت ساخراً. انحنت إلى الأمام، وملأت الكأسين بالعصير، وقدمت لي كأساً وقالت: «هذه لك، يا عزيزي».

بدأنا نأكل. كانت هذه هي أول مرة نتناول فيها الطعام معاً، وقد غمرتنا نشوة هذا الوضع غير المألوف. أغمضت عيني لأنصت إلى الطريقة التي كانت تمضغ فيها الطعام وترشف عصيرها. وعندما صبّت آخر كمية من العصير في كأسينا، راحت ترمقني، ثم أشاحت بوجهها مبتسمة.

«ماذا؟» سألتها برقة.

فقالت: «إني أستغرب مدى السعادة التي تعتريني في هذه اللحظة.

إنني سعيدة لأن الأشياء البسيطة والجميلة يمكن أن تكون موجودة في الحياة، وكلّ ما يتعين على المرء أن يفعله هو أن يخرج ويبحث عنها»، ثم استدركت قائلة، «إن الصبر والشجاعة هما مفتاح كلّ شيء».

بعد أن تناولنا الطعام، أثنيت على براعتها في الطهي، وأرخيت يدي في يدها، ورحت أنظر إليها بصمت.

«ناصر؟»

«نعم».

«هل تظن أنني لست فتاة محترمة لأنني تقربت منك ودعوتك إلى غرفتي؟»

أجبت بسؤال، «هل تظنين أنني لست رجلاً محترماً لأنني لبيت نداءك ولأنني أفعل ما تطلبينه مني؟» هزّت رأسها بأن لا.

«وأنا كذلك»، قلت.

نظر أحدنا في عيني الآخر صامتين. تحرّكت أصابعنا فقط وهي تزحف الواحدة فوق الأخرى.

ثمّ، قالت فجأة: «لقد بذلنا جهداً كبيراً لنحطم المسافة التي تفصل بيننا لكي نلتقي في غرفتي، ومع ذلك، لا تزال أمامنا عقبات كثيرة يجب أن نذللها».

قلت: «إني آسف لما حدث قبل أيام، عندما أصبحنا معاً في غرفتك».

فقالت: «وآنا آسفة أيضاً. لكي أكون صادقة، ظننت أن الأمر سيكون أسهل. قلت لنفسي إن شهوتي ستجعلني أتغلب على خوفي».

وسألتها، «هل تظنين أن ذلك جاء في وقت مبكر جداً؟ ربما كان علينا أن ننتظر. . .».

«حبيبي، إني أشتاق إليك منذ فترة طويلة وأخشى أن لا يأتي الغد علينا. ألا ينبغي لنا أن نستغل كلّ يوم عندما يأتي؟»

«لكن. . .»، توقّفت، جاهداً لأنهي جملتي.

«هل تريد أن تبوح لي بشيء؟ أرجوك، حبيبي، قل كل ما يخطر على بالك».

ترددت.

«حبيبي؟»

ممسكاً يدها، خدشت إبهامها. قلت: «حسناً»، وحدثتها عما قاله عمر لجاسم ولي عن كيف يمارس الشبان والفتيات العزّاب الجنس في السعودية. ضحكت.

سألتها، «لماذا تضحكين؟»

«لأنه شيء مضحك. إذ يبدو أن صديقك عمر يتحدث بثقة تامة وكأنه يعرف جميع الشباب في هذا البلد. حبيبي، ربما كانت هناك فتيات يمارسن ما قاله عمر، لأنهن يحببن أن يمضين وقتاً ممتعاً مع الشبان الذين يحبونهن قبل أن يتزوجن زواجاً يرتّبه الأهل. لكنني أحبّك». توقّفت، وكأنها غير متأكّدة ماذا ستقول. ثمّ قالت: «حبيبي، أنا أريد أن أمارس الجنس معك كما يفعل الرجل والمرأة».

كانت تقضم إصبعها منتظرة ردّة فعلي، لكنني لم أستطع أن أنطق كلمة واحدة.

أمالت رأسها، ممسكة بيدي.

«فيور، إني... إني قلق عليك. إذا حدث مكروه لنا... تخيّلي فقط ما الذي سيحدث لك إذا أرغمك أبوك في نهاية الأمر على الزواج، واكتشف زوجك أنه ليس أول رجل في حياتك؟»

«إنك الرجل الوحيد الذي أفكّر وأحلم به. إنني مع الرجل الذي أريده، لذلك أريد أن أقاسمك كلّ ما أملكه. إنني أعرف جسدي، أما أبي فلا يعرفه. إنني أختار الشخص الذي أريد أن أنام معه، وقد اخترتك أنت».

عندما شبكت ذراعي فوق صدري لأخفف شدة ضربات قلبي، وانطلق الآذان الثاني معلناً بداية خطبة الجمعة. نظرنا باتجاه النافذة وكأن الإمام واقف هناك، وهيّأنا نفسينا لسماع صوته، وكأنه سيخترق الغرفة في أيّ لحظة.

مددت يدي وداعبت وجه فيور. وبدأ الإمام الضرير خطبته. صمتنا، مستغرقين في أفكارنا. لم يعد يُسمع إلا صوت الإمام. كانت موعظته تدور عن الجهاد.

«يا إلهي»، صاحت فيور، بصوت مرتفع. كانت هذه أول مرة أراها فيها مستثارة، «هو وأفكاره! متى سيتوقّف عن استخدامنا، نحن النساء، طعماً للحرب؟»

كنت أريد أن أخبرها أن أفضل شيء يمكننا أن نفعله خلال خطبة الإمام هو أن نفكّر بذكريات جميلة، لكنني لم أكن أرغب في أن أصبح أنا نفسي واعظاً.

نهضت من كرسيها واتجهت إليّ. وضعت يديها على فخذي.

كانت قلادتها تتدلى أمام عينيي، وأصابتني رؤية نهديها تحت قميصها الأسود بالخدر.

قبّلتني على خدّي واعتدلت في وقفتها. وبدأت تخلع ثيابها ببطء. استدارت وبدأت تطفئ الشموع، البعيدة عن السرير في البداية. كأنني أراقب لبوة تمشي في مكان حبيس مغلق، تذرع القفص من جهة إلى أخرى. استويت واقفاً وتبعتها، شمعة مضاءة في يدي، مضيئاً طريقها من الخلف.

مدّت يدها لإطفاء الشمعة الأخيرة في الغرفة.

قلت: «لا، لا ينبغي لإلهة أن يسترها شيء، حتى الظلام».

أصبحنا نلتقي كلّ يوم بعد انتهاء الدوام في الكليّة، وفي معظم عطل نهاية الأسبوع. كانت فيور تنهي أعمالها المنزلية في وقت مبكر من الصباح، لتتمكن من قضاء باقي اليوم معي. كانت السعادة تغمرنا غمراً لا نفكر معه بما ينتظرنا حتى لو ارتكبنا أصغر الهفوات. لكنني كنت أتساءل أحياناً ماذا يمكن أن يحدث إذا لم نقفل باب الغرفة ودخل أبوها فجأة وأحدنا مستغرق في عالم الآخر بصمت. لكن فيور قالت إنه لا يأتي إلى قسم النساء في البيت عندما يعلم بوجود زائرات لدينا.

لم يساور والدها أي شك. وعندما كنا نمر من جانبه في بهو المدخل، كان يخفض رأسه، كما لم تكن أمّها تأتي إلى الغرفة. وعندما كنت أسألها عن سبب ذلك، كانت فيور تكرّر ببساطة ما كانت قد قالته لي عندما كنا على الشاطئ: «إن أمّي تتفهم الأمور المتعلقة بالحبّ، لأنها لم تمارسه في حياتها».

كنا مهووسين بأن يكتشف أحدنا جسد الآخر. وكان وجودنا في

غرفة فيور، والستارة مسدلة لتحجب ضوء الشمس، كأنه الغرض الوحيد في حياتنا. كنّا نريد أن نعوّض عن الوقت الذي أضعناه. كان أحدنا يحدّق في الآخر كما لو كنا نحدّق في كتاب فيه صور لا نهاية لها، يبدو مختلفاً بطريقة سحرية في كلّ مرة نفتحه. وعندما كان الأذان يتردد، وكلما سمعنا صوت الإمام الضرير وهو يلقي خطبته، وكلما رأيت سيارة الجيب التي يستقلها باسل والمطوّعون، كنت أدرك أنه يمكن أن يُقضى على العالم الخاصّ الذي خلقناه لنفسينا في أي لحظة. لكننا عزمنا على أن لا ندع شيئاً يوقفنا، ولا حتى الخوف من مستقبل مجهول. وكنّا عازمين على أنهم إذا تمكنوا من قطع علاقة حبّنا القصيرة، فلن يتمكنوا من إيلام جسدينا أكثر، ومن دون أن تتحقق رغباتنا.

ربما لأنها كانت محتجبة عني منذ أمد بعيد، كانت تريد أن تتعرى أمامي في الغرفة. وعندما كانت تشكو ساخرة بأنّني لا أقدّر الثياب التي كانت تختارها بعناية، كنت أجيب مستفزاً إياها بأن بشرتها تطغى على أجمل الثياب في نظري.

لم نكن ننعم بالحرية إلا عندما نكون في غرفتها ونعبّر عن هذه الحرية بجسدينا. وكان في جعبتنا الكثير ليلهم أحدنا الآخر، كما تبين لنا.

وبعد ظهر أحد الأيام، عندما كانت الشمس لاهبة في الخارج، وكنا منقطعين عن العالم كدأبنا، قلت لها إنه توجد لديّ فكرة تجعل كلّ بقعة من جسدها تتألق مثل شهرزاد.

«هل لديك حنّاء؟» سألتها.

«سأجلب لك قليلاً منها من المطبخ»، وخرجت على أطراف أصابعها عبر ضوء الشموع.

«ناصر، أين تعلّمت هذا؟»

«هل نسيتِ؟ كانت أمي تنقش الحنّاء. لديك خطوط رقيقة في يديك. إنها تتباعد قليلاً، لكني أرغب في أن أتبعها حتى نهايتها».

«قد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً».

«ليس كالمدة التي تستغرقينها في رسم أشياء هنا وهنا». رحت أداعب ساقيها وقدميها.

بعد ساعات، ورأسها مستند إلى وسادة، راحت تنظر إليّ وأنا أرسم بالحنّاء أشكال زهرة على فخذيها، ثمّ زحفت حولها ببطء على يدي وركبتي، ورحت أستنشق شذى جسدها الممزوج برائحة مسحوق الحنّاء، ثمّ بدأت أنفخ بأنفاسي الدافئة على بشرتها لأجفف دوائر الحنّاء الرطبة الصغيرة.

رفعتها وأجلستها على كرسيها، ورحت أقرّبها أكثر إلى أن أجلستها في حضني، مادّةً ساقيها فوق ساقي. ضمتني بذراعيها. ولامس ردفاها أطراف ركبتي، كتبت اسمي بالحنّاء على باطن فخذيها، حرفاً حرفاً.

جفت الحنّاء بعد قليل. استلقينا على سريرها، ننتظر بفارغ الصبر. لكن عندما جفت الحنّاء، ضاجعتها. كان فخذاها ويداها وقدماها تتلألأ، وكأنها وردة تتفتح براعمها في الخلود.

وفي بعض الأيام، كان كلّ ما نفعله هو أن نلعب بعض الألعاب مثل حبيبين أحمقين. وكانت لعبتها المفضّلة هي أن أقوم بدور مخبر مكلّف بالبحث عن شيء غامض.

«شكراً لأنك أتيت بهذه السرعة»، كانت تقول، خافضة رأسها.

فأجيب، «إنني في خدمتك دائماً. لقد أُعلمت دائرتنا بوجود شيء غامض في مكان ما في مملكتك ويجب البحث عنه. أنا أفضل مخبر في العالم، حتى إنني أفضل من شرلوك هولمز الإنكليزي. سأعثر على ذلك الشيء، يا مليكتي».

«تفضل»، تقول، وتستدير وتدخل إلى إمبراطوريتها. فأتبعها، وأقف بجانب سريرها، ثم أقول: «يا مليكتي، يمكن العثور على الشيء اللغز في أي مكان في مملكتك، وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، لذلك يجب أن تتحلي بالصبر. أرجوك استلقي على السرير وانتظري».

ثمّ أبدأ عملية البحث، وتحوم شفتاي فوق قدميها أقبّل أصابعها. وكنت أرفع بصري لأرى ما يقبع أمامي، لأرى مملكتها ترقد أمامي.

خلال هذه الأسابيع القليلة السعيدة، كنت أمضي أوقات بعد الظهر مع فيور، وأقضي أوقات المساء في قصر السرور مع هاني وفهد ويحيى وأصدقائهم. ولم أكن أريد أن أثير شكوك جاسم في أنني أفعل شيئاً، لذلك كنت أحرص على زيارته بين الحين والآخر. لكنه كان يشتكي من أنّني تغيّرت. «لقد ندمت لأنني عرّفتك على الكتب»، قال مبتسماً، «لقد حوّلت صديقي العزيز إلى ناسك».

ولما كان لا يوجد هاتف في بيت فيور، ابتكرنا أنا وهي وسيلة يتصل فيها أحدنا بالآخر: سأكون في شارع النزلة مرتدياً عباءتي بعد العصر أثناء أيام الدوام في الكلية، وفي بداية بعد الظهر يومي الخميس والجمعة، وهما يوما العطلة في السعودية. وكان عليّ أن أقترب منها عندما أرى الحذاء الوردي.

لكن ذلك كاد أن يصبح هباء منثوراً في أحد أيام شهر كانون الأول (ديسمبر).

ففي عصر ذلك اليوم، نظرت من خلال ثقب باب شقتي كما كنت أفعل دائماً قبل أن أغادر إلى بيت فيور مرتدياً حجابي الكامل. لم يكن أحد في بهو المدخل. لذلك فتحت الباب ورحت أهبط الدرجات بسرعة. لكنني ارتطمت بيحيى أمام باب البناية الرئيسي. استدرت بسرعة إلى الحائط وثبّت نفسي. قال: «أنا آسف»، وأطرق برأسه في الأرض.

رحت أراقبه وهو يصعد الدرج المنحني إلى شقّتي في الطابق الأول. سمعته يقرع الباب. لبثت واقفاً بلا حراك ورحت أراقبه عبر الفتحات في الدرابزين. لكنه عندما أدار رأسه لينظر إلي، خرجت من البناية مسرعاً، والعرق يتصبب مني بشدة تحت عباءتي.

في ذلك المساء، عندما ذهبت إلى قصر السرور، كانت مسحةٌ من السعادة تعلو وجه يحيى. كان يقرع الطبلة، وكان هاني يصفّق، وفهد، الذي كان يرتدي عادة ألواناً ملفتة للنظر، يرقص. كان يقطع الهواء بيديه وهو يدور حول نفسه، ويقفز إلى الأعلى والأسفل.

انضممت إلى فهد في ساحة الرقص. وقف أحدنا أمام الآخر، اليد اليسرى لكل منا وراء ظهره، ونلوّح بيدنا اليمنى في الهواء.

«ليتنا كنا نملك سيوفاً»، قال فهد ضاحكاً، «لرقصنا رقصة السيف».

بدأ يحيى يغني بصوته الأجش. «سأجد حبيبي قريباً. سأجد حبيبي قريباً».

توقّف عن الغناء وأخذ ينقر بأصابعه. ثم فتح فمه ولوى لسانه ليطلق زغرودة طويلة وعالية تشبه صيحة سعادة عالية النبرة.

وبعد مزيد من الأغاني والرقصات، بدأ هاني وفهد يجريان وراء بعضهما بعضاً أمام القصر، وجلست أنا ويحيى على الرصيف.

وفجأة قال يحيى: «سأحبّ قريباً».

سألته، «ومن هو الفتى السعيد الحظ؟»

فقال: «إنها فتاة».

«فتاة؟»

«لماذا دهشت؟» سأل.

«ألم تكن تسخر مني عندما كنت أخبرك بأنني سأبحث عن فتاة في هذا البلد؟»

فقال: «أعرف، لكنني اليوم أدركت أن المعجزات يمكن أن تحدث».

قال لي إنه اصطدم اليوم بامرأة عند مدخل بنايتي، وقال إنه، عندما لامست صدره، أفاق قلبه ثانية. وبابتسامة على وجهه، أضاف أن الفتاة أعجبت به ولبثت واقفة في مكانها وراحت تراقبه؛ وقال إنها كانت متوترة، ورأى يديها ترتعشان. «ناصر، أقسم لك، مع أنها كانت ترتدي حجاباً، كنت أعرف أنها تبتسم».

أمسك يدي وأضاف بنبرة جدّية، «من الآن وصاعداً، سأنصب خيمة خارج باب بيتك. فلعلها تلقي لي برسالة، وقد تتطور الأمور من هناك».

ذعرت، وحاولت أن أفكر بشيء بسرعة. إذ لا أريده أن يرابض أمام بيتي طوال النهار.

فقلت: «لكن يحيى، لا توجد في العمارة التي أسكن فيها فتيات عازبات».

فسأل: «كيف عرفت ذلك؟ إنك تغار مني».

«لا، إني لا أغار منك»، قلت، «فأنا أقيم في البناية. توجد امرأتان وهما متزوّجتان. هل تريد أن تتورط مع امرأة متزوجة؟»

فقال: «لم لا؟ فأنا بحاجة إلى الحبّ مثل أي شخص آخر».

«لكن فكّر بالعواقب. ماذا سيحدث لو اكتشفت الشرطة الدينية الأمر...»

«وماذا في ذلك؟ ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟» صاح.

«يستطيعون أن يجلدوك في ساحة القصاص، بل وحتى يرحّلوك».

«لا، لن يرحلوني. إنهم سيجلدونني فقط، وحتى إذا أرادوا أن يرحلونني، فلن يفعلوا ذلك، فلدي صلات قوية».

كان يجب أن أجرّب استراتيجية مختلفة. «يحيى، ألم تقل لي ذات مرة إنك تؤمن بالحبّ غير الأناني»؟

«نعم، وما النقطة التي تريد أن تقولها؟»

«حسناً، إذا كانت هذه المرأة متزوجة وإذا ما اكتشف أمركما، عندها سُترجم حتى الموت. يا إلهي، سيضعونها في حفرة حتى رقبتها، ويداها مقيّدتان، وسيهشم الناس وجهها بالحجارة. ولن تموت المرأة التي تحبّها فقط، بل ستموت أنت ببطء بعد أن تتحطم كلّ قسمة من

قسمات وجهها المحبوب. وهناك رجال متعطشون إلى الدماء في هذه المدينة ينتظرون بالقرب من ساحة القصاص، على استعداد لرميها بأحجار كبيرة لأنها متزوّجة. وإذا لم تكن تلك أنانية فلا أعرف ماذا يمكن أن تسميها. أظن أن عليك أن تنسحب قبل أن تبدأ أيّ شيء».

نهض يحيى دون أن ينبس بكلمة وامتطى دراجته النارية ومضى.

عرفت أنّني تمكنت من إبعاد يحيى، وأنه لم يعد يفكر في المضي بفكرته المجنونة في أن يأتي إلى بيتي ليبحث عن الفتاة التي كان على قناعة تامة بأنها ابتسمت له، لكنه جعلني أدرك أنني مضيت شأواً بعيداً مع فيور. اعتراني شعور بالقلق. فكرت ثانية في الخطر الذي قد نتعرض له. ففي حين يعيش الرجال والنساء حياة منفصلة تماماً، تمكنت أنا وفيور من أن نلتقي رغم أنف الجميع. فعندما كنا نستلقي عاريين على سريرها، كنا نسمع في بعض الأحيان الإمام الضرير عبر مكبرات الصوت وهو يلعن الفتيات اللواتي يرمين رسائلهن عند أقدام الفتيان، وكان يقول: «إن مصيرهن نار جهنم».

لكنني كنت أخشى العقاب الدنيوي الذي قد يكون في انتظارنا: ماذا لو قبض علينا؟ هل سيقبض علينا؟ ماذا سيحدث لها؟ ماذا يمكن أن يحدث لي؟ ماذا يمكن أن يفعلوا بنا في ساحة القصاص؟ ماذا سيفعل بها والدها إذا عرف أنها عاشقة وأنها ألحقت بشرفه العار؟

لكن القبض علينا على يد المطوّعين لم يكن الشيء الوحيد الذي يجب علي أنا وفيور أن نحذر منه. فقد كان أبوها لا يزال يريد أن يزوّجها. فقد قالت فيور إن أمّها تظل صامتة عادة ولا تعارضه، أما عندما يصل الأمر إلى الدفاع عن مستقبل فيور، فلا شيء يمكن أن

يوقفها. وتصيح في وجه زوجها وتقول له إنها لن تسمح له أبداً بأن يزوّج ابنتهما من رجل لا ترغب به، فيقول: «سنرى. إن ابنتك تكبر. وإذا ظلت طويلاً من دون أن تقبل أياً من المتقدمين لها، فلن يرغب رجل في الزواج منها. وأنها ستصبح عجوزاً، وتموت في بيتي. سأبذل كل ما بوسعي لأحول دون حدوث ذلك».

كان قد مضى أكثر من شهر على تركي العمل في مغسلة السيارات. حسبت ما تبقى لي من مدّخرات، وتبين لي أنّ لديّ ما يكفي لأسدّ به رمقي لشهرين آخرين، حتى بداية شهر شباط (فبراير).

في ذلك الصباح، احتسيت الشاي مع جاسم في المقهى. كان رائق المزاج. قال وابتسامة عريضة تكسو وجهه، «لأنه عندما يأتي زبائن جدد إلى المقهى ويرون النادل الجديد، فإنهم يعلقون في الصنارة ويعودون دائماً. إنهم لا يريدون أن يعيشوا يوماً آخر من دون رؤية الفتى». ومنذ أن تركت العمل في المقهى، وظّف جاسم عدداً من الفتيان، من جميع الأجناس والأنواع. وكان آخر نادل عمل لديه هو فتى فلسطيني جاء مع أمّه وأخته من مخيّم للاجئين في لبنان.

وكان جاسم يتفاخر بالخدمات التي يقدمها مقهاه في مجتمع مثل المجتمع السعودي، فيقول: «إني محظوظ جداً لأني أرى رجالاً يأتون إلى المقهى مرهقين بالرغبة، لكنهم يغادرونه وهم مرتاحون ومبتسمون، وكأنهم أمضوا يوماً في الجنة».

وكنت قد توقّفت منذ زمن عن تصديق ادّعائه السخيف بأنه نبي أرسله إله الرغبة إلى الرجال المستميتين. وكما قال لي السيد هادئ ذات يوم، «إن جاسم مجرد رجل أعمال جيد، وجد له مكاناً مربحاً في

السوق واستغلّه تماماً باستخدام الصبية الصغار وعمله بالتهريب». لكنني لم أستطع أن أخبر جاسم بما كنت أفكّر فيه. فقد كنت أريده أن يظل إلى جانبي دائماً. ولم يكن بوسعي أن أعاديه، لأنه يمتلك صلات كثيرة مع العديد من الرجال ذوي النفوذ.

وكنت أقول لنفسي، «وما يدريك، فقد يفيدك أنت أيضاً ذات يوم».

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، بعد أن احتسيت الشاي مع جاسم، كان عليّ أن ألتقي بفيور في شارع النزلة، وكما وعدتها البارحة، سأجلب لها رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال»، التي أعطاني إياها جاسم منذ فترة طويلة. كنت على وشك أن أرتدي حجابي عندما سمعت قرعاً على الباب. لا بد أنه يحيى، قلت لنفسي. بسرعة أخفيت عباءتي، وباقي الثياب التي أتنكّر فيها، تحت السرير.

فتحت الباب ورأيت باسل. كان يتكئ على الجدار واضعاً يديه في جيبي ثوبه. عندما استعدت أنفاسي، ظهر حامد الحليق الذقن من ورائه، فأمره باسل قائلاً: «ادخل وفتّش بيته. إنني واثق من أنّ لدى هذا الفتى، مثل جميع الفتيان المنحرفين في حي النزلة، أكواماً من المجلات والأفلام الإباحية».

«لا توجد مواد إباحية في شقّتي» قلت، ووقفت معترضاً طريق حامد. دفعني حامد جانباً، وهو يدمدم، «ابتعد أيها الكافر».

تشبثت بمكاني. إذ تملكتني الشجاعة فجأة. لم يكن أمامي من خيار، بوجود كلّ هذه الثياب النسائية ورواية الطيب الصالح المحظورة في غرفتي. حاولت أن أدفع حامد، لكن ما إن أوشكت على أن أغلق

الباب، حتى دفعني كلاهما ودخلا البيت عنوة. دفعني باسل إلى الحائط بسرعة، وهو يصرخ، «اذهب يا حامد، واحضر العصا من سيارة الجيب».

ودفع باسل الباب بقدمه وأغلقه.

صرخت، «أقسم بالله أن ليس لديّ مواد إباحية».

دفعني بقوة، وخدش طرف وجهي على الحائط الخشن، وقال: «كذاب، لقد كنت أنا من أولاد الشوارع وأعرف أنّ لدى الفتيان أمثالك مواداً إباحية قذرة، آه؟ وإذا لم تخبرنا عن مكان وجودها، فإننا سنجدها بأنفسنا. أين تخبئها؟ في خزانة مطبخك؟ أم في خزانتك؟ أم تحت السرير؟»

كان عليّ أن أتوسل إليه. «باسل، أنا آسف. أنا حقاً آسف. لا أعرف ما الذي دهاني في ذلك اليوم. أرجوك اعذرني. أعدك بأنني سأعود إلى المسجد إذا كان هذا ما تريدني أن أفعله».

فقال: «أيها الكافر، كيف يمكنك أن تترك الإمام وتهزأ به بهذا الشكل؟»

أخذ حامد يخبط على الباب، ويصرخ، «باسل، هل أنت على ما يرام؟ باسل؟ أجبني».

«أنا بخير»، صاح باسل رداً على حامد.

«دعني أدخل وأهشم رأس هذا الصبي الملعون»، صاح حامد متوسلاً، فقال باسل، «انتظر يا حامد. لقد جعلته يعترف».

«لماذا لا تدعني وشأني»، قلت لباسل، «قلت لك إنني آسف».

فقال: «إخرس»، ودفع رأسي بقوة على الحائط. «هيا تكلّم بهدوء».

سألته، «ماذا تريد منّي؟»

ضغط بجزئه السفلي على جسمي ثم أحسست بيده تضغط على ظهري بقوة.

«إذهب إلى الجحيم»، قلت، محاولاً أن أدفعه بعيداً عني، «كيف تدّعي أنك مطوّع؟ إنك لست إلا شاذاً بائساً».

صاح مومئاً نحو الباب وقال: «سأفتح الباب الآن، حامد».

«انتظر. انتظر»، قلت، «موافق. اتركني الآن وسآتي إلى الحديقة».

صاح على الفور، «كلّ شيء على ما يرام يا حامد. ليس لدى هذا الفتى مواد إباحية».

ضغط بيده بقوة على ظهري، وبينما كان يداعب مؤخرتي، قال: «قابلني هذه اللّيلة في الحديقة في الساعة ١١ ليلاً وإلا عدت إليك».

تركني، وعندما استدار ليغادر، ابتسم.

قبل أن أتوجّه إلى بيت فيور بعد ظهر ذلك اليوم، خرجت من الشقّة ومشيت في شارع النزلة لأتأكد من عدم وجود سيارة باسل.

كان الشارع مقفراً، لذلك عدت وارتديت ثيابي لأتوجه إلى البناية ذات الطوابق التسعة.

لم أعرف ما الذي سأفعله مع باسل. لكني كنت أعرف أن وقتي الرائع الذي أمضيه مع فيور لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. عليّ أن أحدّث فيور بالأمر أو أعالج الأمر وحدي.

ما إن دلفنا غرفتها، حتى نزعت ملابسي التنكّرية ودفعتها إلى السرير. نزعت عنها ثيابها بقوة أكبر مما كنت أنوي. كانت ترتدي قميصاً قطنياً أبيض، وحمالة صدرها تتوهج من وراء القطن الرقيق مثل زنابق تحت الماء.

كنت لا أزال أتعرّق لأنني جئت مشياً وأنا أرتدي العباءة السميكة. فلن أتعوّد على ارتدائها أبداً في حياتي. عندما صعدت إلى السرير، جففت حبات العرق عن وجهي بطرف قميصها. تحرّكت قليلاً، وأزاحت شعرها الطويل إلى أحد جانبي وجهها، وبدأت تضمه في ضفيرة سميكة.

داعبتُ ظهرها المستوي الرائع وردفيها العريضين.

قدمت لها رواية الطيب صالح. شكرتني مثل طفل مبتهج حصل على هدية جميلة كان ينتظرها منذ أمد بعيد. أخذت تقلّب الرواية، ثم استدارت نحوي ورمقتني بعينين حادّتين، ولم تقل شيئاً. وبغتة دفعتني إلى السرير ورقدت فوقي وأمطرتني بوابل من القبلات الشهوانية المتقدة. وكلما عضت شفتيّ بأسنانها، كانت تهدئهما بلسانها برقة شديدة.

«شكراً حبيبي»، قالت بعد لحظات، بعد أن ابتعدت عني تاركة فمي يتلظى. وثبت على قدميها، وقالت: «انتظر، لديّ كتاب أريد أن أريك إياه».

اتجهت نحو طاولتها، وعادت تحمل مجلداً يبدو ثقيلاً. «انظر إلى هذا وستعرف ماذا أريد أن أكون».

رمت فيور الكتاب في حضني. كان مغلفاً بغلاف كتاب إسلامي. كانت قد قالت لي إنها دأبت على تجليد كتبها من الخارج بغير أغلفتها.

ثبّتت وسادتها واستلقت على ظهرها. مدّت ساقيها ودفعت الكتاب الذي أعطتني إياه للتو بقدمها فسقط من حضني. وحلت محله في الحال.

ثمّ مدّت يدها وأرادت أن تمسك الكتاب الذي كانت تريد أن تريني إياه، لكنني أخذته منها وفتحته. كان كتاباً يحتوي على صور كبيرة. هل تريد أن تصبح مصورة فوتوغرافية؟ نظرت إلى صورة ملونة لامرأة يابانية ترتدي رداء كيمونو أبيض، تجلس فوق مقعد وتلف ساقاً على ساق وهي تحدّق في البحر الأزرق الواسع الممتد أمامها. ما أجملها، قلت لنفسي.

في مخيّلتي رحت أحدّق في المستقبل، ورأيت فيور أنجح المصورين الفوتوغرافيين في زمنها. بدت مسحة من السعادة على وجهي، لكنني قلت في نفسي، وماذا عني؟ يا إلهي، لقد أضعت أحلامي. لوهلة لم أعد أتذكّر ماذا كنت أريد أن أصبح في المستقبل عندما كنت صغيراً، قبل المدرسة، عندما فرض علينا حلم ما بعد الموت حتى نسينا أحلامنا على الأرض. ماذا كنت أريد أن أكون؟ مع من أريد أن أكون؟

تكدّر مزاجي.

عدت أتصفّح كتاب التصوير الفوتوغرافي.

سمعت فيور تتنفّس بعمق. التفت ورحت أحدّق فيها بصمت. كنا نتصرّف كما يتصرف أيّ رجل وامرأة في أيّ غرفة نوم أخرى في أنحاء العالم. لكننا لم نكن في أي مكان. فقد كنت في جدة ـ وفي غرفة امرأة. كنت في السعودية، حيث أزيلت كلمة الحبّ من القاموس، ومع

ذلك، فقد وجدت وسيلة بطريقة ما لأظهر عواطفي وحبي لشخص آخر.

لم أتمكن من التخلص من فكرة أنني أعيش حلماً. أصبح كلّ شيء مشوّشاً ومبهماً ولم أعد أستطيع معرفة أين تبدأ الحقيقة وأين يبدأ الوهم. ففي بلد كهذا، ماذا يمكننا، أنا وفيور، أن نتوقّع بشكل جدي من مستقبلنا معاً؟ ماذا سيحلّ بنا؟ كيف سنعيش، وأين؟

باعدت بين ساقيّ فيور، وغطّيت رأسي بيدي.

«ناصر، هل أنت على ما يرام؟» سألتني فيور.

هززت رأسي.

أسندت رأسها على فخذي. نظرت إليها. التقت عينانا وغمزتني. انحنيت فوقها وقبّلتها. لففت خصلة من شعرها بين أصابعي، وهمست، «كنت أفكّر بمستقبلنا معاً. ما أروع أن تصبحي مصورة فوتوغرافية عظيمة، وأنا».

«حبيبي، لنكفّ عن التحدث في هذا الأمر»، قالت، وانتصبت في جلستها على السرير.

«لم لا؟ لقد أعطيتني الكتاب. كنت أظن أنك تريدين أن...»

«لقد أردت أن أريك شيئاً كنت أحلم به في الماضي».

«الماضي؟ إنك في التاسعة عشرة من العمر. يبدو أنك دفنت أحلامك».

«حبيبي، لقد دفنت حياتي كلها في اليقظة، ناهيك عن أحلامي. الآن، لنقرأ»، قالت.

لبثت ساكتاً. لكن عندما تابعت تصفّح كتاب التصوير الفوتوغرافي، ازددت إثارة. إذ بدا أن الصور التي أدخلت البهجة إلى نفسي منذ لحظات قد بدأت تثير في نفسي الآن مشاعر الحسد. نظرت إلى اسم وفكر المصوّرة الفوتوغرافية. إذا كان بإمكان هذه المرأة أن تفعل ذلك، فلم لا تستطيع حبيبتي؟ وضعت الكتاب جانباً. فلم أكن أريد أن يذكّرني أحد بحلم ميت.

حدّقت في الرف الذي تتكدس عليه أكداس من الكتب من شتى الأنواع. فقد كانت، مثلي، تعيش حياة شخص آخر من خلال ما تقرأه؛ تتنفّس وتأكل من صفحات كتبت في أرض بعيدة. كنّا نعيش حياة مستوردة. لماذا نحن هنا؟ أشعر كأن رفوف الكتب تميل فوقنا وتحاول أن تخرجنا من الغرفة، وكأنها تريد أن تقول: إن الحياة هناك. والكتب هي الوسيلة التي تنقلنا إلى أماكن بعيدة، أغلفتها ترفرف، جاهزة لتحلّق بنا بعيداً إلى المكان الذي نريد حقاً أن نكون فيه، إلى مكان يمكننا أن نكون فيه معاً ونعيش أحلامنا.

عندما تحركتُ على السرير، انزلق حجابي إلى الأرض. رفعتُه، وقلت في نفسي يا الله يجب أن أرتدي هذه العباءة لأخفي نفسي حتى أكون معها، لأرى وجهها، وحتى أتمكن من لمس طرف إصبع من أصابعها. يجب عليّ أن أجدول موعد مداعبة نهديها عندما يكون أبوها في المسجد أو خارج البيت مع أصدقائه: وحتى أن تنهداتها يجب أن تتوافق مع جدول مواعيد رجل ما.

اعتراني الغضب، لقد عرفت ذلك الآن. أردت أن أمزّق الستائر السميكة، وأكسر نافذتها، ثمّ أنزع عنها ثيابها، وأقبّل أنحاء جسدها،

ونمارس الجنس بحرية مطلقة حتى يسمع العالم برمته صرخات متعتنا، ويعرف رجال جدة أن امرأتي ليست بكماء.

عدت إلى الكتاب وحاولت أن أقرأ المقدمة، لكن مهما حاولت أن أهدّئ حدة أفكاري، كانت تعود وتتمرّد. نظرت إلى فيور. كانت مستغرقة في قراءة رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح. لم تكن مهيأة لمواجهة الحقيقة.

هنا تكمن المأساة، قلت لنفسي. فعندما تخرج، تغطي جمالها بقطعة قماش، أما في البيت، فإن جدران غرفتها تغلّف ذكاءها ومعرفتها، فتختفي جميع مزاياها العظيمة.

كنت أعرف أننا وحدنا في البيت لأن والدها ذهب إلى مركز التسوّق، لذلك صحت، «ما الجدوى من حياتك؟»

«ماذا؟» سألت. انتصبت في جلستها، وحدّقت فيّ. نظرت بعيداً. لم أقل شيئاً.

«أنا آسف».

استوت واقفة وقالت بصوت ناعم: «أظن أنّ من الأفضل أن تغادر. أريد أن أكون وحدي الآن». نهضت وسارت نحو نافذتها وسحبت الستارة ليتسلل منها قليل من الضوء.

سألتها، «لماذا؟ قلت إنني آسف. كانت زلّة لسان، هذا كلّ ما في الأمر».

«أشعر بأنني متوعكة قليلاً».

«أريد أن أكون معك. لا أريد أن أغادر»، قلت بحزم، «لماذا انزعجت مما قلته؟»

«في بعض الأحيان تكون في غاية السذاجة»، أجابت. كان صوتها هادئاً، لكن كانت فيه نبرة غريبة علي، فيه شيء من اللؤم، «أرجوك اتركني وحدي الآن».

لكنني أصررت. «لماذا أنا ساذج؟»

دون أن تنبس بشيء، هزّت رأسها وكأنها تعني أنني لا أستطيع أن أفهم شيئاً. للحظة فكّرت بأن أتركها في عالمها المغلق. لكنني بعدئذ فعلت عكس ذلك تماماً.

«وماذا عني؟» رميتها بالسؤال. لم أكن متأكّداً من أنني أقصد أن أسألها، لكني سألتها في جميع الأحوال. وبدلاً من أن أنتظر رداً منها، تابعت: «لقد تعبت من حياتي في هذا البلد. لقد تعبت لأنني أشعر بأننا جميعنا نقبع في سجن». أطرقت برأسي وكأنني خجلت من سؤالها، «فيور، ماذا عنك؟ ألم تتعبك هذه الحياة؟»

لا شيء. أدرت رأسي نحوها. كانت تقف بجانب النافذة تنظر إلى الشارع. كانت عابسة، وقد بدت قسمات وجهها مضحكة قليلاً، كما لو كانت تفكّر بسؤال محيّر تريد أن تجيب عليه لكنها لا تعرف كيف.

وأخيراً تحرّكت، توجهت إلى طاولتها أمام السرير، ووقفت هناك صامتة. كانت هذه هي أول مرة منذ لقاءاتنا السابقة ينشأ فيها توتّر بيننا. هل تجاوزت حدودي؟

ربما كنت مخطئاً عندما خيّل إليّ أننا نستطيع أن نتحدّث عن أيّ شيء، وأنه لا يوجد هناك شيء بعيد المنال عنا. ربما كانت تفضّل أن تعالج بعض المسائل وحدها. ربما كان عليّ أن أطيعها عندما طلبت مني أن أتركها وحدها.

لكنني بدلاً من أن أندفع خارجاً، وجدت نفسي أسترخي على سريرها وأقول لها بصوت واضح، «فيور، أريد أن أعرف بماذا تفكرين. إننا نتقاسم هذه اللحظة معاً، مع أن كلّ واحد منا يسير في درب منفصل طوال حياتنا. أما الآن وبعد أن تشابك دربانا ووجد أحدنا الآخر، أريدك أن تكلميني. إنك حبيبتي ومن المهم أن أعرف بماذا تفكرين».

رمقتني بعينين ثاقبتين. جلست على كرسيها إلى طاولة الدراسة. قلت لأتغلب على صمتها، «يجب أن تقولي شيئاً».

لا شيء.

جعلني عدم ردّها أقتنع بأنه حان وقت ذهابي. ارتديت حجابي. عندما وقفت لأغادر، رأيت فيور تنظر إليّ. لم تبد على وجهها أي انفعالات، ولم تبد رموشها الجذابة أي ملامح تدل على أنها حزينة، ولم ترتعش شفتاها أمام هجومي الانفعالي، بل حتى أن كتفيها لم يتهدلا - انتصبت في جلستها.

هززت رأسي غاضباً، وقلت: «ما خطبك يا فيور؟ ألا يمكنك حتى أن تبكي؟»

«وماذا ستجلب لي الدموع؟» قالت بصوتها الهادئ، «لقد بكيت كثيراً إلى حد أنني أتساءل لماذا لم تغرقني دموعي. إن الدموع لا تغيّر شيئاً».

نظرت إليها وهززت رأسي ثانية. لو كان بإمكاني أن أطلعها على أفكاري. ولو عمّرت ألف سنة، فلن ألتقي أحداً مثلها. فهي التي منحتني الشجاعة لأعيش حياة لم يكن يخيّل إليّ أنها ممكنة. لقد نقلت قوّتها إليّ برسائلها، قطرة فقطرة.

قرّرت أن أغيظها كما أغاظتني. قلت: «إنك تصمتين منذ فترة طويلة. لا صوت لك في الشارع، وفوق ذلك أصبحت مثل ظلّ داخل البيت الآن أيضاً. إلى متى؟»

بغتة اغرورقت عيناها بالدموع، لكن عنادها جعلها لا تذرف دمعة واحدة. اقتربت من الكرسي وحاولت أن أمسك يدها.

استوت واقفة، وقالت بغضب: «وهل تريد أن تحررني؟ هل تريد أن تفتح باب القفص وتحرّرني مثل عصفور كناري؟»

«لا. أريد أن أراك في الشارع لأن شوارعنا تفتقر إلى اللون من دونك. لأن أيامنا تفتقر إلى المعنى من دونك. الآن، بما أنّك تتحدّثين عن التحرر، دعيني أحدثك بما أفكّر فيه. يسعدني كلّ شيء أفعله يرتبط بك في هذا العالم. نعم، يا عزيزتي، إن حريتك هي حريتي».

توقّفت. ابتعدت عني واتجهت نحو النافذة. ساد صمت طويل قبل أن تبدأ الكلام.

قالت: «إن هذه النافذة هي طريقي إلى العالم. إني واثقة من أن أحلامي، عندما كنت صغيرة، كانت تشبه أحلامك. لم لا، وخاصة أنني كنت مساوية لك إلى أن بلغت سناً معيناً، ثم وُجّهت حياتي إلى مسار مختلف. لكنني لم أشأ أن أترك طفولتي. مددت أصابعي، كالمخالب، أحاول أن أتشبث بتلك الحريات المبكّرة. كنت قد صنعت لنفسي أحلاماً؛ بل حتى خطرت لي أفكار كنت أظن أنها ستجعلني سعيدة. لكنني كنت سأغادر إن شئت أم لا. كان ثمة شيء يشدني بقوة من قدمي، بينما كانت أصابعي النازفة تحاول التشبث بحافة الحياة. لقد أُرغمت على دخول هذا العالم الجديد، حيث يتعين عليّ أن أرتدي ثياباً سوداء بالكامل كما لو كنت أرملة الحياة نفسها».

غصت في أسفل السرير.

«ناصر، ما ذنبي إن كان الرجال يجرون وراء شهواتهم الشريرة؟ لماذا يتعين عليّ أن أبالي بمصيرهم إن كانوا سيذهبون إلى نار جهنم أو إلى الجنة، لماذا يجب عليّ، أنا الفتاة، أن أتحمل وزر ضعفهم؟ فأنا لست إلا امرأة تريد أن تعيش بحرية».

وقفت. نهضت وسرت نحوها. اتّكأت على إطار النافذة.

«حبيبي، عندما أناقش أبي لماذا يريد أن يوجه حياتي كما يشاء، كان يقول لي إنني يجب أن أفعل ذلك لأن الله أمر بذلك وإنه سيكافئني على ذلك في الآخرة. صدقته لفترة طويلة، مع أنه كانت تساورني شكوك حول بعض الأشياء التي كان يقولها. ثم بدأت شكوكي تكبر وتضخمت وبدأ يتعين عليّ أن أجد أجوبة عليها. لكن الكتب التي ندرسها في المدرسة تدافع كلها عما يقوله. وقرّرت أن أسأل إحدى معلماتي عن دوري في الحياة، فأعطتني شريط كاسيت عن تعاليم الإمام الضرير بعنوان «دور المرأة المسلمة الصالحة في مجتمعنا». وبعد أن استمعت إلى الشريط، تملكني الخوف من أن أتجرأ وأطرح سؤالاً واحداً، لأن الإمام قال إن الذين يشككون في القواعد التي وضعها الله سيلقون غضب الله وثأره. لكنني وجدت نفسي أستيقظ في صباح اليوم التالي، تساورني الشكوك والأسئلة ذاتها. لم يردعني تحذيره».

صمتت فيور، ترتسم على وجهها ابتسامة رقيقة، وكأنها تذكّرت تلك اللحظة، وقالت، «ثمّ جاءت معلّمة جديدة للأدب العربي، المعلّمة التي حدثتك عنها، إلى كليّتنا. كانت من مكة المكرمة وفي أواخر الثلاثينات من عمرها. ومع مرور الزمن، بدأت أتعلّق بها لأنني رأيت

في وجهها رقة وشجاعة وذكاء. وفي أحد الأيام، وبعد انتهاء الدرس، استجمعت شجاعتي وسألتها سؤالاً طالما كان يؤرقني. أخذتني جانباً وهمست، «من الرائع أن يطرح المرء أسئلة». وفي اليوم التالي، أعطتني ثلاثة كتب. كانت تلك أولى هداياها العديدة. كانت دواوين شعر وروايات لعدة كتّاب مصريين. لكن كتابي المفضّل الذي أعطتني إياه منذ أيام قليلة قبل أن تُنقل إلى كليّة أخرى في مكة المكرمة منذ سنة تقريباً، كان رواية نجيب محفوظ».

صمتت فيور، وتنهّدت، وبينما كانت تجفف دموعها، صرّت على أسنانها وأضافت، «كتبت لي معلّمتي ملاحظة داخل الرواية قالت فيها، «إن الحياة جميلة. لا تتخلي عنها لأي شخص» ومن هذه النافذة، المخبأة وراء هذه الستائر، أراقب نوع الحياة التي أحلم بها. وقد حاولت غالباً أن أتخيّل كيف تبدو حياة الرجل. لا بد أنها مليئة بالتحديات. إن مجرد التفكير بأنك قادر على أن تطارد حلماً يكفي لأن يجعلني أحسدك».

استدارت فيور وواجهتني. «ناصر، لقد أقنعت نفسي بأن نوع الحياة التي أريد أن أعيشها تكمن في مكان آخر. أريد أن أذهب إلى مصر أو إلى لبنان. إن الحياة أقصر من أن أمضي وقتاً طويلاً في القراءة في هذه الغرفة. أتمنى أن أعرف كيف يمكنني أن أفلت من كل هذا، بل أريد أن أعود إلى بلد أبي، بالرغم من الحرب هناك».

استمعت إلى تنفّسها الناعم، ورأيت عينيها تغرورقان بمزيد من الدموع.

«لنخرج»، قلت لها بعد ساعات قليلة، وسحبتها إليّ وأجلستها في حضني «سأعرّفكِ على أصدقائي».

طوقت رقبتي بيديها وتنهّدت. «ناصر، أنت تعرف أنّني أحبّ أن ألتقي بأصدقائك، وأن أصافحهم، وأن أضحك معهم، وأن أكلّمهم. لكن. . .»

سألتها: «أليس من الطبيعي أن أعرّف المرأة التي أحبّها وأحترمها كثيراً على أصدقائي؟»

«إنك تعرف أن هذا مستحيل».

«لا تقلقي. سأرتدي حجابي وآتي معك لأعرّفك عليهم من بعيد. على الأقل يجب أن تعرفي من هم أصدقائي. إنك حبيبتي، بحق الله».

«ناصر، إنك مجنون»، وظهرت ابتسامة مجنونة على وجهها المتجهّم.

«الشخص الأول الذي يجب أن تتعرفي عليه هو يحيى»، قلت لفيور ونحن نسير في حي النزلة، ذراعي مشبوكة في ذراعها، متلفحين بعباءتينا.

«لماذا؟» سألت، وهي تمسك يدي المكسوة بالقفاز.

«لأنه يقود سيارته في الشارع دائماً ليتباهى بغلمانه».

ضحكت. مع أنني لم أتمكن من رؤية وجهها، كنت أعرف جيداً أن ضحكتها ستكون ابتسامة رقيقة.

سرنا حتى السوق المركزي في حي النزلة بالقرب من مقهى جاسم. لكن يحيى لم يكن هناك.

في طريق عودتنا، رأيته يخرج من المخبز. «إنه هناك، إنه هناك»، قلت لفيور، وأشرت إليه.

«أرجوك حبيبي أنزل يدك».

كان برفقة غلام لم أره من قبل، وكانت يداهما متشابكتين. كانت ذراع يحيى الأخرى تحمل كيسين من الخبز اللبناني. كان يرتدي قميص تي شيرت، ويمشي دافعاً صدره إلى الأمام يضغط عضلات زنده في كلّ خطوة.

«يسعدني لقاؤك يا يحيى»، همست، عندما مرّ من جانبا.

وقفنا خارج المحل، قبالة مقهى جاسم. وكنت قد أخبرتها أنني عندما أحتاج إلى مساعدة، كان جاسم يشغلّني نادلاً في المقهى، لكنني لم أخبرها بما حدث في تلك الغرفة الخلفية ذات السقف المغطى بالمرايا. كنت قلقاً مما يمكن أن تفكّر بي، لكنني تمنّيت أن أتمكن من إخبارها ذات يوم بذلك، ربما عندما يجد كلانا راحة البال ويزول عنا الخوف ولا نعود نحرص على حماية سرّنا.

أومأت إليها مشيراً إلى جاسم الذي كان جالساً خارج المقهى مع صديقه عمر، وقالت لي إنها تتمنى أن تستطيع أن تذهب وتشكره لأنه اعتنى بي بعد أن طردني خالي من منزله. ضحكت عندما رأت أن عمر لم يتوقف عن الكلام. ضغطت يدها بلطف وقلت: «هيا نبحث عن هاني».

قالت: «إني متلهفة لرؤيته. هل هو حقاً أقوى رجل في حي النزلة؟»

«لا، إن يحيى هو الأقوى، لكن هاني الأكثر رومانسية. إنه شاعر. وبقليل من التدريب، يمكنه أن يهزم حتى عنترة بن شداد. لكن الشيء العظيم عنه...» قاطعت نفسي وأشرت لها عبر الشارع.

«انظري، إنه هناك، إنه يتناول الشاورما خارج المطعم اللبناني».

«توقّف عن الإشارة بيدك يا ناصر. ستورطنا في مشكلة»، همست، ثم قالت، «إنه يبدو لطيفاً، لكن من هو الفتى الواقف إلى جانبه الذي يرتدي ألواناً براقة؟»

«إنه فهد، ابن عم هاني. إنه من الرياض. لقد جاء إلى هنا لقضاء بضعة أشهر. انتظري، عندي فكرة».

«ناصر، لا تكن مجنوناً. ماذا تريد أن تفعل؟»

«انتظري. إني أمزح. توجد ورقة في جيبي. هل لديك قلم؟»

أعطتني قلمها. تطلعت حولي، وعندما تأكدت من أنه لا يوجد أحد ينظر نحونا، أخذت قطعة ورق من الجيب من تحت حجابي، وكتبت رسالة من جملة واحدة بسرعة إلى فهد: «ما هذه الألوان الرائعة التي تلبسها أيها الفتى الوسيم».

جعّدت الورقة وسرنا نحوهما.

«إنك مجنون»، همست فيور، «الفتى المسكين، سيظن أن فتاة حقيقية تسعى وراءه».

عندما اقتربنا، بدأنا نتمهل. كان فهد يمسح الغبار عن نظارته الشمسية.

ما إن رميت الورقة، حتى اندفع هاني وفهد ليلتقطاها مثل حمامتين جائعتين رمى لهما أحدهم حبات من الذرة الصفراء، كما كنت أفعل برسائلها. قرصتني فيور وهمست، «انظر ماذا فعلت الآن».

التقطها هاني، لكنني رأيته يمررها بسرعة إلى فهد. قلت: «لفهد ابتسامة جميلة، انظري».

أضاء وجه فهد وهزّ رأسه، وهو يضحك. نظر هاني وفهد أحدهما إلى الآخر وصفّقا، وراحا يضحكان ضحكة عالية.

«الآن يجب أن نذهب ونحاول أن نبحث عن صديقي العزيز هلال»، قلت، مشعاً بالسعادة.

كنت قد حدثتها كثيراً عن هلال لأنه الشخص الذي ساعدنا في الذهاب إلى الشاطئ الذي يؤمه الغربيون. ولولا هلال، لما كان بوسعنا أن نتقابل وجهاً لوجه.

ضحكت فيور عندما رأت هلال يشير بغضب إلى بعض الرجال وهم يفرغون قطع أثاث من شاحنة صغيرة، وهو يدور حولهم ويعرج. «هل إنه ينتقل؟» سألتني.

«لا. ستصل زوجته من بور سودان بعد أسابيع قليلة».

قالت: «أرجو أن أتمكن من التعرّف عليها».

ثمّ قالت: «حبيبي، هيا لنذهب. يبدو أنها ستمطر. ماذا يحدث لجدة هذه السنة؟»

قلت لها: «إنني أحبّ أن أمشي تحت المطر. هل نذهب إلى شارع مكة المكرمة؟ أرجوك؟» وسحبتها من يدها وسرنا بسرعة من أمام هلال والعمال.

عندما كنا نسير باتجاه شارع مكة المكرمة، سمعت صوت محرّك السيارة الصاخب المألوف. التفتُّ ورأيت سيارة الجيب وقد بدأت تسير ببطء. نظرت إلى فيور. أمسك أحدنا يد الآخر. قلت لها أحثها: «لنسرع».

فهمست، «لا، لنحافظ على هدوئنا. لا تتكلّم. يجب ألا يسمعوا صوتك».

ضغط أحدنا يد الآخر بقوة، والعرق يتسلل من قفازينا.

بدأت سيارة الجيب تقترب، وبدأ صرير المحرّك يخفت. «لماذا بدأت تسير ببطء بالقرب منا؟ هل يعرف باسل أنني أنا الذي اختبئ تحت هذا الحجاب؟ «تساءلت، متذكّراً أنه رآني أخرج من المحل عندما اشتريت الحجاب والحذاء النسائي. لكنه لم ير ما كان بداخل تلك الأكياس. كنت متأكداً من ذلك. ربما كانوا قد أمسكوا رجلاً يرتدي عباءة نسائية؟ لعل أوامر قد صدرت للشرطة الدينية بمراقبة الفتيات اللاتي يشبكن أيديهن بأيدي بعض، فربما كانت إحداهن رجلاً يتنكر تحت الحجاب؟ تركت يد فيور. لكنها أمسكت يدي ثانية بقوة. أردت أن أطلب منها أن لا تمسكني هكذا. لم أستطع أن أتكلّم، لكي لا يسمعوا صوتي. أفلت يدي من قبضتها. هذه المرة لم تعد تمسك يدي.

كان كلّ شيء تحت حجابي يبدو داكناً للغاية. شعرت بالحرّ وبالاختناق، كما لو كنت قد علقت في مصعد مظلم خال لا هواء فيه. أردت أن أصرخ طلباً للمساعدة، أن أمزّق الحجاب عن وجهي، وأن أركض طلباً للهواء النقي.

وفجأة سمعت صوت تهشم مرتفع. غريزياً أدرت رأسي نحو سيارة الجيب. لقد داست فوق زجاجة وهشمتها إلى ألف قطعة. رأيت باسل جالساً في المقعد. كدت أنزلق فوق بعض الفضلات الرطبة. «ناصر، بحق الله، انتبه»، همست فيور.

اعتدلت في سيري. وفجأة زادت سيارة الجيب من سرعتها، ثم أبطأت ثانية، ثم توقف محرّكها تماماً. توقفت على مسافة بضعة أمتار أمامنا. لماذا يتوقّفون؟ هل ينتظروننا؟ ترجّل باسل ووقف إلى جانب سيارة الجيب، والعصا تحت إبطه.

«لنعد»، قلت أحثّ فيور.

«لا. إذا عدنا فإنهم سيشكّون بشيء، وعندها نثبت لهم ذلك. هيا نتابع طريقنا».

دمدمت بعض الدعوات. «أرجوك يا الله ساعدنا».

مشينا بخطى وئيدة. كنّا أشبه بغزالين يسيران نحو فخّ نصبه صيّادون متمرسون، ولم يكن بإمكاننا أن نعود أدراجنا ونجري لأنه قد تكون أسود جائعة وراءنا. لم يكن أمامنا من مفر.

ندمت لأنني لم أمنح باسل ما كان يريده مني أول مرة في الحديقة العامة. فلو فعلت ذلك، لربما عاد إلى حياة الشوارع كما كان لأنه لم يكن يرغب في الاستمرار في مرافقة الإمام. فإذا ذهب باسل، لن يلاحقني ويضايقني أي شرطي ديني في كل حركة أقوم بها. لكن ربما كانت لدي الآن فرصة ثانية للتخلّص منه؟ قلت لنفسي متذكراً وعدي له بأن أراه في وقت متأخر من تلك الليلة في الحديقة العامة.

جاء حامد ووقف بالقرب من باسل بجانب سيارة الجيب، واعترضا طريقنا. هل سيلاحظان حذاء فيور الوردي؟ هل سيريانه لأنه يخالف المشهد المألوف في الفيلم الأبيض والأسود المعتاد، ويبعدان حبيبتي عني إلى الأبد؟

عندما وصلنا إلى البقعة التي يقف فيها حامد وباسل، تنحيا جانباً

ليسمحا لنا بالمرور. حبستُ أنفاسي. اقتربتُ كثيراً من باسل. عندما استدار، أسقط عصاه من يده. سقطت أمامي. تمنّيت لو كان بإمكاني أن أطأها بقدمي وأكسرها إلى قطع صغيرة، لكنني لم أفعل ذلك لكي أتفادى الاصطدام به عندما انحنى لالتقاطها. كانت فيور قد تقدمتني بعدة خطوات. حوصرتُ.

أصبح حامد على يساري، وأمضى باسل دهراً ليلتقط عصاه ويبتعد عن طريقي. هل كان يدقّق تحت حاشية عباءتي ليتأكد من شكوكه في أنني رجل؟ لم أتذكّر هل كانت عباءتي طويلة بما يكفي لإخفاء سروال الرياضة الذي كنت أرتديه تحتها.

نظرت إلى الأسفل.

اعتدل باسل في وقفته وقضى دهراً ليستدير ويبتعد عن الطريق.

أحسست بحجابي يلتصق على وجهي بسبب العرق ولهاثي طلباً للهواء.

لحقت بفيور.

انعطفنا بأمان إلى شارع مكة المكرمة.

لم يعد بإمكاني التحّمل أكثر من ذلك. فقد كان لا يبارح الشارع. كم عليّ أن أصادف باسل قبل أن ينفد صبري؟ يجب أن أتصرّف قبل أن أصبح في صدام مباشر مع هذا الرجل.

إما هو أو أنا في حي النزلة. سأبذل كل ما بوسعي لأحقق ذلك.

إن أفضل حلّ بالنسبة لي هو أن أغادر جدة. فقد تحدثت أنا وفيور عن مغادرة جدة عندما كنا نتمشى على الكورنيش، وجلسنا على المقعد نراقب البحر.

حتى من دون تهديد باسل، كيف سيكون مستقبلنا إذا بقينا؟ فكلّ شيء حولنا يديره رجال. فالمحلات يملكها رجال، والسيارات يقودها رجال، وجميع الموظفين في المكاتب والإدارات الحكومية والمصارف رجال، وجميع الوزراء رجال. هل تظن فيور أن لها مكاناً هنا؟ سألتها. لا يوجد لي دور في هذا المكان أيضاً. إن أفضل الأشياء مخصصة للسعوديين، ولا يسمح للأجانب بأن يدرسوا في الجامعات السعودية، وأفضل الوظائف مخصصة للسعوديين، حتى الكرامة مخصصة للسعوديين وحدهم.

كانت فيور قد قالت لي إنها تريد أن تسافر إلى مصر أو إلى لبنان. والآن وبينما كنا نسير بمحاذاة المعبر العلوي باتجاه شارع مكة المكرمة، قلت لها إن وضعنا لا يمكن أن يستمر أكثر من ذلك، وإننا يجب أن نفكّر بجدّية في مغادرة هذا البلد بدلاً من أن يظل ذلك مجرد شيء نحلم به. وأخبرتها كلّ شيء عن باسل، وعن الحديقة العامة، وعما فعلته لأرافق الإمام الضرير ليكون الواسطة في نقل رسائلنا الغرامية، لأثبت لها كم كنت جدّياً في علاقتي معها.

قلت: «إنه يريد أن يلاقيني في الحديقة العامة هذه اللّيلة لأنه يريد أن يمارس الجنس معي يا فيور».

«ماذا؟ يا إلهي. . .»

«أعرف أن حياتك في هذا البلد صعبة لأنك امرأة. لكنني أستطيع أن أقول إنك لو كنتِ صبياً من نوع معين، فإنك أيضا. . .»

«أنا لست. . .»

«لا أريد أن أتحدّث عما حدث لي. إني أخبرك هذا الأمر عن باسل

لأنني أريدك أن تساعديني في التفكير في كيف يمكنني أن أتخلّص منه. لم يعد بوسعي أن أفعل ذلك. أريد أن نهرب».

«حبيبي، لا أريد أن أطلق عليك أحكاماً مسبقة. يا الله يا ناصر... أنا آسفة.... أنا آسفة على كل ما حدث لك».

«لقد لحق الأذى بكلينا بطرق شتى، ليساعد أحدنا الآخر في الخروج من هذا المكان. عندما نكون آمنين في مكان آخر، سيكون أمامنا عمر لكي نشفى من هذه الجروح. فيور، لا يمكننا أن نواصل حياتنا على هذا النحو. انظري كيف نرتعد عندما نرى أحد المطوّعين. يجب أن نتخذ قراراً بسرعة. لأننا إذا لم نفعل ذلك، فإن باسل سيتخذ القرار بالنيابة عنا».

لبثت واجمة لوهلة.

تساءلت لماذا لم تقل شيئاً. لعلها لم تكن تحبّني بما يكفي لتتخذ خطوة حقيقية، فنجعل أحلامنا أمراً واقعاً. لعلها تظن أنني فتى قلق مضطرب، لعلها ليست مستعدة لاتخاذ مثل هذه الخطوة الهامة. لكنني لم أكن أنوي أن أتخلّى عنها. كنت أحبّها كثيراً.

عندما كنت أسير إلى جانبها في شارع مكة المكرمة الذي تحفّه أشجار النخيل والمصابيح المتلألئة، قلت لها: «فيور، انظري إلى حالنا، لم يكد أحدنا يبلغ العشرين من العمر، ومع ذلك فقد تقاعدنا فعلياً من الحياة. ففي خارج السعودية يقولون إن الحياة تبدأ في عمرنا. هناك، يمكن أن نحبّ بحرية، ويمكننا أن نركّز على الحياة، بدلاً من أن نبحث عن سبل لتفادي الاعتقال عندما نريد أن نكون معاً».

وأخيراً، قالت: «ناصر، قلت لك إنني أريد أن أغادر، لكن هذا

ضرب من المستحيل. فأنا لا أملك نقوداً، وليس بحوزتي جواز سفر. كيف يمكنني أن أخرج؟»

أمسكت يدها وقلت: «أعرف طريقة».

عندما واصلنا سيرنا، عرضت على فيور خطتي. قلت لها إننا نستطيع أن نذهب إلى أوروبا. وحدثتها عن هارون، خادم كفيلي، الذي قال لي هلال إن رجل أعمال قد هرّبه إلى ألمانيا، وأخبرتها بأنني أعرف أين يمكنني أن أحصل على مزيد من المعلومات.

إلا أن مغادرة جدة لم تكن هي التي تقلق فيور. فقد كانت تريد أن تذهب إلى القاهرة وليس إلى أوروبا. لكنني قلت لها إنها حتى لو أرادت أن تذهب إلى القاهرة، فيجب تهريبها لأنها لا تملك جواز سفر وهي تحتاج إلى موافقة من أبيها للحصول على جواز سفر.

ثمّ قالت بصوت منخفض: «إنني خائفة يا ناصر. كيف يمكنني أن أترك أمّي؟»

ضغطت على يدها المكسوة بالقفاز وهمست، «لا تخافي يا عزيزتي. إن الوداع حزين دائماً، لكنني سأكون معك. سيسهل أحدنا الأمر للآخر».

قلت لفيور إنني كنت أتساءل دائماً كيف يمكن أن ترسل أمّ أطفالها الذين تحبّهم كثيراً بعيداً عنها؟ لكنني بدأت أدرك أن مسؤولية الأمّ أو الأب المطلقة هي أن يبحثا عن حياة كريمة لأطفالهما وأن يفعلا كل شيء لصالحهم. وفهمت أن حبّ أمّي لولديها هو الذي جعلها تنفق كلّ ما تملكه لتهريبي أنا وأخي إلى خارج إريتريا، بينما ظلت هي تحت القنابل والقصف. كانت تريدنا أن نعثر على حياة في مكان آخر، لأنها

كانت تخشى أننا لو بقينا، أن لا تستمر حياتنا. كيف يمكنني ألاّ أحترم أمّي لتضحيتها المطلقة هذه؟ وعرفت أن أمّ فيور ستتفهم الوضع أيضاً لأنها ستدرك أن ابنتها ستغادرها من أجل حياة أفضل.

عدنا إلى بنايتها وقطرات المطر التي كانت تتساقط من عباءتينا ووجهينا المحجبين، ترشح إلى فمينا.

في غرفتها عانقتها بسرعة. أمسكت يدها، وشددتها إليّ. كنت أعرف مشاعرها، لكن كان علينا أن نضع مشاعرنا جانباً الآن. علينا أن نعالج مسألة باسل أولاً، فلا يمكنه أن يظهر أمامنا طوال الوقت عندما نحاول أن ننفذ خطتنا. ماذا أفعل لو جاء إلى غرفتي ثانية؟ كيف أفسر له وجود الكتب الممنوعة، والحجاب، والحذاء والجوارب النسائية والقفازات؟ لكنني إذا رميت العباءة، فكيف سأتمكن من المجيء إلى بيت فيور؟

ذهبت أبحث عن سيارة الجيب في حي النزلة.

سرعان ما وجدتها مركونة على مسافة بضع بنايات من المسجد الكبير.

نظرت إلى جانبي الطريق. ورأيت من بعيد فتى جديداً يقود الإمام الضرير إلى بيته. كانت صلاة العشاء قد انتهت. تساءلت هل هو مطوّع بالفعل، أم عشيق مستميت مثلي، وقع في حبّ فتاة. من الممكن ذلك، قلت لنفسي. لا بد أن حي النزلة يعج بالعشاق الفاشلين.

أخذت نَفَساً عميقاً ومشيت بضع ياردات نحو الشجرة التي اعتدت الجلوس تحتها أمام بيتي القديم. كنت قد تخليت عنها، وتوقّفت عن سقايتها لفترة من الزمن لأن قلبي كان مشغولاً بحبّ فيور. كانت

الأغصان التي كانت تتوّجها ذات يوم قد جفت ولم تعد فيها حياة. تحسست جذعها، وتذكّرت كيف كنت أحضر أخي إلى هذا المكان لنجلس معاً تحت ظلّ الشجرة. فقد كان هذا المكان آمناً لأحدّثه عن أمّنا، لأن خالي كان قد منعني حتى من ذكر اسمها في بيته.

مضت خمس سنوات على انتقال خالي وأخي إلى الرياض. تساءلت هل سأعرفه إذا ما صادفته في الشارع. تساءلت هل أصبح مطوّعاً كما كان يريد خالي، وهل لا يزال يعتبرني أخاً له لأنني كنت كافراً في نظر خالي.

اعتدلت في مشيتي، ووضعت يدي في جيبي، ونظرت إلى سيارة الجيب. كان باسل يقف إلى جانبها. رأيت حامد يغادر سيارة الجيب ويدخل إلى دكان اليمني. اجتزت الطريق واتجهت نحو باسل.

عندما اقتربت منه، قال: «قل ما تريده بسرعة، لا أريد أن يتساءل حامد لماذا أتكلّم مع كافر مثلك».

أأنا الكافر؟ أردت أن أخبره بمدى مقتي لنفاقه، لكنني لم أستطع أن أبدي له ذلك. قلت: «إن كنت تريدني أن آتي إلى الحديقة معك هذه الليلة، فيجب أن تبذل جهداً أكبر».

«ماذا تقصد؟»

قلت: «أريدك أن تحلق لحيتك».

«ماذا؟»

«هل تتذكّر حياتك قبل أن تهتدي إلى الصراط المستقيم؟ الغلمان الحسان؟ لم تكن لك لحية آنذاك».

«لن أحلقها، وإذا لم تأت فسأقبض عليك».

فقلت بصفاقة، آملاً أن أكون محقاً: «باسل لا تستطيع أن توجه تهمة ضدّي. أين هي إثباتاتك؟ إني لست خائفاً. لا يوجد لدي ما أخسره».

«تعرف أنني لا أستطيع أن أحلق لحيتي. ماذا سأقول لرئيس الشرطة الدينية؟»

«إنه اختيارك».

فقال: «حسناً، حسناً، تعال إلى الحديقة في الساعة الحادية عشرة. لا أحد يذهب إلى هناك في ذلك الوقت. سنقفز من فوق السور».

وصلت إلى الحديقة وانتظرت تحت عمود المصباح إلى يمين البوابة. رأيت سيارتين تسيران جنباً إلى جنب، تتسابقان من بعيد. كانت الساعة الحادية عشرة تماماً عندما سمعت صوت دراجة نارية. التفت ولم أر شيئاً سوى ضوء أصفر مبهر يزداد قرباً.

ضجيج المحرّك حطّم الصمت وتوقفت الدراجة النارية أمامي. قفزت بعيداً. كان أول شيء أراه قدمين تنتعلان صندلاً مفتوحاً. رفعت عيني، لكنني لم أر ثوبه، بل رأيت بدلة رياضة صفراء وقميص تي شيرت أبيض. كان حليق الوجه. نظرت إليه مذهولاً. «حسن أنك أتيت»، قال باسل.

الآن وبعد أن ذهبت اللحية، أصبح بإمكاني أن أرى علائم حياته السابقة التي كنت أراها فيه من قبل: ندبة سكين كبيرة على طول خده الأيمن، وجرح طويل في ذقنه، لكنني رأيت تعابير شبق جائع.

ترجّل من دراجته، وركنها إلى جانب بوابة الحديقة. التفتَ ووقف

أمامي. لوهلة نسيت أن هذا الفتى الطويل، الذي بدأ يرتعش شهوة وهو يمسك يدي، هو باسل نفسه، الشرطي الديني الذي يجعل فرائصي ترتعد عندما يكون في سيارته الجيب. عندما استدار ليقودني إلى الحديقة، سمعت صوت درّاجة أخرى تقترب.

عندما عدت إلى البيت من الحديقة بعد ساعتين، اغتسلت قبل أن آوي إلى الفراش. بقيت يقظاً معظم الليل أفكّر بخطة للهروب.

في اليوم التالي، صباح يوم خميس دافئ، توجهت إلى المقهى الإريتري الوحيد في جدة، المكان الذي يمكن للمرء أن يسمع فيه آخر أخبار الحرب الدائرة في إريتريا، المكان الذي يرتاده المهرّبون لعقد صفقاتهم.

كان المقهى يعجّ بالرجال الإريتريين المتحلقين حول طاولات زرق. توجهت إلى النادل وحدّثته بلغة التيغرينيا، فأشار إلى رجل يجلس في الركن الخلفي من المقهى. كان الرجل يرتدي بدلة ذات قطعتين، ويضع غابي إريتري على كتفه الأيمن. كان الغابي أبيض في بياض شعره وشاربيه. عندما رأى النادل يدلّني عليه، مدّ يده عندما دنوت من طاولته، وكان رجل آخر يجلس معه.

قلت: «السلام عليكم».

فأجابا: «وعليك السلام».

«تفضل واجلس يا بني»، قال الرجل الذي يضع الغابي، «ما اسمك؟»

أجبت، «ناصر».

«اسمي حجي يوسف. وهذا موسى»، قال، وقدّمني إلى الرجل الجالس إلى جانبه، الذي كان أصلع الرأس وله شارب أسود كث.

سحبت كرسياً. عندما جلست سألني، «كيف حالك؟»

«الحمد لله».

«لقد آن الأوان للمغادرة، أليس كذلك؟»

هززت رأسي.

«لا تقلق يا بني، فقد قال الله تعالى إن بعد العسر يسرا. إلى أين تريد أن تذهب؟»

هززت كتفي وقلت: «إلى أي مكان. أريد أن أغادر هذا البلد. وبما أنني لا أستطيع أن أعود إلى إريتريا، فمن الممكن أن أذهب إلى أيّ بلد آمن بعيد عن هذا البلد».

قال: «سنجد وسيلة. سيكون كلّ شيء على ما يرام». لاحظت تجاعيد وجهه، والشال الملقى على كتفه، وإلى جانبه صحيفة بلغة التيغرينيا. ثم التفت إلى موسى وقال: «أرجو أن تتذكّره في دعواتك. إني أتألم لرؤية شخص ينتقل من بلد إلى آخر ويطيل منفاه بالذهاب إلى منطقة أبعد. لكن هذا ما أراده الله لابننا ناصر».

«إنها ليست إرادة الله»، قال موسى متجهماً، «إغفر لي أنني قلت ذلك يا حاج، لكن الذين لديهم السلطة في هذا البلد هم المسؤولون»، وصمت قبل أن يضيف، «لقد ألقي القبض على شابين في الشهر الماضي لا يحملان أوراقاً وهما الآن في مركز الاحتجاز في جدة بانتظار ترحيلهما. إنهما شابان صغيران يا حاج وقد أتيا إلى هذا البلد هرباً من الحرب. من يعيد الناس إلى منطقة مشتعلة بالحرب، وخاصة عندما يكونون صغاراً؟»

«لا، إنهم لن يرسلوهما إلى إريتريا، بل سيرسلونهما إلى السودان على أغلب الظن»، قال الحاج يوسف معارضاً.

هزّ موسى رأسه، وقال: «هذا إذا كانوا يحملون جوازات سفر صادرة عن الأمم المتحدة في السودان، أما إذا لم يكن لديهم جوازات سفر أيضاً مثل هذين الصبيين اللذين هُرِّبا من إريتريا إلى جيزان في الجنوب، فإن الحكومة ستعيدك إلى إريتريا بنفس الطريقة التي جئت فيها: في قارب صيد».

ضغطت على كفيّ. لن أذهب إلى أيّ مكان في قارب صيد.

ثمّ التفت موسى إليّ، وقال: «اذهب إلى أوروبا يا بني. لقد أرسلت أولادي إلى السويد. وهم يعاملونهم بكرامة هناك. إنهم يتفهمون معاناة الناس من أمثالنا، لذلك فإنهم يدعموننا حتى تتحسّن الأمور في بلداننا. ففي جدة، يقولون لنا إن التعليم مخصص للسعوديين فقط، أما في السويد، فإنهم يشجعون أولادي على الدراسة. يا إلهي، انظروا إلى الفرق فقط. أعرف أنها بلاد باردة هناك وهم يشعرون بالوحدة، لكنهم على الأقل لن يروا الكفيل وهو يذلّ أباهم يوماً بعد يوم، ويضربه، ويبصق عليه، ويهدده بالترحيل ليل نهار».

«يمكنك أن تثق فينا يا بني»، قال حجي يوسف، «إنني رجل عجوز وأعرف أشياء كثيرة. أريد أن أساعد بني قومي. وهذا يدخل السعادة إلى نفسي. أستطيع أن أنصحهم وأجعلهم يتصلون بأناس آخرين ليتمكنوا من إيجاد أماكن أفضل لهم».

وكانت كلّ تجعيدة من تجاعيد وجهه تبدو كأنها تخفي قصّة مخفية بين ثناياها، ووجهه الرقيق جعلني أشعر بالارتياح له، لذلك قلت: «إننا

شخصان»، من دون الدخول في تفاصيل عن فيور، وقلت لهما إننا نرغب في مغادرة البلد في أقرب وقت ممكن.

«أظن أنكما تحملان جواز سفر صادراً عن الأمم المتحدة»، قال حجي يوسف.

أجبت «أنا أحمل جواز سفر، أما هي فلا تحمل جواز سفر».

رفع حاجباً عندما أدرك أنني سأذهب مع امرأة. ابتسم وسأل، «وكيف ذلك؟»

«لقد ولدت هنا»، أجبت.

«هذا أفضل وأرخص»، قال حجي يوسف، «لا توجد لديها مشكلة إذا كانت تحمل جواز سفر سعودياً».

أوضحت له إنها لم تسافر قط، ومع أن أباها ولد في هذا البلد، فإنهم لا يمنحونه حق المواطنة. صاح موسى، «كيف ينسون أنهم كانوا في الماضي بحاجة إلى مساعدة أناس آخرين؟ كيف يمكنهم أن ينسوا الهجرة الأولى عندما أمر النبي محمد أصحابه بالهجرة إلى أرضنا هرباً من الاضطهاد الذي كان يتعرض له أصحابه؟ ألم يقدم لهم ملك الحبشة الحماية، أولم يمنحهم أرضاً لبناء بيوتهم، أولم يزوّدهم بكلّ ما كانوا يحتاجون إليه؟ بل إنهم تزوّجوا من فتياتنا، ومع ذلك فإنهم يعاملوننا بهذه الطريقة».

«هدّئ من روعك»، قال حجي يوسف لموسى، «لا تحمل الكثير من الكراهية. إن الكراهية كالنار تحرق قلبك»، ثم التفت إليّ وقال: «حسناً يا ناصر، لنتحدث في أمور العمل».

«كم يكلّف الذهاب إلى أوروبا؟» سألته ثانية.

«كلّ شيء يتوقف على الحظّ»، أجاب، «فإذا كان الطريق سالكاً، يكون كل شيء على ما يرام، وإذا كان رجل الأعمال جيداً، يكون جواز السفر المزوّر الذي يعطيه جيداً، ولن تثير التأشيرة التي يزوّرها الشكوك، وإذا لم يكن شركاؤه في الجانب الآخر طمّاعين، فإنه يكلّف من ألفين إلى أربعة آلاف دولار تقريباً. لكنه إذا نسي، كما يحدث في بعض الأحيان، أن يضع تفصيلاً صغيراً في ختم التأشيرة، فسيلقى القبض عليك، وتسجن، أو يطلب منك أن تعود لمراجعة السفارة. التهريب عملية لا يمكن ضمانها، وقد تكون خطيرة، لذلك يجب أن تكون مستعداً لدفع سبعة آلاف دولار لكلّ منكما».

«أربعة عشر ألف، يا إلهي!»، قلت، ودفنت رأسي بين يدي، «وماذا عن مصر؟ هل يمكننا أن نذهب إليها عوضاً عن ذلك؟ لا بد أن الذهاب إلى مصر أرخص، أليس كذلك؟»

تدخّل موسى ثانية، وقال: «يا بني، إن مصر بلد جميل، لكن لم يعد بإمكانه أن يرعى أهله، فما بالك بالقادمين إليه. إن مصر تتلقى مساعدات من أمريكا، كما أنني لست متأكّداً هل سيمنحونك اللجوء أم لا».

«لو تمكنت من الحصول على النقود، فهل أنت واثق من أن رجل الأعمال يستطيع أن يساعدني؟» سألت حجي يوسف، وأنا أمسك يده.

«إننا لسنا متأكّدين من الحياة نفسها يا بني»، قال، «لكنك إذا حصلت على النقود فإني سأرتّب كلّ شيء مع رجل الأعمال. لكن حضّر نفسك لما هو آت. لم تعد أوروبا بالسهولة التي كانت من قبل».

«شكراً»، قلت، وقبّلت ظاهر يده.

بعد أن غادرت المقهى الإريتري، رحت أتجوّل في الحيّ يائساً. ظننت أن ذلك سيكون أرخص بكثير ـ مئات الدولارات لا الآلاف. من أين سأحصل على هذا المبلغ الضخم؟ فكلّ ما تبقى معي منذ أن تركت العمل هو أربعمئة ريال.

لا يمكن لأحد أن يساعدنا. إذ أنفق هلال كلّ مدّخراته ليحضر زوجته من السودان وليؤثث بيته الجديد استعداداً لقدومها. ولا تستطيع فيور أن تحصل على أيّ مبلغ من أمّها لأن أباها يحتفظ بكل ما يكسبه ولا يعطيها شيئاً.

لا بدّ أنني مشيت مسافة طويلة، لأنني وجدت نفسي خارج مركز التسوّق، بعيداً عن المقهى الإريتري. دخلت إلى المركز وجلست بجانب النافورة، ورحت أحدّق بصمت في الماء الذي يصدر خريراً.

تطلعت حولي. كان الهدوء يخيم على المكان إلى حد أنني كنت أستطيع أن أسمع دندنة جهاز التكييف. رأيت انعكاس الثريا المعلقة في السقف على البلاط، وتركزت عيناي على محل المجوهرات. نهضت. مشيت ببطء نحو المحل، خطوة خطوة. وضعت يدي في جيبي. سيكون ذلك سهلاً، قلت لنفسي. إنني سريع في الركض، وأعرف جميع الممرات الصغيرة والمنافذ في هذا المكان. يمكنني أن أختفي قبل وصول سيارات الشرطة.

كنت قد وعدت فيور بأنني سأنجح في تحقيق ما نصبو إليه. فهذه هي الفرصة الوحيدة التي تمكّنني من الهرب معها لنعيش معاً إلى الأبد. سيكون الأمر سهلاً للغاية، أرجوك ساعدني يا ربي.

كان مساعد المبيعات واقفاً وراء النضد الزجاجي وهو يتحدث على

الهاتف. كان كلّ شيء أصفر متوهجاً. توجهت إلى قسم الساعات. أمسكت واحدة. عشرون ألف ريال. ساعتان منها تكفياني.

«هل أستطيع أن أساعدك؟»

لم أتحرّك. عضضت شفتي. نظرت إلى الأمام. ربما ثلاث ساعات فقط، فربما يصبح رجل الأعمال طمّاعاً.

«يا ولد، هل أستطيع أن أساعدك؟»

التفت ببطء. التقت عينانا. كان المساعد يضع سماعة الهاتف على كتفه مثل طفل صغير.

«لا تقلق، يا أخي»، قلت، «إني لا أزال أتفرج. أرجوك أتمم مكالمتك».

ثبّت غترته وقال: «بالتأكيد».

عندما جلس، ألقيت نظرة على نفسي في المرآة خلفه.

«مرآة»، قلت. تذكّرت صديقي الأول في جدّة. بالطبع. كيف يمكنني أن أنساه؟ التفت إلى الرجل وقلت، مبتسماً، «شكراً يا أخي لأنك سمحت لي أن أتفرج على الساعات. شكراً».

ثم أخذت أجري لأستقل الحافلة إلى مقهى جاسم.

كان جاسم أول وآخر خيار لي. إنه خياري الوحيد. وإذا لم يعطني النقود، فلا مفر من البقاء في جدّة. أقسمت بأنني سأفعل كل ما يمكنني للحصول على النقود.

كان جاسم جالساً إلى طاولة بالقرب من المطبخ يحسب إيرادات اليوم. أمسكته من ذراعه وسحبته إلى الغرفة الصغيرة في الخلف.

«هيه، فيم العجلة، يا عزيزي؟»

أغلقت الباب وراءنا.

«إنني بحاجة إلى مساعدتك»، قلت، وأنا أنظر في عينيه مباشرة. كاد وجهه يختفي وراء دخان سيكارته.

«هل أنت على ما يرام؟» سأل وهو يحكّ ذقنه بظاهر يده.

«جاسم، إنك الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي».

«باسم الله يا ناصر، ما خطبك؟» سألني، وألقى عقب السيجارة المشتعلة على السجادة.

«ذات يوم ستحرق هذا المقهى»، قلت، ودست فوقه وأطفأته.

فقال مازحاً: «أوه، إذن بدأت تهتمّ بي».

تجاهلت تعليقه. أخذت يده في يدي وقلت، «جاسم، أرجو أن تكون لطيفاً معي أن تتذكّر أنني لم أتذمر أبداً مما فعلته بي، وفي مقابل ذلك، أرجوك أن تساعدني».

«أيّ شيء يا عزيزي»، قال، وهو يقبّل ظاهر يدي.

قلت: «إني بحاجة إلى أربعة عشر ألف دولار».

«يا إلهي، إنه مبلغ كبير. آمل أن لا تكون تفكّر بفتح مقهى لمنافستي؟»

«لا»، أجبت ومن دون تردد أضفت، «سأذهب إلى أوروبا».

«لا بد أنك تمزح».

«أقسم بأنني جادّ في ما أقول»، أجبت. أحسست أن عينيه اتسعتا عندما قلت ذلك.

«يا إلهي، يمكنني أن أرى ذلك»، قال، وذهب ليجلس على سريره. نظر إليّ وأراد أن يقول شيئاً، لكنه أشار بيده بأن آتي وأجلس بجانبه.

«جاسم؟»

«اسكت»، قال.

أسند ظهره إلى الحائط وأغمض عينيه، وسأل، «إلى أين تريد أن تذهب؟»

«قلت لك إلى أوروبا».

«نعم، لكن أين في أوروبا؟ فهي ليست بلداً كبيراً واحداً، كما تعرف».

هززت كتفي، ثم أجبت، «يتوقف ذلك على المهرّبين. إنهم يعرفون أيّ بلد أفضل».

تنهّد وسأل، «وهل طلبوا منك أربعة عشر ألف دولار لتهريبك خارج هذا البلد؟»

«لن أذهب وحدي».

وثب واقفاً، وقال: «ماذا؟ هل وجدت أخاك؟» ضمني إليه، وصاح، «أوه، أنا سعيد جداً من أجلك. ألا يكفيه ما رآه من خالك؟»

قلت هامساً: «جاسم، لن أذهب مع أخي».

«مع من إذن؟»

نظرت إليه، ولثانية تساءلت إن كنت أفعل الشيء الصحيح إذا ما وثقت به وأخبرته الحقيقة، ثمّ قلت: «سأذهب مع شخص أحبّه».

بصق نحوي واستدار ليجلس على سريره، وسأل، «من هو؟»

مسحت آثار بصاقه من فوق قميصي.

«من هو؟» صرخ.

«اسكت، بحق الله،»، صرخت، «فقط استمع إليّ يا جاسم. لماذا لا تمنحني الفرصة لأوضح لك الأمور؟ أنصت إليّ فقط».

بدأت أتنفّس بصعوبة. نهض، مقرّباً وجهه من وجهي وسأل، «إذن أخبرني بسرعة من هو؟»

«إني أحبّ امرأة يا جاسم. وأريد أن آخذها إلى أوروبا».

ضحك بصوت عال، وفجأة علقت الضحكة في حنجرته. هزّ رأسه ونظر إليّ، ولوى شفته، ونظر بعيداً.

بعد قليل أمسكت يده وقلت: «أرجوك يا جاسم، ساعدنا».

دفعني جانباً، وصاح، «وماذا عن أخيك؟ هل ستتركه؟ لا يمكن أن تكون أنانياً إلى هذه الدرجة؟»

«لقد اختار أخي أن يعيش مع خالي منذ سنوات، وعلى حد علمي فهما سعيدان معاً. ولا أعرف أين هما، لم يتصلا بي على الإطلاق. لا يمكنني أن أذهب إلى الرياض وأفتش عنهما من بيت إلى آخر. إن خالي يحبه. أعرف أنه سيرعاه».

جلس على سريره وراح ينظر إليّ، وأخذ يهز رأسه ببطء. «ومن هي هذه الفتاة ؟ يا إلهي، أين وجدتها؟» سألني، وشبك ساقيه ودفع الوسادة بجانبه بعيداً عنه.

«أنا آسف لكنني لا أستطيع أن أخبرك».

«ولم لا؟» صاح، ورفس الصندوق بجانب السرير.

راقبته وهو يتجه نحو جهاز التلفزيون ويلقي جميع أشرطة الفيديو من فوقه. كان يزفر مثل حصان، التفت وقال: «عزيزي، كم كنت أحبّك، لكنك لم تكن تريد أن ترى ذلك، والآن بدأت تجرح مشاعري». داعب وجهي، لكنني دفعت يده جانباً، وسأل، «أين تعرّفت عليها؟»

«لا يمكنني أن أخبرك».

«إذن إنس أمر النقود واذهب واغسل السيارات وامض خمسين سنة لادخار النقود. أخرج من هنا. هيا، أخرج من هنا ولا تعد أبداً».

دفعني نحو الباب. قلت: «لا تدفعني، سأغادر وحدي».

عندما استدرت لأخرج، ألقيت نظرة خاطفة على إحدى مجلات الرجال التي جلبها جاسم من ألمانيا الملقاة فوق الصندوق بجانب السرير. نظرت إلى السقف المكسو بالمرايا. أغمضت عيني ورأيت ماضيّ يجري نحوي، ماضيّ في هذه الغرفة التي حاولت طويلاً أن أنساه. «يا إلهي» قلت لنفسي وتوقّفت.

«ماذا؟» صرخ.

«لا»، أصررت، «لن أغادر من دون النقود أو. . .»

«أو ماذا يا عزيزي؟ آه؟»

«سأذهب إلى الشرطة الدينية وأخبرهم كلّ شيء عن عمليات التهريب التي تقوم بها، أقسم بالله، وسأخبرهم كل شيء جعلتني أقوم به. عن كلّ شيء يحدث في هذه الغرفة».

«ماذا؟ تجاسر وافعل ذلك وسأ. . .»

«سأفعل ذلك»، أجبت بحزم، «لكنني أعرف أنك رجل عاقل يا جاسم. لا أريد أن أسبب لك أي متاعب. أريدك فقط أن تعطيني النقود بالإضافة إلى. . .»

«بالإضافة إلى ماذا؟»

«إنك تذهب دائماً إلى أوروبا، لذلك يمكنك أن تأتي وتزورنا».

ضحك بخبث ثمّ أدار ظهره لي، وبدا أنه أخفض رأسه ليفكّر.

بعد بضع لحظات، التفت ليواجهني، احمرّت عيناه.

«حسناً»، قال.

«حسناً ماذا؟» سألته.

«سأعطيك النقود»، أجاب، «اتركني الآن أرجوك. يجب أن أفكّر كيف يمكنني أن أتدبر مثل هذا المبلغ الكبير. سأهاتفك عندما أجده. حسناً؟»

لم أكد أصدق ذلك. أردت أن أجري إلى بيت فيور لأنقل لها هذا الخبر الجيد، لكن كان عليّ أن أنتظر حتى يوم غد وأبحث عن الحذاء الوردي في حي النزلة. توجهت لرؤية هلال. كنت أعرف أين يمكنني أن أجده في هذا الوقت من المساء.

كما كنت أتوقّع، وجدت هلال جالساً خارج بيته. كان يتحدث مع صديقه الذي يبيع كرات العجين المقلّية. كان هلال يساعده في وضع قطع العجين الصغيرة في المقلاة الضخمة. عندما رآني أقترب منه،

نهض واتجه نحوي وهو يعرج ملوّحاً بعكازه. ضمني إليه ومدّ يده، يكسوها الطحين. لم أمدَّ له يدي مبتسماً.

«أريد أن أطلب معروفاً منك»، قلت.

«إن كنت تريد عملاً جديداً، فلا يوجد لدي شيء حالياً»، قال وهو يهزّ رأسه.

«هلال، إني بحاجة إلى مساعدة منك في أمر آخر».

«ماذا؟ رحلة أخرى إلى الكورنيش مع حسنائك؟ أردت دائماً أن آتي وأسألك عنها، لكن الحبّ شيء خاصّ ويقبع في أعماق القلب»، ودفع إصبعه في صدري.

«هل يمكننا أن نذهب إلى مكان خاصّ؟ إنني أعرف مكاناً».

عندما وصلنا إلى قصر السرور، تطلع هلال حوله مثل فتى صغير أُخذ إلى غابة سرية وتُرك فيها وحده: كان فمه فاغراً، وكان يهزّ رأسه غير مصدق.

رحت أضحك وجلست على الرصيف أراقبه. نظر إلى الجدار خلفي. وصاح، «يا إلهي، يبدو أننا في مكان مجهول مع أنّنا على مسافة عشر دقائق فقط من حي النزلة».

ضحك وسار نحوي وهو يعرج قليلاً. عندما جلس إلى جانبي، سألني، «ماذا تسمي هذا المكان ثانية؟»

«قصر السرور».

أخرجت من جيبي سيجارة وقداحة.

ألقى هلال خيزرانته على جرذ يجري، وقال: «يمكنني أن أتعامل مع الجرذان، لكن هل توجد أشباح في هذا المكان أيضا؟»

«يقولون إن الملك كان يحبّ النساء وكان عنده الكثير منهن. ألا تستطيع أن تشمّ رائحة عطرهن العابقة في الهواء؟»

«نعم، الآن بما أنك ذكرت ذلك فإني أوافقك. إن رائحة المرأة أبديّة». وضع ذراعه حولي وضحك. لنأمل في أن يكنّ حولنا الآن ونحن نتكلم».

لاذ كل منا بالصمت عندما ذكرت المرأة. بدأ كل منا يحلم. تخيّلت أنني أنظر إلى البناية ذات الطوابق التسعة عبر الظلام. ركّزت على نافذتها الواقعة في الطابق الثالث، ورأيتها جالسة على سريرها، كما قالت لي إنها تفعل عادة في الليل، وحيدة تتوق إلى قدوم عصر اليوم التالي عندما نستلقي معاً، يدفئ أحدنا وجه الآخر بأنفاسنا، مستمتعين بقرب أحدنا الآخر.

طار كياني كله إلى تلك العمارة، وانزلق قلبي أمامي مثل طائرة ورقية تتأرجح في الهواء. تخيّلتها تتهيأ لتأوي إلى الفراش، وتفتح نافذتها، وتخلع ثيابها، وتمشّط شعرها، وتدهن عنقها بالزيت، وتداعب نهديها بأناملها الندية الطويلة.

لكزني هلال وسألني، «هل أنت على ما يرام؟»

أخرج علبته الصغيرة لمضغ التبغ، وضع قليلاً من التبغ في راحة يده، وكوّرها ببطء في كرة صغيرة. وضع الكرة بعناية داخل باطن خدّه ثم أخذ يحرّكها بلسانه، ثم وضعها بين شفته السفلى وأسنانه. سحبت شفته السفلى كرة التبغ كاشفة عن أسنانه الصفراء.

نظرت إليه طويلاً من دون أن يرمش لي جفن، وقلت: «هلال، إنني سعيد جداً لأن زوجتك ستأتي إلى السعودية. كنت قد بدأت أتساءل كيف يمكنك أن تعيش من دونها طوال هذه الفترة، أقصد، لا بد أنك تشتاق إليها حقاً».

قال: «طبعاً، لكن رسائلها تبقيني حياً».

«وهل تكتب إليك رسائل؟»

فأجاب: وهي تكتب بأسلوب جميل. إني أشتاق إليها. لكن الرسائل هي التي تمنح كلا منا شيئاً من الأمل. ولولا رسائلها، لأصيب قلبي بجرح القلق مثل العمامة على رأسي. ضحكت من تعبيره هذا.

«لكنني رجل محظوظ»، قال مبتسماً، «إنها ستأتي قريباً. عندما كنت في بور سودان، رتّبنا كلّ شيء، ولم تبق الآن سوى تفاصيل صغيرة. آمل ألا يستغرق ذلك أكثر من شهر أو شهرين. إني واثق من أن كلّ شيء سيكون على ما يرام».

دفع هلال كتفيه إلى الأمام ومدّ يده إلى ساقه السليمة ليدلك ركبته، وقال: «على أي حال، إني متأكّد من أنك لم تحضرني إلى هنا لتريني قصر السرور. يمكنني أن أشعر بما يدور برأسك، لكن هل تريد أن تخبرني أولاً، يا صديقي العزيز؟»

قلت: «حسناً، أرجوك اسمع جيداً».

في عصر اليوم التالي، بعد أن ضحكنا وتحدّثنا عن هروبنا الذي نخطط له ـ قال أحدنا للآخر إن ذلك لا يصدق ـ سكتت فيور.

«لكن ماذا سيحدث إذا ما فشلت خطتنا؟» سألتني فيور. انخفض صوتها الدافئ ليضحي همساً. «ماذا سنفعل إذا لم ينفذ جاسم وعده؟»

كان بوسعي أن أشعر بعذابها وكربها. كنت أتمنّى أن يهدّئ عناقي من مخاوفها، أو أن تقنعها قبلاتي بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام.

كان جاسم خيارنا الوحيد. حاولنا أن نفكّر بالبدائل، لكن يبدو أن لا أحد آخر يستطيع أن يساعدنا. وكان الخيار الوحيد الآخر أمامنا أن نبقى في جدة ونواصل حياتنا. لكننا كنّا مقتنعين بأنه لا بد أن تكون هناك نهاية ما. فقد كنا نعيش مثل هاربين في جدة، وكلّ ما لدينا غرفة فيور، حيث لا يبعد أبوها عنا سوى أمتار قليلة، والمطوّعون يجوبون حي النزلة بدورياتهم، والإمام الضرير يعظ محذراً من الآثام الشريّرة. كانت المملكة الصغيرة التي خلقناها لنفسينا في غرفتها الجميلة كأنها قلعة مبنية من الرمل.

«ستسير الأمور على ما يرام»، حاولت أن أطمئنها.

دفنت فيور وجهها بين يديها. مددت يدي إليها ورفعت ذقنها.

كنت أخشى أن أعود إلى غرفتي المهجورة. لم أكن أرغب في أن أتركها. كنت أريد أن أبقى معها إلى الأبد. لم أكن أريد أن أهجر أظافرها المطلية باللون الوردي، وشفتيها المنفرجتين. كنت أحبّ أن أنظر في عينيها، إذ إن كون إحدى عينيها أصغر قليلاً من العين الأخرى يعطي الانطباع بأنها تبحث عن شيء إلى الأبد، طوال حياتها. وبينما رحت أداعب شفتيها الرقيقتين بإصبعي، وأحدّق في شعرها الهائج، شعرت بالسعادة بأنّها فتاتي وأنا فتاها. كان أحدنا يناسب الآخر، ونستحق أن نكبر معاً لأننا جعلنا المستحيل ممكناً. كنت أرجو أن يرأف بنا القدر.

في وقت متأخر من تلك الليلة، ذهبت إلى الكورنيش لأودّع أمّي.

جلست ساعات عديدة محدقاً في البحر، حتى أصبح أسود كالسماء. ثمّ رحت أخوض داخل مياه البحر الأحمر الباردة، مرتدياً سروالاً قصيراً. لم أشعر بمثل هذه السعادة منذ أمد بعيد.

لم أكن أرى أمامي سوى مساحات من الظلام، لكنني عندما نظرت خلفي إلى الكورنيش، رأيت أضواء الشارع تومض، وذكّرتني بمصابيح الكيروسين التي كانت تتدلى من الجمال عندما أرسلتني أمّي إلى السودان.

الآن جاء دوري لأقول الوداع في الظلام.

«أمّي، سميرة، أنا آسف لأنني لم أستطع أن أجعل أخي يحبّني بنفس القدر الذي يحبّ فيه خالنا. والآن، بعد أن قرّرت أن أنتقل بحياتي إلى مكان آخر، أشعر بالحزن لأن كلاً منا سيعيش في بقعة مختلفة من العالم. وإذا كان البلد الذي سأذهب إليه بعيداً، وإذا كانت بحار العالم جميعها، كما يقولون، يتصل أحدها بالآخر، فإنني أدعو الله أن يكون البلد الذي سأذهب إليه محاطاً بالبحر من جميع الجوانب، لأتمكن من التحدث إليكما حيثما كنت وستظلان تسمعانني بوضوح. لذلك فهذا ليس وداعاً. إنني أحبّكما. أرجوكما أن تبقيا بسلام وأمان من القنابل إلى أن نلتقي».

كنا في أواخر كانون الأول (ديسمبر) ولم يبق سوى يومين على بدء شهر كانون الثاني (يناير)، شهر البدايات الجديدة. وكانت قد مضت ثلاثة أسابيع تقريباً على موافقة جاسم على إعطائي النقود لأسددها للمهرب. اتصل ليقول إن النقود ستكون جاهزة في وقت متأخر من ذلك المساء.

كنت قبل أن أذهب للقاء فيور، أتوجه إلى شجرتي وأنا أحمل دلواً مليئاً بالماء. فقد عدت لرعايتها ـ وبعد أن أسقيها، كنت أجلس تحتها. لقد بدأت الحياة تدبّ فيها من جديد وكأنها لم تكن عطشى للماء فقط، بل لصحبة رفيق أيضاً. كنت أتمنّى أن أتمكن من إخبار يحيى وهاني بسفري الوشيك ليقوما برعايتها أثناء غيابي.

كانت سيارة الجيب تقف أمام المسجد الكبير، وكان فهد يقف بالقرب من السيارة إلى جانب رجل قصير آخر ذي لحية بيضاء وعلى رأسه غترة مزركشة بمربعات حمراء وبيضاء ويرتدي ثوباً أبيض يصل فوق كاحليه. وكان يحمل عصا في يده.

ولأول مرة، شعرت بالارتياح عندما رأيت شرطياً جديداً. قلت لنفسي لا بد أنه بديل عن باسل.

فبعد أن أخذني باسل إلى داخل الحديقة العامة في تلك الليلة، وصل يحيى على دراجته النارية، وقفز من فوق السور وتوجه إلى باسل.

كانت فكرة فيور أن أفضل وسيلة للتخلّص من باسل هي أن يحلق لحيته بما أنها تمنحه سلطة دينية على الآخرين، ثمّ تهديده بهذه القوة الدنيوية التي تنشر الخوف في قلبه الضعيف طوال حياته.

عندما أمسك يحيى بتلابيب باسل، صرخ فيه، «ألا يكفي أنّك جنّدت اثنين من أعز أصدقائي وأرسلتهما إلى أفغانستان؟ نعم، هل تعرفهما؟ فيصل وزب الأرض؟ لكنني أعدك بهذا. إذا اقتربت من ناصر ثانية، كن واثقاً من أنك ستموت في حي النزلة، لا في أفغانستان».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، كنت في غرفة فيور أحتفل بخبر

موافقة جاسم على مساعدتنا. كنّا في السرير نحلم بحياتنا المستقبلية في أوروبا. وكان يتناهى إلينا صوت الإمام الضرير وهو يلقي خطبته في المسجد. كنا نستلقي عاريين على سريرها يلتصق أحدنا بالآخر، نحدّق في السقف، وإحدى ساقيها بين ساقي. كانت الغرفة تتوهّج تحت الشموع. أغمضنا أعيننا، ورحنا نفكّر بما يمكن أن يأتي. لبثنا صامتين للحظات طويلة.

«بسرعة، سد أذنيك»، قالت فيور، وقد انتصبت في جلستها، وسدت أذنيها بأصابعها.

كان الإمام على وشك أن ينهي موعظته، وكالعادة أنهاها بالدعاء: «اللهم دمّر بلاد الكفّار الذين يدمّرون أراضينا. اللهم دمّر أبراجهم وبيوتهم».

وعندما ترددت كلمة «آمين» من المؤمنين عبر الشارع، استلقت فيور على السرير وهمست، «إنه يدعو إلى دمار بيتنا في المستقبل».

سنذهب إلى أوروبا»، قلت لفيور.

«لكن. . . »

«لكن ماذا، يا فيور؟»

همست، «ما زال الأمر يرعبني».

أبعدتْ يدها عن صدري وداعبت وجهي. استدارت إلى جانبها وراحت تنظر إليّ. وكان الإحساس الذي تضفيه شفتاها على رقبتي مثل أوراق بتلات الورد. انزلقت يدي من خصرها إلى قمة ردفها. ضغطت يدي على عظم ردفها. كان جسدها يزداد دفئاً. أحسست بدفئها عندما

أسندت ذقنها على صدري. نظرت إلى شفتيها المفترتين، وعينيها نصف المغمضتين. «هل سيقبلنا الأوربيون؟»

«آمل أن يقبلونا»، قلت لها، «فيور، لا يوجد مكان مثالي في العالم. لكننا على الأقل سنذهب إلى مكان نستطيع أن نكافح فيه لتحقيق طموحاتنا. قال موسى لن يكون الأمر سهلاً، وقال لي إن حياة المهاجر قد تكون قاسية، لكنك امرأة شجاعة، وستعتادين على المكان».

أحسست بأنفاسها الدافئة وهي تضحك.

ومثل وشاح، سحبت شعرها الطويل المجعّد إلى أحد الجانبين ونشرته على صدري.

«لا يمكنني أن أصدق ما قاله حجي يوسف بأن عدداً من الأشخاص الذين كان قد ساعد على تهريبهم منذ خمس سنوات إلى السويد، قد عادوا لزيارة مكة المكرمة وهم يحملون جوازات سفر سويدية. بعد خمس سنوات منحوهم جنسية بلدهم».

استدارت لتستلقي على ظهرها وراحت تحدّق في السقف، مغمضة العينين.

«فيور؟»

«نعم».

سألتها، «أعرف أن الأمر سيتوقف على المهرّب، لكن إلى أين تريدين أن تذهبي؟»

فقالت بلا تردد: «إلى أي مكان. لكن إذا كان بإمكاني أن أختار، فإني أريد أن أذهب إلى باريس».

«لماذا؟»

«كان المصور المصري الأثير لديّ قد درس فيها، كما أنني أريد أن أذهب إليها لرؤية نهر السين. لقد قرأت أنه قبلة العشاق، وأن مياهه تتموّج بضحكات العشاق. وإذا لم ينته بنا المطاف هناك، فيجب أن نزوره مرة على الأقل. حبيبي، أشعر وكأنني أنتظر الجنة. إن الجنة هي للذين يُبعثون من الموت، وأنا أشعر بشرارة تنطلق في روحي». نزلت من السرير وراحت تمشي في أرجاء الغرفة.

جلست على الكرسي قبالتي. لفت ساقاً على ساق، وأرخت يدها اليسرى على فخذها الأيمن. وتدلت أظافرها المطلية مثل أزهار وردية بجانب بشرتها الداكنة. كانت قد عقدت شعرها في شكل ذيل حصان، وكانت عيناها مثبتتين عليّ طوال الوقت، لكنها لم تكن تنظر في حقيقة الأمر، وكأن عقلها سارح في مكان آخر. كانت أصابعها تعبث بقرطها المتدلي، وكان ضوء لهب الشمعة يرسم نقطاً ذهبية على بشرتها.

تحرّكت نحوها وجلست عند قدميها.

«حبيبتي؟» حرّكت يدها إلى وجهي وأخذت تداعبني صامتة.

سألتها، «بم تفكّرين؟»

«أحاول أن أتصوّر جميع الاحتمالات التي يمكن أن تحدث، كلّ شيء يمكن أن يفشل في خطتنا، ويجب أن نفكّر في بدائل. صدقني يا حبيبي، أنا امرأة أعيش في عالم رجال وأجد صعوبة في أن أثق بأحد منهم».

«فيور»، همست، مداعباً يديها، «لا تقلقي. قلت لك إن كل شيء سيكون على ما يرام. ثقي بي. اتفقنا؟»

هزت رأسها وقالت: «حسناً».

في ذلك المساء، كنت أرقد على سريري أنتظر مخابرة من جاسم. كان الهواء العليل يهبّ عبر الأشجار، وانسلت ورقة أو ورقتان من الشجرة عبر النافذة المفتوحة واستقرتا على ساقي. نظرت إلى ساعتي، كانت الساعة السابعة والنصف.

رنّ جرس الهاتف. أسرعت ورفعت السماعة. طلب مني جاسم أن آتي إلى المقهى لآخذ «أفضل هدية سأتلقاها في حياتي».

كان الشارع يتلألأ ويعج بصبية يلعبون كرة القدم، وأطفال يقودون دراجاتهم، ورجال يتسكعون في الشارع وكأنهم يتمشون على الكورنيش. وكان عدد من الرجال المسنين، يحمل بعضهم سبحات، يجلسون خارج دكان اليمني.

هبّت ريح مفاجئة على الشارع، وبدا وكأنني سأطير في مهبّ الريح. لقد أصابت الريح الجميع، فأخفض الرجال رؤوسهم، وبدأت أثوابهم البيضاء تتطاير من حولهم، وتطايرت غترات بعضهم عن رؤوسهم وانزلقت مثل طائرات ورقية على أرض الشارع، وحتى أشجار الحديقة الأمامية الصلبة المنتصبة على جانبي الطريق أخذت تتمايل.

شبكت ذراعي فوق صدري وتابعت سيري في عكس الريح: كنت أخطو خطوتين قبل أن أُدفع خطوة إلى الوراء. وكانت ذراعاي مثل سيفين يلوّحان لأتقي ذرات التراب المتطايرة في الهواء. استدرت واتكأت إلى جذع شجرتي، محنياً ظهري في وجه الريح منتظراً أن تمرّ بسلام.

عندما هدأت الريح، واصلت طريقي إلى مقهى جاسم. كانت

الهواء يعبق برائحة مسك مألوفة. كان الإمام الضرير يسير ويقوده غلام صغير. كان الإمام يتحدث، والغلام ينصت باهتمام شديد. لم أكن أريد أن أرى فمه لكي لا أقرأ حركة شفتيه، ولم أكن أريد أن تحمل الريح كلماته إليّ، الكلمات التي لا يني يكررها ويتردد صداها على الدوام في حي النزلة. سددت أذني بأصابعي لكي لا يتسرب الماضي إليهما. إذ كنت أتطلع إلى مستقبل جديد مع حبيبتي.

عندما دخلت المقهى، كانت عيون الرجال تتبعني في كلّ خطوة أخطوها، ثم تحوّلت نظراتهم إلى الفتى الذي خرج من الغرفة الخلفية يحمل إبريق شاي وبضعة أكواب. دسّ رجل قصاصة في جيب بنطلونه الخلفي المصنوع من المخمل. تطلعت حولي ورأيت هلال جالساً في الخلف، إلى الطاولة المنفردة ذات الكرسي الوحيد. كاد وجهه يختفي وراء دخان سيجارته الذي كان يلتف في شكل دوائر. أومأ نحوي، فابتسمت له.

خطوت إلى الأمام. «ناصر، أنا هنا»، ناداني جاسم من الجانب الآخر من المقهى، ملوّحاً بذراعه. اتجهت إلى طاولة جاسم ونهض واقفاً، أمسك يدي، وسحبني إلى الغرفة الخلفية. في الممر، مال نحو شفتي. دفعته بعيداً عني، وقلت: «كفّ عن ذلك يا جاسم».

حدّق في عينيّ، وهمس، «تعال يا عزيزي. إني أنتظر تلك القبلة منذ سنوات. مرة واحدة فقط».

سحبته إلى داخل الغرفة الصغيرة وأغلقت الباب وراءنا.

«سأشتاق إليك يا حبيبي»، دمدم.

«هل جهّزت كلّ شيء؟» سألت.

تنحّى جانباً وسعل. نظر أحدنا إلى الآخر. عضضت الجزء الداخلي من خدي. مسّد ذقنه، وراح ينظر إليّ مزموم الشفتين.

«جاسم، هل كلّ شيء جاهز؟» سألته ثانية.

«نعم». كان كلّ ما قاله. لم يقل شيئاً آخر. أحسست بالكراهية تجاهه عندما ركّز عينيه عليّ هكذا، إذ كان يريد أن يذيبني بنظراته تلك. لقد سئمته. أتعبني دأبه على متابعتي. أرهقتني كلماته الرخيصة والتافهة عن الحبّ. حوّلني من فتى إلى لعبة يعبث بها زبائنه. في ذلك اليوم المشؤوم، قبل أن يدخل رشيد بدقائق إلى الغرفة المكسو سقفها بالمرآة، كان يجلس بجانبي على سريري. لمس فخذي وقال إنه يريد أن يساعدني على أن أعتاد على يدي الرجل. وفي الوقت نفسه، عبّر لي عن أسفه بشأن رشيد، لكنه قال إن اللوم يقع على الإمام، لأنه لو سمح للنساء أن يتحركن من حولنا، لما كان على غلمان مثلي تحمّل هؤلاء الرجال النهمين في حي النزلة. سألته، «لو كان هؤلاء الرجال يحبون النساء حقاً، لأداروا مفاتيحهم في أبوابهم وحرّروا نساءهم. لماذا لا يطلبون من الإمام أن يتوقف عن إخبارهم ماذا يجب أن يفعلوا؟»

«إنك لا تفهم»، أجاب، وهو يحاول أن يفك سحاب بنطلوني، «إن الإمام قوي جداً. إن تأثيره هائل. فهو يمتلك آذان الله وآذان الحكومة أيضاً».

أوقفته عن فك سحاب بنطلوني. دفعته جانباً، وقلت له: «لا تقلق، فقد تعوّد جسمي على أيدي الرجال. فقط اتركني وشأني».

الآن، وبعد مرور أربع سنوات على ذلك، عدت إلى غرفته ثانية. كنت آمل أن تكون المرة الأخيرة التي آتي إليها. كانت المرآة لا تزال

مشققة، ولم يتغيّر أي شيء. كان جاسم لا يزال يقول الأشياء ذاتها للنادل الجديد: «إنك البديل التام للمرأة...»

نظرت إلى جاسم. «أين النقود؟» سألته ثانية. التفت وحدّق بعيداً، وبعد بضع دقائق، أشار أخيراً بسبابته إلى سريره. كان هناك مغلف أبيض فوق الملاءات. ابتسامة خفيفة غطت على مشاعري بالقلق. انبعثت مني تنهيدة بالارتياح.

ذهب وجلس على السرير ولفّ ساقاً على ساق. قال: «الشيك هنا»، ولوّح بالمغلف نحوي، «آمل أن يجعلك هذا تحبّني، حتى من بعيد».

لبثت هادئاً.

طلب مني أن أجلس بجانبه لكنني لبثت في مكاني، ساكناً، أنظر إلى ساعتي، قدماي تثبان فوق الأرضية المكسوة بالسجاد.

قال: «هل تريد أن تذهب».

«نعم».

«هل يمكنك أن تعانقني على الأقل؟»

لم أتحرّك.

«أرجوك يا ناصر. عناق ودّي، هذا كلّ ما أطلبه منك».

رأيته يتجه نحوي. وثب عليّ وأمسكني بين ذراعيه. تنهّد وهمس، «ناصر، أنا آسف».

«لماذا؟»

لم يقل شيئاً. أحسست بدموعه على خدي. وتحرّكت يده بسرعة

من فوق ظهري إلى خصري، وأمسكني بقوّة. حاولت أن أفلت منه، لكنه شدّ قبضته عليّ. بعد قليل توقّفت عن مقاومته. دفعني. تعثّرت إلى الخلف، لكنني ثبّت نفسي. جلس على السرير والتقط المغلف.

«هل تحبّ حقاً هذه الفتاة يا ناصر؟»

«نعم»، أجبت بحزم.

«هل يمكنك أن تعطيني قداحتي من فضلك؟ إنها فوق التلفزيون».

نظرت إليه، ثمّ نظرت إلى التلفزيون ورأيت قداحته السوداء بالقرب من كومة أفلام فيديو إباحية. أردت أن أحضرها إلى سريره، لكنه طلب مني أن أتوقف. «توقف مكانك وارم لي القداحة»، فعلت ما طلبه مني.

من دون أن يحرك رأسه، أمسكها بيده اليسرى.

«لماذا لم تحاول أن تحبني؟» سأل، صوته يتكسر.

لم أجبه.

«هل كنت حقاً تزمع أن تنضم إلى المطوّعين وتشي بهذا المكان؟»

كززت على أسناني. حدّقت فيه، ثمّ حدّقت في المغلف في يده.

«ليست هذه هي المرة الأولى التي تخونني فيها»، قال.

«عمن تتحدّث؟ جاسم، أرجوك أعطني المغلف. يجب أن أذهب».

«ينبغي أن تعرف الآن بأنني أعرف كلّ شيء يحدث في مقهاي،» قال، وبصق على الأرض. «كيف يمكنه أن يفعل ذلك لي؟ كيف يخونني؟ كان يعرف أنني أحبك. كنت أظن أنه صديقي».

«عم تتحدّث؟ أيّ صديق؟»

«إني أتحدّث عن أبي عماد، الرجل الذي تسميه «السيد هادئ». لقد ساعدت ذلك الرجل الذي يقيم بشكل غير شرعي، ومع ذلك كان يأتي من وراء ظهري إلى غرفتك بعد صلاة الصبح ويمارس الجنس معك».

«جاسم، هذا شيء سخيف. كان مجرد صديق».

«ألم أعطه نقوداً عندما جاء إلى هذا البلد ولم يكن لديه أحد يساعده؟ إنه كلب ناكر للجميل».

«يا إلهي، إذن فأنت غاضب لأنك تظن أنني نمت مع السيد هادئ، لكنك... يا إلهي، ألا تندم لأنك بعتني إلى رشيد؟»

قفز من سريره وصاح، «اسكت. لا أريد أن أسمع هذا. إنك تقطعني إرباً بذلك. لماذا تعاملني بقسوة؟»

«بقسوة؟ أنا؟ لأنني ذكرت أنك بعت غلاماً صغيراً من أجل الجنس؟ كيف تظن أن هذا سيجعلني أشعر؟»

عاد وجلس على سريره وأمسك بالمغلف، وقال: «من الغريب أن تبيعني من أجل فتاة».

«لقد بعتني أنت إلى رشيد. أرجوك جاسم. لقد وجدت الشخص الذي يمنحني الحبّ الذي أبحث عنه. لنفكر بالحاضر الآن. لا أريد أن ننظر إلى الوراء. إن مستقبلي هو أن أعيش معها. أرجوك، أعطني المغلف».

«ناصر، حبيبي. لماذا هددتني؟ إنك فتى ساذج. مضى عليك عشر سنوات في هذا البلد ولا تزال لا تعرف كيف تسير الأمور؟» مزّق المغلف وفتحه، وأخرج الشيك، وبدأ يهوّي نفسه به.

اقتربت منه، أكاد أزحف. «الحياة في هذا البلد يا عزيزي تتوقف على من تعرف. هل سمعت عن أمير قُطع رأسه أو جُلد، مع أننا نعرف أنهم يستطيعون أن يرتكبوا جرائم مثل الآخرين؟»

«جاسم، إني بحاجة إلى النقود، أرجوك أعطني الشيك».

«إن علاقتي بكفيلي جيدة، رئيس شرطة جدة، بدر بن عبد الله، بارك الله فيه»، قال، وسحب منفضة السجائر نحوه.

كان كفيل جاسم هو كفيلي أيضاً. ماذا؟ هل يعرف جاسم ما فعله بي؟

«إني واثق من أنك تعرفه، آه؟» سألني.

اعتراني شكّ بأن كفيل جاسم هو الذي يساعده على تهريب الكتب المحظورة، والمواد الإباحية، وكلّ الأشياء التي يُمنع دخولها إلى السعودية. وعرفت أنه لا بدّ أن يكون رجلاً ذا نفوذ كبير، لأن موظفي الجمارك لا يفتّشون أمتعتهم على الإطلاق، لذلك كان بوسع جاسم أن يمرر أي شيء من بوابة المطار.

لكنني بدأت أفهم الآن لماذا كان المطوّعون يغضون أبصارهم عما يجري في مقهاه.

«أنا رجل لدي علاقات قوية»، صاح جاسم مصرحاً بأهميته مرة أخرى، «هكذا تخلّصت من السيد هادئ».

«لقد رحَلت صديقك؟» قلت متلعثماً، حابساً دموعي.

وضع الشيك في منفضة السجائر وأشعله. اندفعت إليه محاولاً أن أنقذ الشيك الذي أخذ يحترق، لكنه لكمني وركلني بقدمه. سقطت

وارتطم طرف رأسي بجهاز التلفزيون، فانطلق سيل من الدم من أنفي وجبهتي. استدرت لأنظر إليه. كان لهيب المغلف المحترق يتصاعد. قلت متوسلاً، «جاسم، لا تفعل ذلك. لا يمكنني أن أحبك لكن إن كنت تريد أي شيء آخر، قل لي. إني بحاجة إلى المال، أرجوك». بهدوء التقط زجاجة عطر من الصندوق تحت سريره. كان الشيك قد أصبح رماداً. كسر الزجاجة الطويلة من نصفها، ورشّ قليلاً من العطر على السجادة. «اقترب وستعرف ماذا سأفعل» قال يهدّدني.

رفع ذراعه، وقرّب الزجاجة المكسورة إلى وجهه. سقطت قطرة العطر الحمراء في فمه المفتوح. «لم يكن عليك أن تتلاعب معي. إنك تعرف لديّ صلات كثيرة. لذلك طلبت من المطوّعين أن يقبضوا عليك، يا عزيزي. لقد أخبرتهم أنك ارتكبت جريمة الزنى، وسواء وجدوا دليلاً أم لم يجدوا، فإنك ستُرجم في ساحة القصاص، وسأكون موجوداً هناك لأرمي جسدك القذر وقلبك الأسود بالحجارة».

قهقه جاسم، وقال: «حسناً، ماذا تنتظر؟ سيكونون هنا في أيّ لحظة».

جريت هارباً من الغرفة. عندما خرجت من المقهى، كانت سيارة الجيب المألوفة ذات النوافذ المظلّلة تقترب. أخذت أجري إلى اليسار وسمعت صرير العجلات خلفي. من دون أن أنظر إلى الخلف، انطلقت أسفل حي النزلة باتجاه الكرنتينا، مبتعداً عن منزل فيور. لكن سيارة الجيب كانت أسرع مني. لحقوا بي في السوق المركزي الكبير في حي النزلة. توقّفت. انتهى كل شيء.

وقفت ألهث مهزوماً. قفز ثلاثة رجال من سيارة الجيب وأمسكوا

بي من ذراعي. عرفت حامد والرجل القصير ذا اللحية البيضاء الذي حلّ محل باسل.

قيّد حامد يدي بالأصفاد وراء ظهري ودفعني إلى داخل السيارة. اتجه الآخران ليصعدا في المقعد الأمامي. كانت المقاعد في الخلف مثل المقاعد الموجودة في سيارة الإسعاف، مقعدان طويلان قبالة أحدهما الآخر. جلس حامد أمامي. انطلقت سيارة الجيب. هل كنت رابط الجأش؟ تساءلت. لماذا لا أصرخ؟ لماذا لا أركع أمامهم وأستجديهم ليكونوا رحماء بي؟

لكن كلّ ما فعلته هو أنني همست: «لماذا يا الله؟»

«لا تلفظ على لسانك اسم الله الجليل»، صاح حامد.

«فيور»، صرخت، ورحت أضرب رأسي بالنافذة.

لكمني تحت أضلاعي، وصاح: «خذ هذه أيها الكافر، أيها الملعون. لا تتجاسر وتلفظ اسم امرأة، والآن ستدفع ثمن الاستهزاء بالإمام».

نظرت إلى حامد، وهمهمت، «سامحني».

«لقد فات الأوان لطلب المغفرة من الله، ستكون من أصحاب جهنم إن شاء الله».

«أرجوك سامحيني يا حبيبتي».

«يا إلهي، وتطلب الآن المغفرة من امرأة بدلاً أن تطلبها من الله»، صرخ بصوت يشبه العويل. يا شيخ عبد العزيز، باسم الله أعطني العصا».

صرخت فيه، «هيا، اضربني يا شيخ المستقبل. لكنني أريد أن أقول لك إنني لم أرتكب جريمة، والله شاهد على ما أقول. كلّ ما فعلته هو أنني أحببت، والحبّ مرسل من السماء».

«لا تقل ذلك يا كلب. هيا أخبرنا من هي هذه المرأة»، ولعنني ثانية.

لا. لن أدع أيديكم تلمسها».

فقال: «لا تكن بطلاً. أخبرنا من هي هذه المرأة الآثمة، بحق الله، وإلا كسرت هذه العصا على رأسك».

«مطلقاً. إنها مباركة أكثر منك».

استدار الرجل ذو اللحية البيضاء وصفعني من المقعد الأمامي، وصاح، «اخرس أيها الملعون، عديم القلب».

«سأشتاق إليك يا فيور».

لوّح حامد بعصاه في الهواء. وراح يضربني بها، محدثاً خطوطاً من النار مع كلّ ضربة تهبط على كتفي. وفي حمأة غضبه، سقطت غترته، لكنه لم يتوقف عن ضربي.

جلس أخيراً، لاهثاً. أخفضت رأسي وأحسست بالدموع تنهمر على وجهي. صفعني حامد على رأسي، وقال: «لا يوجد لدينا الكثير من الوقت. أين تعيش تلك المارقة؟»

«هل تسميها مارقة لأنها أحبّتني؟ وما فائدة القلب؟»

ألقى بعصاه وبدأ يلكمني بقبضته العارية. توسلت إليه أن يكّف عن ضربي. «سأقول لك من هي».

رمقني بعينيه الداكنتين. انحنى لالتقاط غترته وثبّتها على رأسه. «يا شيخ عبد العزيز، أوقف السيارة. إنه سيخبرنا من هي. نعرف أنّها من حي النزلة، لذلك من الأفضل أن نأخذها ونحن لا نزال في المنطقة».

من خلال النافذة المظلّلة، رأيت البناية ذات التسعة طوابق. كانت هذه هي المرة الأولى التي أتمنّى فيها ألا تكون موجودة في البيت.

أخفضت رأسي، والدموع تسيل على وجهي، قلت: «سأقول لك من هي، لأنني فخور بقوامها وطريقة حديثها وتفكّيرها. سأصفها لك من رأسها حتى أصابع قدميها ثم إبحث عنها بنفسك. يجب أن تقرع جميع أبواب البيوت في حي النزلة، وتقتحم أقسام الرجال لكي تصل إليها. يجب أن توقف كلّ امرأة في الشارع وتكشف عن وجهها. ومن الممكن أن تحشر نفسك في قسم النساء في الحافلات وفي مدن الملاهي والدكاكين. يجب أن تحطم الحيطان في المساجد التي تفصل النساء عن الرجال. وأعدك بأنك إذا فعلت ذلك، فإنك ستجدها، لأنها فتاة مميزة. ذكاؤها يشرق مثل رخام القصور، وعيناها تختلفان عن عيون الفتيات الأخريات لأنك ستجد في عينيها التصميم والقوّة اللذين يجعلانهما جميلتين ومتألقتين. لأن هذه المرأة عاشقة حقيقية».

رحت أراقبه بينما أخذ حامد يشمّر عن أكمامه ويضع غترته وطاقيته البيضاء المنسوجة على المقعد بجانبه. كنت أعرف ما ينتظرني. ومع ذلك، رحت أنظر في عينيه مباشرة، وأدمدم اسمها. «فيور». رفع عصاه. «فيور». وعندما دفعني على ركبتي، رحت أكرّر اسمها لأغطي على صراخه وأكتم ألمي. «فيور. فيور. فيور».

انطلقت سيارة الجيب في شارع حي النزلة، ثم عبرت شارع مكة

المكرمة، ثمّ انعطفت يساراً باتجاه مركز جدة. ومن هناك، انعطفت عدة مرات قبل أن نصل إلى سجن جدة المركزي حيث سُجن صديقي السيد هادئ ذات يوم.

داخل السجن، أحاط بي ثلاثة رجال شرطة. تطلعت حولي. مررنا من أمام العديد من الأبواب المغلقة التي كان بعضها مفتوحاً. رأيت رجالاً ينظرون عبر القضبان في زنزاناتهم، يحدقون أمامهم في الفراغ. أخفضت رأسي، ورأيت أن الكثير من بلاطات الأرضية مكسورة مثل جميع الأشياء في ذلك المكان.

عندما وصلنا إلى نهاية الممر، التفت إلى الوراء. كان ممراً طويلاً وبدا كأنه حفرة مظلمة لا قعر لها، لا ضوء فيها، ولا هواء.

فكّ حامد القيد من يديّ وألقى بي داخل زنزانة صغيرة، وقبل أن يغلق الباب الحديدي، قال: «أرجو أن أراك وأنت تُرجم قريباً، إن شاء الله».

كان رجل أفريقي يجلس في مؤخرة الزنزانة. عندما رأى حالتي، نهض ومسح الدم عن وجهي بمنديله، وقال: «اصبر يا بني. اشرب قليلاً من الماء. يبدو أنك رجل لديك قصّة تريد أن تحكيها. ولديّ كلّ الوقت لأستمع لك، لكن يجب عليك أولاً أن تستريح».

كانت الزنزانة صغيرة جداً مضاءة بمصباح نيون وفيها نافذة صغيرة جداً في أعلى الحائط. وكانت تظل مضاءة معظم الليل، وكان الجو فيها شديد الحرارة، وكأننا نجلس في وسط الصحراء. وكانت معظم بلاطات الأرضية مقتلعة والعناكب تزحف في كل مكان. كانت رائحة القيء الكريهة عالقة على جدران الزنزانة مثل ورق جدران متعفن.

وكانت هناك فرشتان رقيقتان ممدودتان على الأرض، تفوح منهما رائحة بول، حيث يبول الرجال المذعورون كالأطفال الصغار.

في اليوم التالي، بعد أن استمع إلى قصّتي، قال الرجل الذي تبين لي أنه مسلم نيجيري يدعى مصطفى: «إن حبيبتك امرأة رائعة يا ناصر. إن امرأة تستطيع أن تنظّم علاقة حبّ بقوة هي امرأة أرسلها الله ولا يمكن أن تكون إلا رسولة حبّ. الآن إرفع رأسك عالياً. إنك فتى محظوظ جداً لأنك استمتعت برفقة امرأة قوية كهذه. ولا تيأس يا ناصر، فالحياة قصيرة، ويجب أن تكون سعيداً لأن امرأة مثل فيور منحتك قرابة ستّة أشهر من حياتها».

مضت خمسة أيام على إلقاء المطوّعين القبض عليّ وإحضاري إلى هذا المكان. الساعة الآن الخامسة صباحاً. أصبحت مهووساً بالزمن، أحسب الثواني، والدقائق، والساعات، والأيام، واخترعت تقويمي الخاص بي، اعتباراً من ذلك اليوم في شهر تموز (يوليه) عندما بدأت حياتي مع فيور.

جلست على حشية رقيقة ممدودة على الأرض أمام مصطفى المستلقي في مواجهة الجدار. كان نائماً تحت وهج ضوء النيون القاسي.

جلست وذراعاي مشبوكتان حول ساقيّ، أهتزّ إلى الأمام والوراء. لم أتمكن من التوقف عن مغالبة عقلي، لا أريد أن أفكّر بالعقاب الذي ينتظرني. فقد قال لي مصطفى إنه لا جدوى من التفكير بذلك اليوم، «إنهم سيحاكمونك في غيابك. ولن يسمحوا لك بأن يدافع عنك محام أو حتى بأن تدافع عن نفسك. لن يخبروك متى سينزلون بك العقاب،

فعندما يقرّرون أن الوقت قد حان، سيأتون إلى زنزانتك ويقتادونك إلى ساحة القصاص».

بدلاً من ذلك، كنت أحاول أن أفكّر بفيور. إذ سرعان ما سيأتي حارس السجن لأخذنا للصلاة في مسجد السجن. في البداية رفضت، وجرّوني خارج زنزانتي إلى المسجد الكبير في الجناح الآخر من السجن، لكن مصطفى قال لي إنني يجب ألا أقاوم، وإن ذلك لا يستحق أن أُضرب من أجله. «تذكّر أن الله ليس لهم وحدهم. وفي جميع الأحوال، لا تضيّع فرصة الخروج من هذه الزنزانة للذهاب إلى المسجد».

كان المسجد واسعاً وجميلاً. وكان أكبر من المسجد الكبير في حي النزلة، جدرانه مطلية بلون أبيض براق والأضواء فيه ناعمة ومهدئة للأعصاب، وكانت رائحة المسك تعبق في أرجائه. كان مصطفى على حق: فعندما بدأت أذهب إلى المسجد، أصبحت أشعر بأنني في نزهة ـ أتنشّق الرائحة اللطيفة وفرصة تمكنني من الهرب من زنزانتي التي كانت جدرانها تطبق عليّ في كل ثانية.

ذات مرة تناهى إليّ صوت رجل يبكي في وسط الصلاة، «لماذا تجعلون المسجد جميلاً هكذا والزنزانات التي تزجوننا فيها قذرة مثل حظائر الحمير؟ لماذا تبذلون كلّ هذا الجهد لمرضاة الله الذي قد يكون موجوداً وتهملوننا نحن؟ إننا إخوتكم في الإنسانية. أليس لنا وجود بالنسبة لكم؟»

لم يسمع أحد عنه ثانية.

أخبرني مصطفى، «من السخرية أنهم يجبروننا على الصلاة،

معتقدين أنهم يؤدون الواجب الذي أوكله الله إليهم، لكنهم لا يعرفون أن الله العلي القدير، سيستجيب لدعوات المساكين والمظلومين».

لكن لم يكن عندي وقت كي أفكّر في الحرّاس.

وعندما كنت أصطف وراء إمام مسجد السجن باتجاه مكة المكرمة، كان قلبي يثب إلى فيور، راجياً أن يستجيب الله لصلوات قلبي مع دعوات المؤمنين.

لم يخبرني مصطفى عن سبب إحضاره إلى هنا. عندما كنت أسأله، كان يجيب بأنّه سيخبرني ذات يوم والآن ليس الوقت المناسب لسماع قصص الآخرين. «ناصر، إنك لا تزال غارقاً في حبّ فيور. ولا أريد أن أكون الشخص الذي يزعجها في قلبك».

عندما تطفأ أضواء النيون لبضع ساعات كلّ ليلة، كنت أستند إلى الجدار، وبينما أستمع إلى صوت تنفّس مصطفى العميق، كنت أقرأ رسائل فيور التي حفظتها جميعها عن ظهر قلب. وعندما كنت أستحضر إلى ذاكرتي عينيها وشفتيها وفخذيها ونهديها، كنت أستلقي على ظهري وأتخيّل وجهها يحتلّ سقف زنزانتي ويبهج وحدتي.

إنه يوم الجمعة، وقد مرّ أسبوع على سجني. الساعة الثامنة صباحاً.

حارس ملتحٍ ممتلئ الجسم يدخل زنزانتي.

لا بد أن الوقت قد حان. التفت إلى الحارس وسألته، «هل ستأخذني إلى ساحة القصاص؟»

أمسكني من يدي وجرني خارج الزنزانة. أريد أن ألتفت لأوّدع مصطفى، لكنه كان نائماً.

الممر الطويل خاو. ارتعشت يداي عندما تخيّلت نفسي وأنا داخل الحفرة في الأرض والحجارة تلقى على وجهي.

أنا في غرفة خالية من الأثاث، صغيرة مثل زنزانتي. طلاؤها الأبيض باهت، لكن الشيء الرائع الوحيد فيها هو وجود نافذة زجاجية كبيرة. لكنني لا أستطيع أن أرى ماذا يقبع وراءها. يقف أمامي ثلاثة رجال شرطة. الشرطي المكتنز الجسم يقف في الوسط محاطاً برجلين ضخمي الجثة. كان أول من سألني سؤالاً. «أين تعيش تلك الكافرة يا كلب؟» سأل الشرطي بصوته الحاد.

«من؟»

«لا تضيّع وقتنا. قال المطوّع إنّك كنت تردد اسم فيور. دقّقنا في قاعدة بيانات السكان ولم نجد امرأة بهذا الاسم في جدة كلّها».

ابتسمت بالرغم مني. ذكّرني سماع اسمها بمدى أهميتها بالنسبة لي. أجبت الشرطي «لأن اسمها بسيط جداً. رائع جداً. فريد جداً».

«سأسألك مرة أخرى»، صاح، نافثاً رذاذ بصاقه في وجهي، «أين تعيش؟ في حي النزلة؟ في شارع مكة المكرمة؟ ما اسمها الحقيقي؟ متزوّجة مِنْ مَنْ؟»

اقترب الشرطيان الضخمان مني وأصبحا بجانبي. كانا كلاهما قد حفّا شاربيهما الأسودين، وكان لهما أذنان كبيرتان.

ملأ مزيد من البصاق وجهي، عندما كان الشرطي الممتلئ الجسم يصرخ.

«لن أخبركم شيئاً عن حبيبتي. أقسم إنني لن أفعل ذلك ما حييت، مهما فعلتم بي».

وجّه الشرطيان الكبيران قبضتيهما على كلّ جانب من أضلاعي. انثنيت ألماً، ثم طُرحت أرضاً. عندما رأيت حذاءيهما الطويلين يرتفعان عن الأرض، أغمضت عيني.

كان ظهري وصدري وبطني تحترق ألماً. لم أستطع أن أتنفّس جيداً لأن أنفي كان ينزف دماً. لم أستطع أن أفتح فمي لأن شفتيّ كانتا متورمتين. لا أكاد أستطيع أن أرى إلا بعين واحدة، ويبدو أن العين الأخرى قد فقدت البصر. جرّني الشرطيان الضخمان إلى الممر. بعيني التي أرى فيها، رأيت دماً يقطر أمامي. كان صدري يعلو ويهبط بقوة. إلى أين يأخذونني الآن؟

فتحا باب الزنزانة وألقياني فيها. هرع مصطفى نحوي. «يا إلهي، ماذا فعلوا به؟»

«اخرس»، قال صوت حادّ، الصوت الذي كان يلعنني عندما كان الشرطيان الضخمان يوسعاني ضرباً. كان صوت الشرطي الممتلئ الجسم.

أحسست بيد مصطفى على خدي، وسمعته يقول متوسلاً الآن: «أرجوك، إن الدم يسيل من الجرح في جبهته. أرجوك ساعده. ألا ترى أنه يوجد جرح في رأسه؟»

«لا تقلق، سيأتي دورك قريباً إن شاء الله».

«ماذا فعل لكم هذا الرجل؟ لقد أحبّ. لماذا تجعلونه يتألم هكذا؟ انظر، أيها الشرطي، إن الأمر خطير. أرجوك انقله إلى المستشفى».

«ننقله إلى المستشفى لمعالجته ثم ليتهشم وجهه من جديد في

الساحة العامة؟ لا تضحكني. حسن أنه جُرح، فقد أصبح في منتصف الطريق إلى هناك».

ثم سمعت صوت ضحكات صاخبة.

إنه يوم الجمعة الثاني. هذا أسبوعي الثالث في السجن. أكاد أكون قد تماثلت للشفاء من الضرب الذي تلقيته للمرة الثانية يوم الجمعة الماضي. كنت أتوقّع زيارة من ضابط التحقيق الممتلئ الجسم ومساعديه الضخمين.

«مصطفى، هل تظن أنهم سيقتادونني إلى ساحة القصاص اليوم؟»

لم يجب.

«مصطفى، أرجو أن يكونوا رحيمين بي ويقطعوا رأسي بدلاً من رجمي».

أخفض رأسه.

فُتح الباب. كان شرطيان يضعان عصابات سوداً على ذراعيهما وطلبا مني أن أقف. استطعت أن أرى السلبية ذاتها في عينيهما التي كنت قد رأيتها في عيني أبي فيصل. «نعم»، دمدمت.

عندما مشيت نحوهما، أمسك مصطفى يدي، وشمّر عن ساعدي، وعانقني بقوة. كنت مذهولاً. لم تبدر مني أي ردة فعل. لم أعرف ماذا أقول. كنت أرتعش لكن لم يكن بمقدوري أن أتفوّه بكلمة واحدة. رحت أنظر إلى مصطفى. ضغط على يدي بقوة، وبعينين ثابتتين، جعلني أقسم بألاّ أندم على ما فعلته لأن «الحياة مؤقتة، ولأنه ليس من العار أن يعاني المرء عواقب الحبّ»

ثم أدار ظهره وأخذ ينشج.

قيّدني الشرطيان بالأصفاد. حاولت أن أتوسل إليهما للمرّة الأخيرة، «لقد كذب جاسم عليكم. إني لست متزوّجاً. كنت أحبّ فتاة ليست متزوّجة. أقسم بالله أن ذلك كان أول حبّ لكل منا. يجب أن أُجلد، لا أن أُرجم حتى الموت. انظروا، ألا ينصّ القانون على ضرورة وجود شهود؟ أين هم؟ «غمضت عيني ورأيت نفسي مدفوناً في حفرة حتى خصري، ورجال يلقون بحجارتهم على وجهي ورأسي حتى الموت. بدأت أصرخ. متوسلاً للشرطي، «لماذا لا تأخذونني إلى القاضي؟ عندي أشياء كثيرة أريد أن أقولها له. أحلف بالقرآن إنني كنت أحبّ فتاة عازبة وأنا لست متزوجاً». دُفعت خارج الزنزانة إلى الممر. توسلت إليهما لآخر مرة. «أرجوكم، إذا أردتم أن تقتلوني، أرجوكم اطلبوا منهم أن يقطعوا رأسي. الله سيكافئكم. ارحموني، أرجوكم اقتلوني بسرعة».

خارج السجن، رأيت تمثال الطائرة قابعاً في مكانه، ومع أن عجلاتها الأمامية تتأهب للإقلاع إلى السماء إلى أرض محايدة. أتمنّى أن تقع معجزة، وان تحلّق الطائرة معي.

عندما أخفضت رأسي، رأيت الشرطي جاثياً يقيّد قدمي. هطلت دموعي على الأرض أمامه. نظر إلى الأعلى. أغمضت عيني وأحنيت رأسي إلى الوراء. أخذت نَفَساً عميقاً. رحت أفكّر بفيور، ما كان أشدّ شوقي لها، ما أشدّ ما كنت أريدها أن تكون معي وأن تضمني إليها لآخر مرة في هذه الحياة.

حملوني إلى شاحنة برفقة شرطيين. دفعوني إلى مقعد معدني،

وعصبوا عينيّ. لكنني كنت أعرف إلى أين سيقتادونني، لذلك أملت رأسي إلى الوراء، وتساءلت ماذا تفعل فيور الآن، إن كانت في غرفتها تكتب رسالة فلن أستلمها، أحلم بحياتنا معاً.

أقف حافياً فوق البلاط الناعم الدافئ.

أزال أحدهم العصابة عن عيني ووجدت نفسي في مكان مألوف. ساحة القصاص. أمامي يقع مركز التسوّق حيث التقينا أنا وفيور لأول مرة. نظرت إلى الأسفل وتذكّرت القصّة التي كنت قد سمعتها في المدرسة عن الرجل الباكستاني من شارع «أنا بريء». إنني بريء مثله، قلت لنفسي. هل سيكتب دمي هذه الكلمات المباركة على البلاط؟

بدأ الناس يحتشدون، مشكّلين دائرة حولي. نظرت إلى أيديهم لأرى إن كانوا يحملون حجارة ومتأهبين لإلقائها على وجهي.

لم أر أحداً.

ما إن كنت على وشك أن أطلق تنهيدة ارتياح، حتى رأيت أبا فيصل يشقّ طريقه بين الحشد. تهاوت ركبتاي وانهرت على الأرض.

ألمّ بي ألم شديد في داخلي. أردت أن يحملني أحد، ويهدّئ من روعي، ويقول لي إن قطع الرأس أرحم وأسرع. أنظر إلى المحتشدين باحثاً عن ذلك الشخص. لديّ أشياء كثيرة أريد أن أقولها له. كنت أريد أن أخبرهم عن شعوري الآن.

لكن الحشد لا يأبه بأحزاني. كانت أيديهم متشابكة وهم يتهامسون، ورأيت بعضهم يتمايل ويتضاحك وهم يتبادلون النكات، وكان آخرون ينظرون إلى ساعاتهم وكأنهم يقولون، «هيا، نريد أن ينتهي الأمر بسرعة، ونمضي في سبيلنا».

أطرقت برأسي وحبست دموعي. لم أكن أريدهم أن يسمعوني أو يروني وأنا أبكي لأنهم لن يفهموا. إن الحبّ غريب في هذه الساحة.

رفعت رأسي ولمحت أبا فيصل. لم تكن تفصله عني سوى بوصات قليلة، وكان لا يزال ينظر إلى جمع الناس، نافخاً صدره. أدار رأسه ببطء نحوي. التقت عينانا. تذكرت ابنه، صديقي.

لا بد أن أبا فيصل كان ينتظر السيف. رحت أبحث بعيني عن نساء بين الحشد. رأيت أربع نساء في الطرف الآخر على يميني. كن متحجبات بالكامل. نظرت إلى أحذيتهن. لم تكن بينهن.

وبغتة اندلع صوت عال عبر مكبر الصوت. نظرت من وراء كتفي. إنه المذيع. ثبّت نفسي.

قال: «إننا هنا، أيها الأخوة، لنشهد إقامة العدل ضدّ هذا الكافر. لقد ارتكب هذا الرجل الإثم الذي لا يغتفر: الزنى. إن الرجل الذي يقترف هذه الجريمة المشينة في أرض النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، لا بد يكون رجلاً عديم القلب والروح. إن هذا الرجل الجاثي أمامنا على هذه الأرض البائسة هو خائن باع دينه لقاء شهواته، رجل استعاض عن صلاته بأن ألقى نفسه بين ذراعي مخلوقة ملعونة، رجل، بدلاً من أن يقرأ القرآن، كان يمضي وقته الثمين على هذه الأرض مع امرأة، ستكون إن شاء الله سبيله إلى نار جهنم. وهذا الرجل يرفض أن يسأل الله المغفرة على جريمته، وأن يسجد أمام الله تعالى ويطلب مغفرته. إنه يعيش حياته كالشيطان، ويتصرّف وكأنه لم يرتكب إثماً ويعيش أيامه خالية من الإثم. كيف يمكن لهذا الرجل أن يقف أمام الله وهو غير آسف؟ كيف يمكنه أن يتنفّس هواء الله من دون مسحة من

الندم؟ لقد انحرف عن الصراط المستقيم، لكن قاضينا حكم بأنه لا يليق إنزال الرحمة بكلب كهذا، ونأمل أن يُدخل بمئة وتسع وتسعين جلدة خشية الله إلى قلب هذا المرتد الكافر».

انهرت ورحت أبكي من السعادة. لن أموت. لن يُقطع رأسي. وقفت. كنت أريد أن أختطف مكبر الصوت من يده وأصيح لفيور، راجياً أن تسمعني حيثما كانت. «حبيبتي»، أردت أن أصرخ، «إني سأظل حياً!»

وبغتة، أحسست بيديّ شخص يمزّق قميصي. رفعت عيني. كان أبو فيصل يحمل عصاه. سمعت هدير الحشد يهتف في اللحظة التي سمعت فيها صوت هسيس العصا وهي تهوي على ظهري. بدأ عدد من الناس يحسبون عدد الضربات، وأخذ آخرون يصيحون، «اضرب هذا الكافر بقوة أكبر، ليحرقه الله في نار جهنم». أحسست بدم حار في ظهري. العصا تسلخ لحمي في كل ضربة، لكن لم يعد ذلك مهماً، لأنني رحت أفكّر بحبّي، بحياتي. «الآن ماذا سيحدث؟ ما أشكال العقاب الأخرى التي سيبتدعونها؟ هل سيرحّلونني؟ هل لا تزال فيور تحبّني، حتى من تلك المسافة الطويلة؟ ماذا سيحدث لها؟»

تهاويت.

أُعدت إلى زنزانتي في السجن نفسه. لم أكن قادراً على الوقوف على قدمي، فاستلقيت على بطني على فراشي. ألقوا بي هنا ولم يتركوا لي شيئاً. كنت أشعر وكأن أحداً يصبّ سائلاً مغلياً على الجروح التي تملأ ظهري ومؤخرتي. كان عزائي الوحيد أن ينحسر الألم، أما الآن فكان علاجي الوحيد أن أعضّ الملاءات المبقعة بالدهون على سريري.

مضى أسبوع على اليوم الذي جُلدت فيه في ساحة القصاص. كانت الجروح قد بدأت تلتئم، لكنني كنت أعرف أنها ستترك ندوباً كبيرة على ظهري. لم أكد أستطيع أن أنام، لأنني كلما حاولت ذلك، كانت تنتابني كوابيس عن ساحة القصاص وأبي فيصل.

كنت ما أزال لا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، وما سيفعلونه لي، وهل سينتهي ذلك. حتى الله يبدو أنه لا يعرف. لم تستجب دعواتي. إن قدري يقبع بين أيديهم.

أصبحت وحيداً في هذه الزنزانة. لم يكن مصطفى هنا. فقد أُخذ في يوم الجمعة الماضية عندما اقتادوني إلى ساحة القصاص. لم يخبرني قط عن سبب دخوله السجن. لا أعرف إن كان قد رُحّل إلى نيجيريا، أم اقتيد إلى ساحة القصاص أيضاً. شعرت بالحزن على غيابه. حزنت على حبّي.

بدأت أرفض وجبتَي الطعام اللتين يقدمونهما في اليوم. كنت آكل وأشرب مرة واحدة فقط في اليوم لأحصل على القوّة المطلوبة لكي أفكّر فيها، بينما كنت أنتظر ما سيفعلونه بي بعد ذلك. وكان كلّ ما أفعله في هذه الزنزانة وحدي هو أن أتذكّر أنني قلت لها إنني أحبّها.

دخل شرطي إلى زنزانتي وطلب مني أن أنهض.

«تعال إلى هنا»، قال، واقفاً فوقي. كان يعدّل حزام مسدسه الأسود وقد شبك يديه فوق بطنه.

أشار إلى الباب. خطا إلى الوراء، ودفعني إلى الخارج.

كانت تعتريني رجفة عندما أُدرك أن اليوم هو يوم جمعة. سرنا في طريق متعرج مجتازين رجال شرطة آخرين في الممر. كنت أتبعه كذيله.

دخلنا إلى مكتب فيه ثلاث طاولات، وكومة من الأوراق والملفات، وأمرني بأن أجلس. أشار لي إلى الكرسي الخشبي. مشى حول الطاولة وأعطاني سماعة الهاتف، وقال: «هيا، لديك مكالمة هاتفية بانتظارك». نهض وغادر الغرفة.

أمسكت سماعة الهاتف ومن دون أن أفهم شيئاً رحت أحدّق فيه بصمت لوهلة.

«ألو؟»

كان هلال على الخطّ.

«هلال؟ يا إلهي، هلال، إني سعيد جداً بسماع صوتك. ماذا...»

«اسمع يا ناصر. اسمع جيداً يا صديقي، لديّ دقائق قليلة فقط على الهاتف. يا ولد، لقد غاص قلبي عندما رأيتك تجري من المقهى وعرفت أن خطتك قد فشلت».

«لقد اقتادوني إلى ساحة القصاص. جلدوني. كنت أظن أنهم سيعدمونني. ماذا سيفعلون بي الآن؟»

«باسم الله الرحمن الرحيم، اسمعني. كفيلي هو الذي أوقف حكم الإعدام».

جففت دموعي، ورحت أكرر شكري لهلال ولكفيله. «حسناً ناصر».

«كيف أستطيع أن أشكركما؟»

«بأن تكون قوياً. إني حزين من أجلك ومن أجل فيور»، وسكت للحظة، منحني وقتاً لأستوعب كلماته، «لكن سيكون أمامك وقت كاف

للحزن. الآن، اسمعني جيداً. سيرحلونك إلى السودان. ستذهب إلى بور سودان. لقد داهم المطوّعون شقّتك لكنني ذهبت إليها قبلهم وأخذت جميع الرسائل وصورة أمّك إلى بيتي. أحمد الله أنك لم تستخدم اسمها الحقيقي».

«لماذا يفعلون ذلك؟ هلال، اخبرني لماذا؟ إني مشتاق لفيور. كيف حالها يا هلال؟»

«ناصر، كن قوياً. لقد جازفت عندما ذهبت إلى جاسم. أعرف أنه لم يكن لديك خيار آخر، لكن الآن بعد ان ألقوا القبض عليك فإنهم سيرحلّونك. ليس هذا الوقت مناسباً لتشعر بالأسى على نفسك. إن زوجتي هنا. قابلت فيور في حي النزلة. بحثت عن الحذاء الوردي. أخبرتها زوجتي بما حدث لك».

«هل لا يزال حذاؤها يضيء حي النزلة؟»

«قالت فيور لزوجتي إنها لم تعد بحاجة لانتعال الحذاء». انحنيت ورحت أضغط بيدي على بطني لأوقف الألم. تذكّرت مفكرتي وسألت هلال عنها.

«نعم، لقد وجدت مفكرتك أيضاً، وطلبت من زوجتي أن تعطيها إلى فيور مع الرسائل».

خفضت رأسي يائساً، محرجاً من الأسرار الواردة في المفكرة عن ماضيّ التي أصبحت بحوزة فيور الآن. لكن هلال لم يكن يدرك مشاعري بالقلق.

«انتبه الآن. سينتظرك أخي في بور سودان وسيصحبك إلى بيتنا في المدينة، وسيصبح العنوان البريدي الذي ستصل إليه رسائلك من فيور.

وعندما أستلم رسائلك، ستنقلها زوجتي إلى فيور. أرجو أن تتذكّر أنّني عشت في جدة سنوات عديدة من دون أن أرى زوجتي، وكانت الرسائل هي كلّ ما بيننا. إن الرسائل تكون أحياناً كلّ ما يحتاجه العشاق. سينهار الحاجز الذي يفصل بينك وبين فيور في البحر الأحمر بكلماتك، لأنه لا توجد عقبات يمكنها أن تمنع وصول مشاعر العشاق. وعندما تريد أن تكلّم فيور، اذهب إلى شاطئ بور سودان لأن أمواج البحر الأحمر ستحمل رسائلك إلى فيور. ناصر؟ ناصر؟ هل تسمعني؟»

«نعم. نعم».

«إحرص على أن تخفي ما سيعطيك إياه الشرطي جيداً. يجب ألا يأخذه أحد منك. ليكن الله معك يا صديقي. سأراك في بور سودان قريبا جداً».

انتهت المكالمة. فقدت أصابعي قبضتها وسقطت السماعة من يدي على الطاولة، تبعها رأسي، وأمسكت بطني بيدي.

دخل الضابط الغرفة وأغلق الباب وراءه. وضع يده في جيبه وأخرج بسرعة مغلفاً مطوياً، وقال: «خذ»، وهو يمدّ يده.

أمعنت النظر فيه، مشوّشاً. اختطفت المغلف الأبيض من يده بعد أن عرفت أنها رسالة من فيور. استطعت أن أشمّ عطرها.

نقر الضابط على كتفي وقال: «خبأه بسرعة. يجب أن نسرع».

دسست المغلف في عمق جيب قميصي، بالقرب من قلبي. أمسكني من ذراعي واقتادني.

انضم إلينا ثلاثة رجال شرطة ـ يرتدون سراويل كاكية اللون وقمصاناً خضراء ـ في الممر الطويل. فُتحت بوابة السجن واستقبلتني الشمس

بحرارتها القائظة. بذلت جهداً كبيراً لأفتح عينيّ في هذا الضوء اللامع. اقتادوني إلى سيارة شرطة ودفعوني إلى داخلها.

رحت أفكّر بالرسالة الملتصقة بجسمي المبلل بالعرق. أردت أن أفتحها وأقرأها الآن.

انطلقت سيارة الشرطة بسرعة في جادة عريضة تحفّها الأشجار. رحت أنظر من نافذة السيارة. عرفت أنّنا كنا نجتاز جسراً، لكنني لم أستطع أن أعرف أين نحن بدقة لأن السيارة كانت تنطلق بسرعة كبيرة وكان كلّ ما يمكنني أن أراه هو وميض البنايات والأشجار التي كانت تبتلعها سرعة السيارة.

لكنني كنت أعرف إلى أين كنا ذاهبين. أسندت رأسي إلى المقعد ورحت أنظر من النافذة، أفكّر بفيور.

كانت السيارة تسير مسرعة أسفل الجسر. رأيت رافعات شديدة الارتفاع تملأ السماء فوق البحر.

تسللت رائحة البحر عبر نافذة السيارة: لم أشأ أن أفعل ما كنت قد فعلته قبل عشر سنوات، عندما وصلت إلى جدة لأول مرة، عندما مددت رأسي من النافذة ورحت أستنشق الهواء العليل المفعم بالأحلام الجميلة. بل أغمضت عيني، وضغطت ركبتي معاً، وأطرقت برأسي.

إذن هل هذا هو الميناء الذي سمعت عنه كثيراً؟ لماذا لا ترتعش ساقاي؟ أخذت نفساً عميقاً، وشممت رائحة الملح في الهواء. أردت أن أنظر حولي، لكن شرطياً جرني إلى مكتب يجلس فيه ضابط يحمل أوسمة على مقعد جلدي وراء طاولة مكتب بنية اللون فوقها الكثير من الأوراق وجوازات السفر. قال: «خذه إلى البوابة سبعة».

أعادوني إلى سيارة الشرطة. اجتازت السيارة بوابات المواشي وبوابات الحاويات، قبل أن تصل إلى بوابة المسافرين. توقفت السيارة، وعندما خرجت رأيت سفينة كبيرة. وعلى بعد عدة أمتار، كانت ترسو عبّارة أخرى تحمل علماً مصرياً. كان يجري تحميل السفينة بالعربات ومئات المسافرين.

«حلت عليك اللعنة إن شاء الله»، شتمني أحد الموظفين في الجمرك. عندما قال ذلك فقط أدركت أنّني وضعت قدمي بثبات على الأرض. شدّوني من ياقتي وألقوا بي وراء رجل يرتدي بدلة رمادية يقف في رتل طويل يفضي إلى سفينة كبيرة ذات طابقين.

أرى رتل نساء على يميني، في خط مواز لنا. رحت أنظر إليهن، متمنياً أن تقع معجزة وتكون فيور بينهن. لم تكن جميع النساء الواقفات محجّبات. معظم النساء يطرقن برؤوسهن إلى الأسفل، بعضهن كانت دموعهن تتساقط على أقدامهن. وكان هناك أطفال يصرخون، لكن الرجال كانوا يحدّقون في البحر بصمت.

إنهم يرحلّوننا جميعنا.

بدأ الرتل الذي أقف فيه يتحرّك. لا أزال غير قادر على المشي بشكل طبيعي، فالأماكن التي هوت عليها العصا لا تزال تحرق ظهري وساقي وذراعي. رأيت السفينة تهتزّ، مبرزة عضلاتها، تتحدانا بأن نمتطي كتفيها.

لم يتوقف النساء والرجال في الرتل عن التضرع إلى الله، ولم يكن المسؤولون السعوديون يتوقفون أيضاً عن ذكر أحد أسماء الله التسعة والتسعين في كلّ جملة يقولونها، حتى أثناء لعناتهم وضربهم.

«هيا»، دمدمت لنفسي، «تحرّك». أريد أن أصعد إلى الطابق العلوي من السفينة لأتمكن من رؤية رصيف الميناء. فقد قال لي هلال إنه سيكون هناك ليودعني.

فُتحت البوابة وبدأنا نصعد إلى السفينة. كان حرّاس أمن يراقبون كلّ خطوة نخطوها، لكننا كنا نمتلك حرية التنقل بين طابقي السفينة. صعدت إلى الطابق العلوي في السفينة لألقي نظرة على جدة. وبينما كان المركب يتمايل فوق الأمواج، كانت عروس البحر الأحمر تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وكأنها ترقص ببطء.

سمعت أحدهم يصيح، «أيها الرجال والنساء، استمعوا إلي». التفتُّ لأرى رجلاً ذا بشرة فاتحة يضع عمامة سودانية يقف فوق مقعد. ابتسم ابتسامة عريضة وقال: «يا أبناء شعبي العزيز، دعونا لا نجعلهم يشعرون بالراحة. إننا شعب نفتخر بأنفسنا، ولدينا تاريخ يبعث على الفخر». وبدأ عدد من المجموعة ينشدون أغاني عن وطنهم. التفتُّ لألقي نظرة على رصيف الميناء.

بدأ محرّك السفينة يهدر. كافحتُ لأحبس دموعي، وأنا أتكئ على السور أنظر إلى رصيف الميناء. لم يكن شيء يتحرّك. وضعت يدي فوق جيب قميصي، وضغطت بيدي على الرسالة. أردت أن أقرأها الآن لكنني كنت أخشى مما يمكن أن يرد فيها. سأنتظر حتى نبتعد عن الشاطئ.

نظرت إلى البحر. كان ثمة هدوء مفاجئ وغريب يخيم على سطح البحر. فقد كان يبدو مثل سجادة زرقاء هامدة. وقبل أن تنطلق السفينة بقليل، حلّق سرب من الشحارير فوقنا واتجه نحو الرصيف. حلّقت

الطيور في السماء بضع ثوان، تخفق بأجنحتها بقوة، وكأنها تتردّد في الهبوط. ومثل ستارة مسرح تُفتح، طارت نصف الطيور في اتجاه، وطار النصف الآخر في الاتجاه الآخر. وخلف سحابة الطيور استطعت أن أرى عدداً من النساء المتجمعات عند حوض السفن، وكان هناك في وسطهن، الحذاء الوردي.

«حبيبتي فيور».

كانت أطراف عباءتها ترتعش مثل ريش طير. وعندما رفعت يديها لوقف ارتعاش عباءتها، كانت أشبه بطائر فلامنغو أسود يستعد للطيران.

«أحبّك يا حبيبتي»، همست.

كان الحذاء الوردي بارزاً بين أحجار رصيف الميناء البيضاء. جثت: أحنت رأسها أولاً، ثم كتفيها، وانثنى جسدها الرائع. عادت الطيور وراحت تغرد حولها. نزعت حذاءها الوردي ولبثت واقفة في مهب الريح. رفعت حذاءها إلى صدرها وضمته إليها بقوة. أطلقت السفينة صافرتها وبدأت رحلتها. انحنت فيور وألقت الحذاء إلى البحر.

استمرت الجماعة السودانية في الغناء لكنني كنت أبكي بصمت. كنت أهمس «فيور»، لكن أمواج البحر الأحمر راحت تردّد اسمها ألف مرة.

لوّحت لها بيدي. «فيور، رسالتك معي. انظري. . .» أخرجتها ورحت ألوّح بها. «سأحبّك دائماً».

رمت لي قبلة بيدها المكسوة بالقفاز.

عندما ابتعدتْ عن الرصيف وانضمتْ إلى رتل النساء الأخريات اللاتي كن يلوّحن لتوديع المغادرين، كانت عباءتها الوحيدة التي كانت

لا تزال ترفرف في الهواء مودعة بحزن. وعندما ابتعدت السفينة، غابت عن رؤيتي وأصبحت تشبه الأخريات. لكنني كنت لا أزال أرى الحذاء فوق سطح المياه الزرقاء، الذي كان كذلك يغادر جدة، المدينة الدوّارة، ويتراقص مع الأمواج مثل ضوئين ورديين يومضان في البحر الأحمر، ويحمله المدّ إلى الأعلى قبل أن يعود ليغوص عميقاً بين الأمواج. وهكذا تعود جدة إلى الفيلم بالأبيض والأسود، كما كانت دائماً.

حبيبي،

لقد درّبت نفسي على مثل هذه اللحظة مليون مرة في عقلي. حتى قبل أن أبدي لك حبّي بزمن بعيد، عندما كنت أحلم بأن أحبّ، كنت أتخيّل ماذا سيحدث لو أُبعدت عن حبيبي.

أحياناً، في لحظات الضعف، كنت أتمنّى لو لم أقطع عليك خلوتك عندما كنت تجلس باسترخاء تحت شجرتك. كنت أمنع نفسي من الاقتراب منك. كنت أمرّ أمام الشجرة التي تجلس تحتها مثل تفاحة سقطت منها، وأشعر بوميض الحبّ يدغدغ قلبي، يجعلني أريد أن أزداد قرباً منك، لكنني كنت أحجم عن ذلك.

لشهور، كنت أتمعن في وجهك كلما رأيتك، وعندما تغلّبت على حذري، وصلت إلى قناعة بأن حبّي لك سيلقى منك استجابة. ما يجعلني أشعر بالراحة هو أنني أعتقد أنني كنت محقّة. كنت محقّة لأنني أظهرت لك حبّي مهما بلغت العواقب، وقد جعلني ذلك أسعد الفتيات في العالم.

حبيبي، قال لي هلال إن الحارس سيعطيك هذه الرسالة. لا أعرف

أين ستكون عندما تقرأ كلماتي هذه، فقد تكون في زنزانتك، أو على متن السفينة في وسط البحر الأحمر، لكنني أعرف أنك ستكون بعيداً عني.

عندما أخلو إلى نفسي في غرفتي الخاوية، أبحث عن ذاكرتك. عندما أستلقي على سريري، أغمض عيني لأشمّ رائحة مضاجعاتنا التي لا تزال تعبق بين ملاءات سريري، وأدفن وجهي في إحدى وساداتي، أتخيّل صورتك مرسومة إلى جانب رسوم وحيد القرن المطرّزة على غطاء الوسادة، راجية أن تطير شفتاك فجأة وتقبّلاني. ثم آخذ الوسادة الأخرى، كما لو كانت يدك، وأضعها على قلبي، لأن الألم ينبع من هناك.

أغمض عيني بحثاً عن ضحكتك وكلماتك التي لا يزال صداها يتردّد في أرجاء غرفتي. وأقف أحياناً أمام مرآتي طوال اليوم راجية أن يعود بي الزمن إلى الوراء، وعندها أشعر بأنني أقف أمامك، ظهري ملتصق بصدرك، ويداي ممدودتان إلى الوراء أشدّك إليّ أكثر وأكثر. أشعر بك تملأ أذني بالكلمات التي لا يكلّ العشاق من تبادلها، لكنني عندما ألتفت لأقول إني أحبّك، أجد أيضاً أن حلمي قد تلاشى.

أبكي من الفراغ. أصرخ في وجه الوحدة. تدخل أمّي إلى غرفتي وهي تريد أن تضمني إليها. لكني كنت أطلب منها ألا تفعل ذلك لأن جسدي ما زال طرياً ورقيقاً بلمساتك الأخيرة. أحاول أن أبحث عن البقعة التي وقفت فيها آخر مرة، المرة الأخيرة التي شغلها جسدك. وعندما تغادر، تأخذ حزنها معها، أجثم فوق سريري، ثمّ يهبط المساء، وعندما يأتي الصباح، أعود وأفعل ذلك من جديد. أشعر بقضبان حديدية تتشكّل حولي، تحصر روحي وقلبي في سجن الماضي.

وعندما يشتد الألم، أخرج، وأتمشى في حي النزلة، ذات الشارع الذي أحسست فيه ذات مرة أنني مثل ملكة عندما كنت تنظر إلى قدمي، وكأن حذائي أجمل شيء في الكون. أما الآن، فقد ذهب كلّ ذلك معك أيضاً. لقد أصبح حذائي شيئاً عادياً الآن، ولم يعد يعني شيئاً لأحد هنا.

أجد نفسي أسير من دون توقّف، حذائي الوردي يجتاز المشاة الفاقدي البصر، وتجلبني حافلة إلى البحر الأحمر.

أجلس الآن على المقعد الذي كان يجلس عليه عازف العود، أكتب لك هذه الرسالة. لقد مضى شهر على اعتقالك.

لقد جئت إلى هنا لأقول لك إنني اتّخذت أخيراً القرار الذي طالما أجّلت تنفيذه. لقد فقدت الأمل بأن معجزة ستقربني منك، بأن أحداً سيعيدنا معاً. أخبرني هلال أنك ستذهب إلى السودان، وقد بذلت ما بوسعي لأن أستدين نقوداً من صديقاتي كي أسدد ثمن جواز سفر مزوّر وتذكرة سفر، لكنهن قلن جميعهن إنهن لا يستطعن لأن آباءهن وأزواجهن يحتفظون بالمال. حاولت أن أبحث عن عمل لكن أبي أغلق الباب في وجهي وقال إنه لا توجد امرأة في بيته تعمل، حتى إنني بدأت أشكّ في إمكانية أن نلتقي ثانية.

لكنني حزمت أمري يا حبيبي بعد ظهر البارحة. كنت جالسة وحدي، مولية ظهري مدينة جدة، أنظر إلى البحر الذي طالما كنت تنظر إليه. أحسست بروح عازف العود الذي حدثتني عنه كثيراً، تجلس بجانبي، تحدّق بصمت في البحر، وأغمضت عيني، أخشى المصير الذي قد ينتظرني عندما أفتحهما.

جفناي مطبقان، مثل مصراعي نافذة غرفتي، رأيت الحياة التي كانت تنتظرني في حي النزلة. كنت أعرف أنني لو عدت، فإنني سأُدفن تحت قواعد الرجال وأوامرهم.

شعرت بأنني محاصرة بين البحر الهائج والرجال في حي النزلة. أيهما سيكون؟ إن الموت ينتظرني في كلا الاتجاهين.

أبقيت عيني مغمضتين بقوة، غارقة في أعماق خواء حياتي.

عندما فتحتهما، نظرت إلى البحر، وإلى أوج المدّ.

أردت أن أمزّق حجابي وأهرع إلى الماء، إلى الموجات الساحرة، حيث سأكون مثل طفلة مبتهجة، ألوّح بيدي بسذاجة، أصيح، وأسخر من الحرية القصيرة، من جمال الحياة القصيرة، قبل أن ينتهي كلّ شيء عندما أصل إلى الأعماق.

لكنني لم أتحرّك. أحسست بقدميّ ثقيلتين، كما لو نبتت لحذائي الوردي جذور في أعماق الرمل.

تذكّرت الوعد الذي قطعته لك آخر مرة كنت فيها في غرفتي.

انتابتني رغبة في الصراخ، لأجاري هدير البحر. لكن بصمت، وجدت يدي تتحرك إلى حقيبتي المركونة بجانبي على المقعد التي تضم مفكرتك، مذكراتك. وضعتها في حضني وانحنيت ورحت أبكي.

حاولت أن أمسك نفسي عن قراءتها منذ أن أعطاها لي هلال، لكنني البارحة شعرت بالحاجة إلى سماع كلماتك، كنت بحاجة لتكون بقربي كي تساعدني على الخروج من حالتي هذه.

رحت أقرأها صفحة إثر صفحة عن حياتك منذ اللحظة التي وصلت

فيها إلى جدة حتى بلغت الخامسة عشرة من عمرك، وعندما أرسلك خالك إلى الكفيل المنحرف، والفترة التي أمضيتها في مقهى جاسم. رأيت الكثير من الألم، الكثير من المعاناة مدونة في الصفحات وسعيك الحثيث للتحرّر. وعندما أنهيت قراءتها أخفضت رأسي ولم أستطع أن أفكّر بشيء إلا بالرغبة العاتية في أن أضمك إليّ بقوّة، وأقول لك ما أعزّك لديّ.

هرعت إلى بيت هلال، لا أفكّر بشيء سوى أن أكون معك. رجوته أن يساعدني في تنفيذ خطتي. ذُهل وحاول أن يغيّر رأيي، وقال إنني يجب ألا أتاجر بكرامتي، وإن الصبر هو أمل المحبين. وعرض أن يسأل كفيله الطاعن في السن جواد بن خالد، الذي غادر فجأة للعلاج الطبي في أمريكا، ليساعدني بعد أن يعود بعد شهور قليلة. لكنني قلت لهلال إنني لست متأكّدة هل سيتمكن الكفيل من مساعدتي، وإنه لا وقت لديّ لأضيعه، بعد أن أخبرني أبي مؤخراً أنه وجد لي زوجاً وأنه لن يدع أمي توقفه هذه المرة. ماذا سيفعل زوج لزوجته عندما يكتشف أنه ليس أول رجل في حياتها؟ يجب أن أتصرّف الآن.

نقل هلال اقتراحي على مضض إلى كفيلك بدر بن عبد الله، الذي قلت لي إن لديه السلطة ليحصل لي على جواز سفر وليأمر موظفي الجمارك بالسماح لي بالمرور من دون سؤال.

حبيبي، بينما أتهيأ لمنح كفيلك ما تعين عليك أن تمنحه له عندما كنت في الخامسة عشرة من عمرك، أعرف أنك لن تطلق حكماً مسبقاً عليّ. يجب أن أفعل ذلك لأحظى بحياة تكون حقيقية، ولن أندم على ما فعلته مطلقاً. لا أريد أن أفكّر في ما سيحدث، بل سأفكّر فقط متى

سأراك، وأذكّر نفسي بالوعد الذي قطعته لك في آخر عصر يوم جمعة أمضيناه معاً. هل تتذكّر ذلك اليوم يا حبيبي؟ كانت شمعة واحدة مشتعلة في غرفتي المظلمة. كان أحدنا يقف عارياً أمام الآخر، وكان الظلام يكسو نصف وجهك، ونصف وجهك الآخر يتوهج في ضوء الشمعة.

«فيور؟» همستَ.

لم أجب.

«فيور؟»

مددت يدي إلى الطاولة وأمسكت الشمعة، ورفعتها بيدي. تفحصت وجهك بصمت. اقترب وجهانا أكثر، قريباً من لهيبها. النار جعلت شفتيك تبدوان شديدتي الصفرة. كانت حبات العرق تتساقط ببطء، مثل الدموع، من شفتك السفلى.

أصبح أحدنا مرآة للآخر، لحزننا، وحبّنا، وألمنا، واشتياقنا.

وعندما سقطت الشمعة بين أقدامنا، وعندما خيّم الظلام على الغرفة، وهبطت شفتاك على شفتي مثل غطاء، أردت أن أقول لك، قبل أن تغادر، إنني لم أشعر بالندم لأن الحياة لا تُقدر بثمن، لأنه من المبكر لي أن أموت، لأنني لن أدعهم يدفنونني حيّة، بينما قلبي ينبض بحبّك ولا يزال لديه الكثير ليقدمه، ليس قبل أن تعمى عيناي اللتان تعشقانك، واللتان لا يزال أمامهما الكثير. «حبيبي» أردت أن أبدأ، بينما تعض أسنانك شفتي، بينما تسرّع أنفاسك خفقات قلبي، بينما يفتن لسانك لساني وينومه تنويماً مغناطيسياً. «ناصر؟ حبيبي؟» هناك الكثير الذي أريد أن أقوله لك، لكن كلماتي مشتتة مبعثرة، مثل يديك اللتين تتحرّكان فوق جسدي. وعندما بدأنا ندور أحدنا حول الآخر كما لو كنّا فوق

ساحة رقص مقدّسة، نرقص معاً، متشابكين من رأسينا حتى أصابع قدمينا، وفيما نواصل التحرّك في دائرة نكسر كلّ شيء في طريقنا حتى نجد السرير أخيراً، توقّفنا. أردت أن أصرخ، «ناصر، اسمعني»، لكنك وضعت يدك اليمنى تحت فخذي اليسرى، ويدك اليسرى تحت فخذي اليمنى، ورفعتني عن الأرض عالياً بحيث شعرت بأنّني أستطيع أن ألمس النجوم، وعندما تأرجح جسدك، سقطنا فوق السرير مثل طائرين هبطا من السماء. وتهدل شعري على وجهك، ونهداي يضغطان على صدرك، وعندما غصت بين فخذيك، همست في أذنك أعدك، «حبيبي، حتى لو خانك جاسم، وأصبحت وحيدة، فلن أستسلم. لن أكون حكاية أخرى يتندر بها الإمام في خطبه ليخيف المحبين في المستقبل، ولن أحمي شرف أبي، لأن هذه حياتي. لا. سآخذ نفسي إلى البحر الأحمر كما جلبتك إلى غرفتي. مهما حدث. لن أموت. سأعيش مهما كلّف الأمر، لأنني لم أعش بعد، لأنني أتوق إلى الحياة. وأعرف أن الحياة جميلة».

الفهرس

إهداء ٥

شكر ٧

الجزء الأول: فيلم بالأبيض والأسود ١٣

الجزء الثاني: وحيداً في الصيف ٦٣

الجزء الثالث: الرياح التي تهبّ من البحر الأحمر ٨٩

الجزء الرابع: الحذاء الوردي ١١١

الجزء الخامس: باسل ١٥١

الجزء السادس: مرسال الغرام ١٧١

الجزء السابع: سيارة الجيب السوداء ٢٠٧

الجزء الثامن: مشهد من مصر ٢٢٩

الجزء التاسع: عواقب الحب ٢٤٥

هذا الكتاب

كان بعض المهرّبين قد وصلوا. رحت أراقب اهتزاز ضوء مصابيح زيت الكاز وهو يتأرجح على جوانب الجمال. وكان يتجمهر هناك عدد من الأشخاص، لكن لم يكن جميع الأشخاص الموجودين فارين من الحرب الدائرة، فقد جاء بعضهم، كما هو حال أمي وحال النساء الأخريات اللاتي يعشن في قرية «تلّ العشاق»، للتوديع. أما معظمنا، مثلي أنا وأخي، فقد جاء لكي يَهْرَب. كانت أمّي كلّ ما أملكه في دنياي، وكنت أخشى اللحظة التي تطفأ فيها المصابيح وتبدأ الجمال تمشي في الدغل لبدء رحلتنا. وعندها سينتهي العالم الذي عرفته وأحببته كثيراً.